الوجه الحقيقي للإلحاد

راڤي زكراياس

RAVI ZACHARIAS

"إن كنت تبحث عن إجابة أهم سؤال في عصرنا هذا
فإليك هذا الكتاب الذي يتناوله بكل جرأة"

بيلي جراهام

Originally published in English under the title
The Real Face of Atheism
by Baker Books,
a division of Baker Publishing Group,
Grand Rapids, Michigan, 49516, U.S.A.

الوجه الحقيقي للإلحاد

ترجمة: ماريانا كتكوت
تصميم الغلاف: ماجد كميل حنين
التنسيق والتنضيد الطباعي: راعوث زكي
الناشر: د. ماهر صموئيل
الطباعة: رؤية للطباعة
ت ٠١٢٢٦٩٩٠٧٦٠
رقم الإيداع: ١٥٤٤٦ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٣ - ١٩٤١ - ٩٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

كتب أخرى للمؤلف

Can Man Live without God

مترجم إلى العربية بعنوان "هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدون الله"، دار منهل الحياة

Cries of the Heart: Bringing God Near When He Feels So Far

مترجم إلى العربية بعنوان "صرخات القلب: إدراك قرب الله عندما يبدو بعيدًا جدًا"، دار منهل الحياة

Deliver Us from Evil: Restoring the Soul in a Disintegrating Culture

I, Isaac, Take Thee, Rebekah: Moving from Romance to Lasting Love

Is Your Church Ready? Motivating Leaders to Live an Apologetic Life (coeditor with Norman Geisler)

Jesus Among Other Gods: The Absolute Claims of the Christian Message

Light in the Shadow of Jihad: The Struggle for Truth

The Lotus and the Cross: Jesus Talks with Buddha

Recapture the Wonder

Sense and Sensuality: Jesus Talks with Oscar Wilde on the Pursuit of Pleasure

Who Made God? And Answers to Over 100 Other Tough Questions of Faith

مترجم إلى العربية بعنوان "مَن صنَع الله؟" وإجابات عن أكثر من مئة من الأسئلة الصعبة الأخرى عن الإيمان (جُمِعَت مادته بالاشتراك مع "نورمان جايسلر"، دار منهل الحياة)

إلى صديقي العزيز

داڤيز

الذي كان

في حياته

ومماته

أقوى حجة تثبت أنه

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"

المحتويات

تقديم الطبعة العربية

في هذه السطور القليلة لن أقدم "راقي زكراياس" للقارئ العربي حيث إنه قد سبق له أن زار الكثير من البلدان العربية مثل مصر ولبنان وسوريا والأردن وفلسطين والبحرين والإمارات وخدم فيها. ولن أقوم بالتعريف به، فهو غني عن التعريف. كما أن السيرة الذاتية المختصرة في هذا الكتاب تكفي لمن لم يتعرف عليه من قبل. لكنني أود في هذه السطور أن أكتب شيئًا عن "راڤي" كما عرفتُه شخصيًا عن قرب.

لقد انبهرت بخدمته كملايين غيري في كل بقاع الأرض عندما داومت على سماعه سنين كثيرة لكن زاد انبهاري به بعد ما تمتعت بشرف صداقته.

في خدمة راڤي وجدت هذه الثنائيات التي كانت ولم تزل تبهرني.

أولاً: في دفاعه عن الإيمان المسيحي لا يستغل ذكاءه الحاد وثراءه اللغوي وبراعته في صياغة الحجج في التقليل من قدر معارضيه أو التسخيف من حججهم، لكن دائمًا ما يفيض حديثه بالاتضاع الشديد والاحترام الكبير لآرائهم عاملاً بما يُعَلم به: أن الغرض من الدفاعيات ليس ربح المحاجة بل ربح الشخص المحاجج.

ثانيًا: لمستُ فيه الجمع بين العمق الفلسفي والاحترام العميق لكلمة الله.

ثالثًا: رأيت فيه الوعي الكبير بالمستجدات الثقافية في العالم ورفض روح العالم، مما جعله مؤثرًا بشدة في كل المؤمنين ولاسيما بين الشباب الجامعي وفي أوساط المفكرين.

أما في شخصه فقد وجدته يجمع بين مجموعة أخرى من الثنائيات التي لا تقل إبهارًا. فهو يتسم بالعقلانية الشديدة وفي الوقت نفسه عاطفي للغاية. منطقي جدًا وعلاقاتي جدًا. مشجع كبير على الإبداع والتجديد لكنه يقدس كل تقليد جيد. يجمع بين النجاح الباهر كمدافع وكاتب ومبشر ومتكلم مفوه اعتلى أشهر المنابر،

لا المسيحية فقط بل أيضًا السياسية والأكاديمية والفنية، والتواضع الجم الذي يظهر في تقدير البسطاء من الناس وقضاء أوقات طويلة معهم. وامتزاج عمق الشرق مع عقلانية الغرب في تكوينه الثقافي جعله قريبًا من كل الثقافات.

ونحن نواجه اليوم في عالمنا العربي موجة التشكيك في حقيقة وجود الله، كان من المحتم إضافة هذا الكتاب الذي يكشف فيه "راڤي" ببراعة الوجه الحقيقي للإلحاد. وأصلي إلى الله أن يبارك الكاتب الذي كرس نفسه للدفاع عن الحق، والمترجمة التي نجحت في توصيل فكر الكاتب بدقة وسلاسة، والقارئ الذي هو الغرض النهائي للكتاب لكي ما يكون بركة للآخرين.

د. ماهر صموئيل

القاهرة في ١١ كانون الثاني / يناير ٢٠١٥

شكر

لقد حظيت بمساعدة الكثيرين في إعداد مادة هذا الكتاب للنشر. لذلك، أود أن أتوجه بالشكر لكل من الدكتور "داڤيد لالكا" David Lalka، والدكتور "نورمان جايسلر" Norman Geisler، والدكتور "رامش ريتشارد" Ramesh Richard على ما قدموه من تحليلات نقدية وآراء بناءة.

وفي هذه الطبعة المنقحة، أود أن أتقدم بالشكر العميق لمساعدتي في البحث "دانيل ديورانت" Danielle DuRant التي راجعت كل صفحة بمنتهى الدقة لتجعل مادة الكتاب أكثر اكتمالاً، وقد أضافت كذلك أسئلة دراسية في نهاية كل فصل. وأنا مدين بالشكر أيضًا لمساعدتي التنفيذية "نانسي بڤرز" Nancy Bevers.

ولكن ليس مَن ضحى من أجل هذا العمل وشارك فيه بنصيب وافر أكثر من زوجتي "مارجي" Margie التي لا يمكنني أن أنكر ما قامت به من جهد عظيم لمساعدتي.

أخيرًا وليس آخرًا، أبنائي أيضًا يصرون أنهم ممن دفعوا الثمن بتضحيتهم بالكثير من وقت اللعب مع أبيهم، وهم محقون. فخالص شكري لهم.

تمهيد

للطبعة المنقحة

خطرت لي فكرة المنهج الذي اتبعته في هذا الكتاب عقب كلمة ألقيتها على مجموعة من العلماء في "بل لابز" Bell Labs في "هولمدل" Holmdel بولاية نيو چيرسي. وكان موضوعي بعنوان "لماذا أنا لستُ ملحدًا؟" ردًا على مقالة "برتراند رَسِل" "لماذا أنا لستُ مسيحيًا؟" *Why I Am Not a Christian*. وأكثر ما لفت نظري في هذا الحدث هو طبيعة الأسئلة التي أثيرت بعد المحاضرة. وذلك، لأنها لم تعكس كم الخبرة الفنية أو العلمية التي تملأ رؤوس الحاضرين في هذه القاعة، بل كانت تُعبر عن تساؤلات قلبية عميقة لرجال ونساء يبحثون عن معنى للحياة.

وقد واجهتُ هذه الأسئلة مرارًا وتكرارًا في مختلف الأوساط. فبعد سقوط القناع الفكري لا يتصدر المشهد سوى هذه الحقيقة التي يدركها المرء في أعماقه، ألا وهي ما يعانيه من صراعات داخلية في حياته.

مقدمة

روى المرشَّح الرئاسي والحاكم السابق "ألفريد إي. سميث" Alfred E. Smith واقعة عندما كان عضوًا في جماعة صيد في نيو إنجلاند. وكانت شدة تكريسه تدفعه مع قليلين من أعضاء الجماعة للنهوض من السرير في وقت مبكر من صباح الأحد لحضور الاجتماع في الكنيسة. وبينما كانوا يسيرون على أطراف أصابعهم حتى لا يوقظوا زملاءهم الغارقين في النوم، سمع أحدهم وهو يسير خلف "سميث" واحدًا من زملائهم يتمتم وهو بين اليقظة والنوم قائلاً: "مصيبة لو كان هؤلاء على صواب".

يمر الكثيرون أثناء مسيرتهم الروحية بمرحلة يفحصون فيها معتقداتهم ليتأكدوا من مدى صحتها. إلا أن واقع الحياة يؤكد بكل قوة صحة الإيمان بالله وجدواه. وحتى الملحدين يعترفون في كتاباتهم أنهم لا يستبعدون الإيمان بالله باعتباره احتمالاً واردًا وممكنًا. وتصبح هذه المسألة عند البعض همًا لا يفارقهم. في حين أن البعض الآخر يصرون على الاحتماء بحُججهم الإلحادية المتنوعة كدروع واقية مفضلين الاحتفاظ بشعورهم بالأمان على أن يعيدوا النظر في هذه الحجج. ومع ذلك تظل حوافي الواقع البارزة الحادة تخدش دروعهم الإلحادية فتصيب فلسفاتهم بحالة من الوهن الشديد. فالحقائق الوجودية الثابتة في الحياة التي يستحيل إنكارها يندر أن تجد لها إجابات في عالم وُجد بالصدفة كما يزعم الإلحاد. ولمن يرغبون رغبة صادقة أن يبحثوا في احتمال وجود إله أقدِّم هذا الكتاب.

قيل إن الحجة غير مجدية مع مَن لا يعرف الحقائق، وإن عرف المرء الحقائق، فلا داعي للحجة. ولكن هذه المقولة سقطت في فخ التعميم المبالَغ كغيرها من الأقوال. ومع ذلك، فهي تشير إلى حقيقة جوهرية، ألا وهي أنه لا غنى عن الحقائق لإثبات صحة الإيمان. وهنا يبدأ حل المشكلة.

"برتراند رَسِل" الذي لم يكن محبًا للدين وتميز بجرأته في هذه المسائل، دافع بشدة عن النظرة العلمية للحياة مقدمًا الحجج على ذلك، وقدم وصفًا للأسلوب

العلمي. وقد قال إن الخطوة الأولى تتكون من ملاحظة الحقائق المهمة. ولكننا هنا أمام ورطة حقيقية، مهمة لأي شيء؟ فهناك عدد لا نهائي من الحقائق التي تتطلب تفسيرًا. فكيف نحدد ما هو مهم منها؟ لقد أدرك "ألفرد إي. سميث" جيدًا أن هناك ما هو أهم بكثير من متعة النوم فترة أطول صباح الأحد. ولكن سؤال: "ماذا لو كان هؤلاء على صواب؟" يتعلق ببِنْيَة الحياةِ كلِها.

ولذلك، فانتقاء المهم من الحقائق ليس بالعملية السهلة. وتوصيل الإيمان المسيحي أصبح مسألة في غاية التعقيد هذه الأيام. علاوة على أن الكثيِر مما كان يُعتبر معتقدات ثابتة في الماضي لم يعد الناس يؤمنون به اليوم. ولم يحظ التشكك بهذه الهالة المجيدة المضيئة بقدر ما يحظى بها في عصرنا الحاضر، حتى إن "عدم المعرفة" بات يتمتع برونق خاص. وغياب القناعات أصبح يحتل مكانة رفيعة، وانفتاح العقل أصبح مرادفًا للرقي الفكري.

وقد نسي دعاة هذا الفكر ما أشار إليه الكاتب الإنجليزي الراحل "جيلبرت كيث تشسترتون" G. K. Chesterton بأن العقل المفتوح له غرض كالفم المفتوح. وغرضه أن يغلَق على شيء صلب. وإلا أصبح كبالوعة الصرف الصحي التي لا ترفض أي شيء.

ومما يُزيد العوائق أمام توصيل الإيمان المسيحي أيضًا ما يشهده العالم من تقدم يسير بسرعة مذهلة في كافة مجالات المعرفة. وهو ما يخلق انطباعًا بأن المسيحي، إن أراد أن يتصدى للقضايا الروحية، عليه أن يكون حجة في كل الموضوعات الأخرى، وإن فشل في ذلك يوصم بأنه "هروبي" أو "غير واقعي". وهكذا نجد كلاً من العلوم والفلسفة وعلم النفس والتاريخ، وكل المجالات تقريبًا تؤثر على الدين. ومن وجهة معينة يجب ألا نستغرب هذا الأمر لأن الحق الروحي يتعامل مع جوهر الحياة. والمؤمن بوجود الله يرى أن كل الحق هو حق الله، والحق لا يمكن أن يتناقض مع نفسه.

وهكذا نرى أن انتشار النزعة إلى رفض القناعات، مع الإصرار الشديد على أهمية التمكن من كافة الموضوعات ذات الصلة يجعل أي محاولة للكتابة عن الإلحاد تبدو ضعيفة. ولذا، فقد استمعت لتحذير أحد أساتذتي عندما قال إن الكثير من الكتب



لن تُكتب أبدًا لأن الكاتب أراد لها أن تكون الكلمة الأخيرة في الموضوع. وبناء عليه وانطلاقًا من إدراكي الكامل أن هذا الكتاب ليس الكلمة الأولى ولا الأخيرة في الموضوع، فإن أملي بكل صدق أن يدرك القارئ أهمية كتاب كهذا عن وجود الله ويبحث عن الإجابة التي تشبع العقل والروح. فليس هناك ما هو أثمن من الحق. ولذلك قال يسوع: "وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ". وأمنيتي أن يجد القارئ هذه الحرية عبر هذه الصفحات.

غالبًا ما يميل الأشخاص الذين يفكرون بعمق لافتراض أن كل الأسئلة تنطوي على حجج ومهارات أكاديمية على مستوى عالٍ من من التجريد. ولكن بالنظر إلى الأسئلة الأكثر تداولاً، نكتشف أن هذا الافتراض غير صحيح. وإن كنا نحصل على الإجابات في معامل العلوم، فنحن نحصل عليها أيضًا في حضانات الأطفال. وهذا يجعل المهمة أسهل، ولكنها في الوقت نفسه تمثل تحديًا لأن بعض الأسئلة تشكل عوائق فكرية كبرى.

لقد حاولت ألا أعرض القوة المزعومة التي يتوهم البعض أنها تميز الحجج الإلحادية. وكان غرضي من ذلك تنقية الأجواء مما يحجب الرؤية حتى نتمكن من إلقاء نظرة مباشرة على المنظور المسيحي المضاد للنظرة الإلحادية. ومَن يحبون أن يقرأوا ما يتلامس مع احتياجهم المحسوس وليس الاحتياج الحقيقي قد يرون أن بعض الحجج أقوى مما يريدون. ولكني أتمنى أن يواصلوا قراءة الحجة حتى تتبلور الفكرة كاملة عن طريق الشرح الذي أقدمه.

وغيرهم ممن يحبون الحوار قد يتمنون أن تكون الحجج أقوى. ولكني أتمنى ألا يقعوا في فخ العقلانية وينسوا روعة البساطة وقوة تأثيرها. فلا نحن مجرد عقول محلقة ولسنا مجرد قلوب خافقة.

ولمَّا ارتأيت أن موضوعي لا يكتمل إلا بجزء معين، فقد أضفت ملحقين مهمين. أولهما بعنوان "إصبع الحق وقبضة الواقع" ويعرض كيفية دخول الأفكار الفلسفية في حياتنا خارج جدران الفصول الدراسية. والثاني بعنوان "تأسيس فلسفة حياتية"، وهو يقدم الأساس المفاهيمي الذي يقوم عليه صرح الحق. وكان يجب أن يوضع الملحقان في موضع متقدم من الكتاب لأنهما يشرحان المسار الذي اتخذتُه في

تناول مختلف المفاهيم وصولاً إلى النتائج. إلا أن هذه المادة قد تُشتت الاسترسال الفكري عند الكثيرين من القراء، ولكني أرجو ألا يهمل القارئ الاطلاع على هذين الملحقين. وقد أشرت إليهما في المواضع ذات الصلة من النص حتى يرجع إليهما القارئ لمزيد من الاستفادة. فإن أردت يمكنك الرجوع إليهما كلما وردت الإشارة لهما، أو يمكنك الاستمرار في قراءة النص ثم مطالعة الملحقين بعد الانتهاء من الكتاب. وأيًا كان اختيارك، فمادة الملحقين تمثل جزءًا أصيلاً من إجاباتي على المتشككين.

لذا، أدعوك أيها القارئ الكريم أن تشترك معي في رحلة البحث عن الحق بعقلك وبقلبك. وسواء كنا فقراء أو أغنياء دائمًا ما نبتهج بهجة عارمة عندما نعثر فجأة على مبلغ منسي في الخزانة. وآمل أن يحتوي هذا الكتاب على بعض الذهب المخفى الذي يقودك اكتشافك له إلى أعظم كنز على الإطلاق، أي الله نفسه.

الجزء الأول

الإنسان

مقياس كل شيء

التقيت مسافرًا من أرض قديمة قال: "ساقان طويلتان من الحجر تقفان بلا جذع في الصحراء ... بالقرب منهما وجه مهشم يغوص حتى نصفه في الرمال ، ويقول تقطيب جبينه ، وانكماش شفتيه ، ونظرة عينيه المتعالية الباردة الآمرة إن النحات أمعن في قراءة تلك المشاعر الملتهبة ، فأبقاها حية حتى الآن مطبوعة على هذه الجمادات المجردة من الحياة ، فكان هو اليد التي صاغتها والقلب الذي غذاها ، وعلى قاعدة التمثال تظهر هذه الكلمات: اسمي "أوزيماندياس" ، ملك الملوك ، انظروا إلى أعمالي أيها الجبابرة ، واجزعوا! فلم يبقَ مني سواها. وحول اضمحلال ذلك الخراب الشاسع القاحل اللانهائي تمتد الرمال وحيدة مستوية".

"برسي بيش شلي" Percy Bysshe Shelley

قصيدة "أوزيماندياس" "Ozymandias"



١
حانوتية المطلق

إن أعظم قضايا عصرنا ليست الشيوعية مقابل الفردية، ولا أوروبا مقابل أمريكا، ولا حتى الشرق مقابل الغرب. ولكن أعظم قضية تتمحور حول سؤال: هل يستطيع الإنسان أن يحيا دون الله؟

"ويل ديورانت "Will Durant

في ٧ أغسطس ١٩٦١ أصبح الرائد "جرمان تيتوف Gherman Titov" البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا ثاني رائد فضاء سوفيتي يدور حول الأرض ويعود بسلام، محققًا إنجازًا تاريخيًا للجنس البشري. وفي الكلمة التي ألقاها في "المعرض العالمي" مزهوًا بهذه اللحظة المجيدة، روى هذه الخبرة التي منح امتياز سماعها لمن حضروا كلمته. فقد أعلن، وسط شعوره بنشوة الانتصار، أنه لم يرَ الله في رحلته عبر الفضاء.[١] وفور إعلان هذه الحجة السعيدة البهيجة، انبثق وسط الصمت تعليق من أحد الحاضرين قائلاً: "لو خرج من حُلَّته الفضائية، لرآه!" ويبدو أن "تيتوف" لم يرغب في الاكتفاء بإرجاع الفضل في هذا الإنجاز للعلم وحده، ولكنه آثر أن يوجه في الوقت نفسه إهانة للاهوت. وهكذا، تحولت هذه القفزة العلمية الكبرى، في نظره، إلى قفزة فلسفية أكبر بكثير.

وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٦٨ كان ثلاثة رواد فضاء أمريكيين أول من يدور حول الجانب "المظلم" في القمر بعيدًا عن الأرض. وبعد أن أطلقوا صواريخهم دخلوا المركبة الفضائية "أبولو ٨ Apollo 8" ورأوا كوكبنا بشكل لم تشهده عيون بشرية من قبل. فقد رأوا الأرض تعلو فوق أفق القمر متدثرة بمزيج جميل من الأبيض

والأزرق، يحدها ضوء الشمس البراق على خلفية من الفضاء الأسود. وتحت تأثير هذه الخبرة التي تثير مشاعر الانبهار والخشوع فتحوا أولى صفحات سفر التكوين وقرأوا على مسامع العالم "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ...".

خبرتان متشابهتان من الانبهار والدهشة والفرح الغامر، واستنتاجان متناقضان تمامًا عن طبيعة العالم. ولكن هذا الاختلاف الشاسع مفهوم، لأن هاتين الواقعتين حملتا للفضاء أكثر الأسئلة التي تثير الجدل على وجه الأرض:

"الإقرار بوجود الله أو إنكاره هو المسألة الجوهرية التي يترتب عليها أكبر عدد من العواقب المتعلقة بحياة الإنسان وبفعله".

هل الله موجود؟ هل خلق الله الإنسان، أم هل خلق الإنسان الله؟ هل الله لازم للوصول إلى أي تفسير كوني، أم أنه مجرد احتياج نفسي للبشر؟ الإيمان بالله أم الإلحاد؟

نشرت "موسوعة بريتانيكا" Encyclopedia Britannica منذ عدة سنوات سلسلة من خمسة وخمسين جزءًا بعنوان "كتب الغرب العظيمة" The Great Books of the Western World. وكان الفيلسوف وأستاذ القانون الشهير "مورتيمر أدلر" Mortimer Adler أحد محرري هذه السلسلة التي جمعت مفكري العالم الغربي البارزين وما كتبوه عن أهم الأفكار التي خضعت للدراسة والاستقصاء عبر القرون، ومنها أفكار في القانون والعِلم والفلسفة والتاريخ واللاهوت والحب شَكَّلَت عقول الناس ومصائرهم. وقد جُمِعَت هذه المقالات لاكتشاف ما بينها من تشابهات واختلافات. وما يلفت نظر القارئ، إن كان قوي الملاحظة، أن أطول مقالة تتحدث عن الله. وعندما سأل أحد المعلقين على الموسوعة مستر "أدلر" عما جعل هذا الموضوع يحظى بهذه التغطية الكبرى، جاءت إجابته قاطعة. فقد قال: "الإقرار بوجود الله أو إنكاره هو المسألة الجوهرية التي يترتب عليها أكبر عدد من العواقب المتعلقة بحياة الإنسان وبفعله".[٢]

وحتى أعنف الأشخاص تجاه المسائل الدينية لا يعارضون ما خلُص إليه

"أدلر". فما من شيء على الإطلاق له نتائج مباشرة على ما يتخذه الفرد من قرارات أخلاقية أو ما يرمي إليه المجتمع من أغراض أكثر من الإيمان بالله أو عدم الإيمان به. ومصائر الأفراد والأمم وثيقة الصلة بهذه القضية. وليس من قبيل الصدفة أن القضايا الجوهرية في يومنا هذا التي تمس أعمق مشاعرنا وقناعاتنا، سواء أكانت قضية الميل الجنسي سواء أكان نحو الجنس الآخر أو الجنس نفسه، أو غير ذلك، والممارسة الجنسية، أو حياة الجنين، تتوقف في النهاية على وجود الله أو عدم وجوده، وإن كان موجودًا، هل تكلَّم أم لا؟

ولذلك، ليس غريبًا أن يختم "ستيـڤن هوكينج" Stephen Hawking كتابه "تاريخ مختصر للزمن" A Brief History of Time مؤكدًا أن هذه المسألة تمثل أهم عنصر في المعادلة البشرية. إن "هوكينج" أستاذ الرياضيات بدرجة "لوكاسيان" Lucasian professor [من أرقى المناصب الأكاديمية في العالم] وهي الدرجة التي احتلها "نيوتن" قبله، عرض نظرته للكون عرضًا عبقريًا، وأنهى عرضه بتصريح متواضع: السؤال الوحيد الذي يتطلب إجابة هو السؤال المتعلق بالله. فالعلم، بكل ما يفخر به من إنجازات براقة، لابد أن يقنع بإجابة سؤال "ماذا" الذي يقتصرعلى الملاحظات التي تقع تحت وعي البشر. أما سؤال "لماذا" فلا يجيب عنه سوى الله.[٣]

ومما يدلل على ما تتسم به قضية وجود الله من عمق نظري واتساع عملي أن عمالقة الفكر على مر العصور وقفوا على طرفي نقيض من القضية، متمسكين بكل استماتة بموقفهم ورافضين بكل إصرار وغيرة للموقف المضاد. فبعض العقول اللامعة مثل "برتراند رَسِل" ومثل "داڤيد هيوم" David Hume وَجَّهت هجومًا عنيفًا لمصداقية الإيمان بالله من الناحية الفكرية. في حين أن غيرهما من أعظم المفكرين في مجال الفلسفة ومجال العلم مثل "چوناثان إدواردز" Jonathan Edwards ومثل "بليز پاسكال" Blaise Pascal اعتنقوا دون خجل فلسفة تقوم على الإيمان بالله. ومازال الجدل يدور بين العلماء والفلاسفة حول هذه القضية حتى اليوم. ولذلك، منتهى الحماقة أن نقول، كما يفعل البعض، إن العقول الواعية الراقية رفضت فكرة الله، وإن العقول الساذجة السابقة لعصر العلم التي لا تتساءل والتي عفا عليها الزمن هي التي خضعت لهذه العقيدة خوفًا أو جهلاً. وما يعلنه "برتراند رَسِل"

في نقده المفاهيمي للمسيحية من أن كل الدين يولد من رحم الخوف، يُعَد نقدًا واهيًا غير مدروس. فإن كان القول بأن كل اللادين يولد من رحم اللاخوف هو ادعاء غير صحيح، فإن زعم "رَسِل" غير صحيح أيضًا. ومثل هذه المبالغات تبدأ من نقطة انطلاق ضعيفة وتنتهي إلى نظريات نفسية خاطئة. وإننا كثيرًا ما نلتقي في حياتنا بأناس مخلصين جدًا لإيمانهم وفي الوقت نفسه يتمتعون بثقة تامة في أنفسهم. وكثيرًا ما نلتقي بأشخاص فاقدين لكل شعور بالأمان ويعانون من مخاوف متنوعة، وهم مخلصون جدًا لإلحادهم.

ومما زاد من تعقيد الجدل الدائر حول وجود الله هو وقوع الطرفين في أخطاء استقرائية واستنباطية. فأي طالب يدرس التاريخ أو العلوم يعرف ما قامت به محكمة التفتيش من تصرف أحمق سنة ١٦٣٣ في محاولة مؤسفة لاستعراض القوة عندما أجبرت الرياضي والفيزيائي وعالِم الفلك جاليليو على التراجع عن تأييده لنظرية كوبرنيكوس في النظام الشمسي. إلا أن الكثيرين من هؤلاء الطلاب لا يعرفون أن هذه الأوتوقراطية الرقابية التي اعتبرتها الكنيسة حقًا لها لم تَقم على أي أساس كتابي. ولكنها قامت على افتراض خاطئ نشأ في القرن الثاني من تعاليم عالِم الفلك والرياضيات الإغريقي بطليموس الذي قال بأن الأرض تقع في مركز الكون، وأن الشمس والقمر وسائر الكواكب تدور حولها.[٤] وكانت السلطة الكنسية آنذاك تؤيد نظريات علم الكون الأرسطية البطلمية هذه بما توصلت إليه من نتائج خاطئة باعتبارها متفِقة مع النظرة الكتابية. إلا أن الكتاب في الواقع لم يقل أي شيء من هذا القبيل. ولكن النقاد لم يسمحوا للكنيسة أبدًا بنسيان هذا الخطأ الأحمق المرتبط بحادثة جاليليو وعكفوا على اتهامها بافتقاد المصداقية الأكاديمية.

على الجانب الآخر من السور لم يسلم مؤيدو الفلسفة المادية التي لا تؤمن بوجود الله من التوصل لنتائج استنباطية معيبة. وكما سقطت الكنيسة في حادثة جاليليو، سقط الماديون في "خدعة پيلتداون" Piltdown hoax. وكم من رسائل دكتوراه كُتبَت عن "إنسان پيلتداون" Piltdown Man تأييدًا لنظرية النشوء والارتقاء. وتتلخص هذه الخدعة في اكتشاف حفريات لأجزاء من جمجمة عُثِر عليها في "ساسكس" Sussex بانجلترا عام ١٩١٣، واعتبر العلماء أنها تدلل على وجود نوع معين من القردة العليا. وشاع الاعتقاد آنذاك أنها تمثل أقدم بقايا بشرية

للإنسان الأوروبي. ولكن بعد أربعين سنة ثَبَتَ أنها مجرد خدعة، مما تسبب في إحراجٍ كبير للمجتمع العلمي.

ولا عجب أن الفلاسفة والعلماء واللاهوتيين وغيرهم أكثروا من الكتابة في موضوع وجود الله، حتى إن مكتباتنا تعج بالافتراضات والاستنتاجات لحد يبعث على الغثيان. فكيف يمكن لأي شخص أن يأمل في العثور على إجابات مقبولة على أسئلته المضنية حول هذا الموضوع؟

يمكن دراسة هذه القضية من مداخل مختلفة. فيمكننا أن ننظر إليها من الناحية العلمية، أو التاريخية، أو الفلسفية، أو الوجودية، أو العملية. ولكل طريق نقاط قوة تميزه. وكل من هذه الطرق يمكنه أن يسهم بمجلدات كاملة في الموضوع، سواء أكانت تمت بصلة له أم لا. ولكن للوفاء بأغراض هذا العرض المختصر، أقول إن التحدي الذي يقف أمام الإلحاد يتعلق في جوهره بصراع البشرية الوجودي، لأنه كما قال "ماكس وِبَر" Max Weber عالِم الاجتماع الألماني: "الإنسان يعتنق الدين عند نقطة المعنى". إلا أنني عندما أدرس المسألة انطلاقًا من نقطة المعنى هذه سأحاول في الوقت نفسه الطعن في الجوانب والمجالات الأخرى ذات الصلة. وسرعان ما ستطفو على السطح أسئلة الإلحاد التي لا تجد لها إجابات سواء من حيث فرضياتها أو استنتاجاتها. وقد كثرت المحاولات الأكاديمية للهروب من هذه الأسئلة، ولكنها تفرض نفسها على نحو مزعج في أكثر لحظات الحياة حساسية وأمام أعمق الحقائق التي لا يمكن الهروب منها. ومن الناحية الأخرى سأقدم الحجة على أن مزاعم الإيمان قوية ومعقولة بحيث يمكن للعقل أن يقبلها وللحياة أن تستوعبها. ومن المهم أن نلتزم بهذا المنظور متعدد الجوانب، لأنه إن كان الإنسان يقبل الدين لأنه يعطي الحياة معنى، فهو غالبًا ما يرفضه عندما يفكر فيه منطقيًا.

بداية الهجوم:

لم يُعدم الإلحاد يومًا مدافعًا يتحدث باسمه. وإن أردنا التأكد من ذلك، يكفي أن نرى تأثير ولو قلة من أشهر المدافعين عنه في القرون الأخيرة. وما أكثر الصدامات والحوادث التي وقعت منذ بدأت سفن العالم الأكاديمي تدخل بحار

الإلحاد الصرف على غير هدى. ولكن ما شكله عمل جاليليو من تهديد حقيقي لعقلية عامة الناس لم يكمن في إخضاع الكون المادي للدراسة العلمية، ولا في رفض النموذج البطلمي الذي يقول بمركزية الأرض. ولكن الخطورة هي ما أعقب اكتشاف جاليليو من رفض الكثيرين لمعقولية أشياء معينة كالصلاة، وتدخل الله في الكون الذي أصبحت له تفسيرات آلية بحتة تغنينا عن الإله باعتباره علة ما يحدث في الكون. وظلت تطبيقات هذه الفكرة في تصاعد مستمر، حتى وصلت إلى درجة الاعتقاد بأنه لو كان العالَم نفسه عبارة عن نموذج آلي ميكانيكي، فما المانع أن يكون الإنسان أيضًا كذلك؟ ثم أصبح مصطلح الحتمية determinism من المصطلحات المألوفة في معاجم الفلسفة وعلم النفس.[×] فتأثير اكتشاف جاليليو كان له نتائج عميقة.

إلا أن جاليليو لم يكن التحدي الوحيد الذي واجهته الكنيسة. فقد جاءت نظرية داروين التي سرَت كموجة صدمة بين أوصال العالَم المسيحي. وذلك لأن فكرة نشوء البشر من عالم الحيوان عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي وضعت الفأس على أصل شجرة الاعتقاد الديني. فبعد جاليليو تهاوت الأفكار الثانوية الطرفية التي آمنت بها الكنيسة كما يسقط التفاح من الشجرة. إلا أنه بعد داروين اقتُلع جذع شجرة الإيمان الضخم الذي كان يتشبث بشدة بجذر الله الخالق. الضربة الأولى جعلت سلطة الكنيسة موضع شك وارتياب، ولكنها لم تزحزح مكانة الله. إلا أنه في أعقاب النظرية الداروينية، أصبح الإيمان بالله نفسُه عرضة لهجوم شديد، وأصبح العقل الإلحادي أمرًا واقعًا "يدعمه العلم".

إن ما دفع كارل ماركس Karl Marx ليُهدي كتابه "رأس المال" Das Kapital لتشارلز داروين Charles Darwin لم يكن وهمًا. وقد طلب من داروين أن يقبل الإهداء في الترجمة الإنجليزية. ولكن داروين رفض عرضه.[٥] هذا بالرغم مما تكشفه المراسلات بين ماركس وصديقه "إنجلس" Engels [أبو النظرية الماركسية] من ابتهاج ماركس بأطروحة داروين. فقد رأى ماركس نفسه أن الدين أفيون الشعوب، وتأوه المقهورين، والشمس الوهمية الوحيدة التي تدور حول الإنسان،

× يُعرِّف قاموس Webster's Student Dictionary "الحتمية" بأنها موقف فلسفي يقول بأن قرارات الإنسان وأفعاله لا تتحدد بناء على اختياره الحر بل بفعل مسببات مسبقة تؤثر على شخصيته. (المترجمة)

طالما أن الإنسان لا يدور حول نفسه. أما سبب رغبته في إهداء الكتاب لداروين هو أنه رأى أن الفرضية الداروينية توفر البنية التحتية العلمية التي تدعم بنيته الأساسية الاقتصادية التي مكنته من بناء صرحه المثالي للمدينة الفاضلة التي من صنع الإنسان.× إن ماركس يرى أن الدين أفسح المجال للطبقية التي ما كان يمكن أن توجد لولا الدين، وهي تعيق مسيرة التاريخ نحو مجتمع مثالي خالٍ من التقسيم الطبقي.

وقد وفرت هذه العقيدة الماركسية بدورها القوة التأسيسية التي كان يحتاج إليها ستالين Stalin وقدمت دعمًا أيديولوجيًا لكراهيته الشديدة للمتدينين التي أدت في النهاية إلى قضائه على ملايين البشر. وأصبح الإلحاد آنذاك حيًا ونشطًا في الساحة السياسية، وتخلصت السياسة من الدين بكل ثقة لأنه إن كان العلم والنظرية الاقتصادية قد نجحا في تفريقهما، فلا يجرؤ شخص عاقل على جمعهما معًا.

إن الضربة الثلاثية لتأثير جاليليو (فقدان الثقة في فكرة تدخل الله في العالم)، والاستنتاجات الداروينية (ضياع فكرة الله الخالق)، والافتراضات الماركسية (نظرية اقتصادية جديدة تقوم على الإلحاد) لم تكن الهجمات الوحيدة التي تحملتها الكنيسة. فتحليل "فرويد" Freud للدين أصاب مصداقية الكنيسة بجرح آخر عندما أخرج الجانب الجنسي في الإنسان من نطاق غرفة الزوجية المقدس مختزلاً الزواج إلى مجرد بديل عن الاستقلال الجنسي (تمامًا كما أن العمل يمثل بديلاً عن الاستقلال الاقتصادي). فالدين، من وجهة نظر "فرويد" عبارة عن نسخة عامة من حالات الوسواس القهري الفردية، ومن أمثلته إصرار الشخص على السير على جانب معين من الطريق، أو ممارسة سلوك معين بشكل تكراري قهري.×× والطقس الديني ليس إلا نوعًا من هذا السلوك. وبذلك جرَّدَ "فرويد" الأخلاق والمعتقدات والممارسات من قدسيتها وأطاح بالكنيسة باعتبارها ضدًا للحضارة. وأطلق على آمال الكنيسة ومعتقداتها "مستقبل الوهم" "the future of an illusion" واتخذه عنوانًا لأحد كتبه.

× المدينة الفاضلة utopia: جزيرة خيالية تمثل الحياة السياسية والاجتماعية في صورتها المثالية في كتاب السير "توماس مور" المنشور سنة ١٥١٦ وقد استخدم بعض الفلاسفة المصطلح بعد ذلك وأخذه عنهم ماركس للإشارة إلى مجتمع اشتراكي مثالي تسوده العدالة الاجتماعية وتختفي فيه الطبقية. (المترجمة)

×× الوسواس القهري: حالة مرضية يقوم فيها الشخص بتكرار سلوكيات معينة. (المترجمة)

وصول الحانوتي:

مع هذه الضربات المسيئة التي وُجِهَّت للعقيدة الدينية من اتجاهات كثيرة أخذ أحدهم على عاتقه أن ينبذ تمامًا هذا المخلوق الذي يطلق عليه الإيمان بالله، ويطرد هذا التأثير من العالم كلية. وكان الرجل الذي فعل ذلك دون هوادة هو الفيلسوف الألماني "فردريك نيتشه" Friedrich Nietzsche. فقد سدد ضربة قاسية للفكر الإيماني حتى إن مصطلح "تقليدي قويم" orthodox اتخذ مفهومًا جديدًا وأصبح يعني "مخطئ".

لقد احتقر "نيتشه" الدين بوجه عام والمسيحية بوجه خاص وسط حالة من الغضب الجامح. حتى إن بعض تعبيراته التي أظهر فيها شجبه للمسيحية كانت مهينة إلى أقصى ما يصل إليه الخيال. فقد قال في كتابه "ضد المسيح" Antichrist:

> إني أطلق على المسيحية اللعنة العظمى، والانحراف الأعظم والأعمق، وفطرة الانتقام الكبرى التي لا تتورع عن استخدام أشد الوسائل خبثًا وخيانةً ودهاءً وحقارةً.[٦]

كان "نيتشه" أكثر المتحدثين باسم الإلحاد في العصر الحديث سعةً في الخيال وقدرةً على التعبير. لقد كان يمثل حدًا فاصلاً بين القرنين التاسع عشر والعشرين. ونظرًا لأنه عاش فيما بين عام ١٨٤٤ وعام ١٩٠٠ فقد سيطر على عقل القرن العشرين فلسفيًا وفكريًا، وهو ما لا يختلف عليه الكثيرون.

لقد أشار المؤرخ "پول چونسون" Paul Johnson في كتاب "العصور الحديثة" Modern Times إلى كلٍ من هتلر وستالين وموسوليني باعتبارهم شياطين القرن العشرين الثلاثة. ولكن المثير للانتباه أن ثلاثتهم تأثروا بتعليم "نيتشه" الذي كان لفلسفته أعمق الأثر على هتلر حتى إنها شكلت الإطار المفاهيمي لهجومه العنيف للقضاء على الضعفاء والأدنى مكانة في هذا العالم الذي روج له باللعب على مشاعر الناس وأحكامهم المسبقة. وبذلك يؤسس لتفوق السوبرمان (الإنسان الفائق) للقيام بدور مهيمن لا يعيقه شيء.[٧] وقد قدم هتلر شخصيًا نسخة من أعمال "نيتشه" لـ "بنيتو موسوليني". فكم كان تأثير "نيتشه" عظيمًا جدًا في لعبة الشطرنج

الجيوسياسية× في العالم بنوعية جديدة من الحكام الذين يمثلون "الملوك"، والبشر الذين يمثلون "البيادق". وكان له كذلك أعظم الأثر على بعض الكُتاب مثل "برنارد شو" Bernard Shaw، "داڤيدهربرت لورانس" D. H. Lawrence، "ويليام بَتلر يتس" W. B. Yeats. ويقال إنه بعد أن قرأ "يتس" أعمال "نيتشه" لم تعد كتاباته كما كانت. وقد شن تأثير "نيتشه" غارات عنيفة على ما وضعه "سيجموند فرويد" Sigmund Freud وكذلك "كارل يونج" Carl Jung من نظريات نفسية مقنعة. وكانت فلسفته طبعًا المصدر الذي زود حركة "موت الإله" "God is dead" بالكثير من أدوات التعبير وكان المحرك لها بين اللاهوتيين الليبراليين وقد هزت أساسات الكنيسة في منتصف القرن العشرين.

ولا شك أن "نيتشه" الذي كان أبوه وجدَّاه قساوسة في الكنيسة اللوثرية هو المسئول الرئيسي عن إعلان "موت الإله في القرن العشرين". وقد تميز بقدر كبير من الحماسة والقدرة على الاستبطان وحظي بقبول واسع من الجميع في أوروبا ما عدا فلاسفة الإنجليز الذين رأوا أن عدم دقته الفلسفية ومنهجَه الأدبي لا يؤهلانه للانضمام لمجتمع الفلاسفة، فقبلوه كارهين. إلا أن أبواب الفلسفة الإنجليزية انفتحت قليلاً في الآونة الأخيرة للاعتراف بتأثيره الاستثنائي. فالحقيقة أن "نيتشه" كَسَرَ في كتاباته القالب الأسلوبي المعتاد، وكان يصور أعمق القضايا المتعلقة بالعواطف البشرية تصويرًا صريحًا بحيث يستحيل على القارئ الهروب منه. وأسلوبه في الكتابة الذي كان وسطًا بين المجاز والجملة التقريرية الحرفية يُعَد ظاهرة استثنائية. فكل ما قال كان يتمتع بجاذبية الخيال وثرائه ممتزجًا بالواقع. وكان ينقل الصورة من ذهنه لذهن القارئ بقوة طاغية. وقد قال عنه "فرويد" عدة مرات إنه يعرف نفسه أكثر من أي إنسان. إلا أن ذلك التشخيص مُبكٍ مضحك لأن "نيتشه" قضى آخر إحدى عشرة سنة من عمره مجنونًا.

ولا شك أن فكرة "فرويد" قابلة للنقاش، ولكن ما لا يقبل النقاش هو أن "نيتشه" كان أنجح الكُتاب في تصوير الإطار المنطقي للإلحاد بمنتهى الصدق المؤلم. لقد أخرج الفلسفة من ميلها للهروب من وضع استنتاجاتها موضع التطبيق الفعلي بالمبالغة في التجريد، وأجبر الفيلسوف على دفع ثمن تذكرة كاملة في قطار الإلحاد

× geopolitical التفاعل بين الجغرافيا والمناخ وغيرهما من ناحية والسياسة من ناحية أخرى. (المترجمة)

حتى يرى أين سيصل به القطار. لقد أراد "نيتشه" أن يواجه الحياة بكل جرأة دون وجودِ إله يحجب عنه رؤيتها، ولكن الصورة التي رآها استكَدَّت عقله. فهو لم يرَ عقلاً جبارًا وراء تكوين هذا العالم، ولم يسمع صوتًا متجاوزًا حدود العالم المادي يعطي المشورة لهذا العالم، ولم يلمح بصيصًا من النور في نهاية النفق، وشعر بوِحدة الوجود في أقصى أشكالها وحشةً. فكما لم يرَ "چان پول سارتر" Jean Paul Sartre مَخرجًا من هذا الوجود العشوائي، لم يرَ "نيتشه" مدخلاً من الخارج إلى هذه الحياة الخاوية مُحكمة الإغلاق. إن الإنسان متروك ليجد طريقه بنفسه وينير ما يحلو له من مصابيح.

لم يرَ عقلاً جبارًا وراء تكوين هذا العالم، ولم يسمع صوتًا متجاوزًا حدود العالم المادي يعطي المشورة لهذا العالم، ولم يلمح بصيصًا من النور في نهاية النفق، وشعر بوِحدة الوجود في أقصى أشكالها وحشةً.

كان "نيتشه"، من وجهةٍ ما، أول فيلسوف غربي يواجه فقدان الإنسان للإيمان بالدين مواجهة كاملة. لقد سطَّر بقلمه ما شعر به الكثيرون ولكنهم لم يرغبوا في الاعتراف به باعتباره النهاية المنطقية لعقيدتهم. ولكن "نيتشه" بإعلانه موت الله يدخل في قلب العاصفة، وخطا أيضًا خطوة أبعد واعترف أن غيوم العاصفة أكثر تدميرًا وعنفًا مما يتخيل حانوتية الله. إن الظلمة المكبِّلة التي أسدلت أستارها لم تكن ظاهرة خارجية أقحمت نفسها ولكنها عمى داخلي امتد للخارج. لم يكن عصا الفيلسوف هو ما أطفأ النور، ولكنه تيهان العقل الذي لا يعرف أين يجد النور، والنتيجة مرعبة.

صوَّر "نيتشه" هذه الحالة المريعة في مثل أطلق عليه "المجنون" The Madman.

> ألم تسمع بهذا المجنون الذي أضاء فانوسًا في وضح النهار وانطلق إلى السوق وأخذ يصرخ صراخًا متواصلاً: "إني أبحث عن الله"؟ ولمَّا كان الكثيرون ممن لا يؤمنون بالله واقفين هناك، فقد أثار لديهم قدرًا غير قليل من الضحك. وقال أحدهم: "لماذا، هل تاه ؟" وقال آخر: "هل ضل



طريقه كالأطفال؟" "أم أنه مختبئ؟ هل يخاف منا؟ هل ذهب في رحلة؟ أم هاجر؟" وهكذا أخذوا يصرخون ويضحكون. فوقف المجنون في الوسط وأخذ يطعنهم بنظراته.

وصاح قائلاً: "أين الله؟" "أنا سأخبركم. لقد قتلناه، أنا وأنتم قتلناه. كلنا قتلته. ولكن كيف فعلنا هذا؟ كيف تمكنّا من أن نشرب البحر كله؟ من أعطانا الممسحة التي نمسح بها الأفقَ كله؟ ماذا فعلنا عندما حررنا هذه الأرض من شمسها؟ إلى أين تتجه الآن؟ وإلى أين نتجه نحن؟ بعيدًا عن كل الشموس؟ ألسنا في حركة مستمرة؟ للخلف، وللجانبين، وللأمام، وفي كل الاتجاهات؟ هل هناك اتجاه لأعلى أو لأسفل لم نسلكه؟ ألسنا نتحرك في عدم لا نهائي؟ ألسنا نشعر بزفرات الفضاء الخاوي؟ ألم يصبح أكثر برودة؟ ألا يسدل الليل أستاره، ثم يعقبه مزيد من الليل في حركة متوالية بلا توقف؟ هل يجب أن تضاء المصابيح في النهار؟ هل نسمع شيئًا سوى ضوضاء حافري القبور الذين يدفنون الله؟ هل نشم أي رائحة سوى رائحة تحلّل الله؟ إن الآلهة أيضًا تتحلل. الله ميت. ونحن مَن قتلناه. فكيف نعزي أنفسنا نحن ملوك القتلة؟ إن أقدس وأقوى ما امتلكه العالم حتى الآن نزف حتى الموت تحت خناجرنا. من سيمسح عنا هذه الدماء؟ أي مياه نغسل بها أنفسنا؟ أي طقوس تكفيرية، وأي أفعال مقدسة يمكننا أن نخترعها؟ أليس الفعل أكبر منا بكثير؟ ألا يجب أن نصبح نحن أنفسنا آلهة حتى نكون جديرين به؟ فليس هناك فعل أعظم من هذا، وكل من سيولد بعدنا، بعد القيام بهذا الفعل سيشكل جزءًا من تاريخ أرقى من تاريخ البشرية كله حتى يومنا هذا".

وهنا صمت المجنون ونظر لمستمعيه ثانية، وصمتوا هم أيضًا وحدقوا فيه مذهولين. وأخيرًا ألقى مصباحه على الأرض، فانكسر وخرج. . . .

وقد قيل فيما بعد إنه في اليوم نفسه دخل المجنون عدة كنائس حيث رتّل قائلاً: "الراحة الأبدية لله". وقيل إنه عندما كانوا يُخرجونه من الكنيسة ويحاسبونه على فعلته كانت إجابته كل مرة: "ما فائدة هذه الكنائس الآن إن لم تكن مدافن ومقابر لله؟"[٨]

ولكن هذا الوصف المفعم بالمشاعر ليس خيالاً محضًا. لقد أمسك "نيتشه" بخناق الواقع واحتمل كآبة الكشف على المتوفى للتحقق من سبب الوفاة في عالم فقَدَ خالقه وراعيه. لقد انكشفت "أسطورة" الله ولن يجد الإنسان فيما بعد إلهًا يعينه في صراعات الحياة. والوهم الذي أحكم قبضته على البشرية حتى هذه اللحظة لابد أن يكفَّن بكفن الإله المدفون. وطبقًا للتشبيه الذي استخدمه "فرويد"، كان الله نوعًا من العزاء المريح للبشرية عندما كانت في العش، ولكنها بعد أن نَمَت، سلَّمته إخطارًا بالطرد. لقد كان الله مهدئ البشرية على مدى قرون طفولتها الطويلة، ولكن مرحلة الرشد أثبتت له أنه لم يكن إلا وهمًا.

لقد تلامس "نيتشه" بجرأة مع ما قد يترتب من عواقب على دفن الله. وحانوتية المطلق هؤلاء لم يجدوا صعوبة في نشر النعي في صفحة الوفيات، ولكن ما الفائدة من وجودهم الآن بعد أن أدوا مهمتهم؟

فهل أحسن معلنو الوفاة تقدير عواقب هذا الإعلان؟ إن القوة التدميرية لخطبة الجنازة تنقلب على أصحابها، وهي تشبه في ذلك المعضلة الفلسفية التي خلقها الكريتي الذي قال "كل الكريتيين كاذبون". فهل يمكنك أن تصدقه؟ إن الطعنة التي سددها الإنسان لقلب الله ارتدت عليه فصار هو نفسه ينزف.

وهذا الجرح الذي أصاب به الإنسان نفسه في فجر القرن العشرين ظل ينزف دون توقف بمرور سنوات القرن. فسنة ١٩٦٦ حمل غلاف مجلة "التايم" Time سؤالاً يقول: "هل مات الله؟" وسنة ١٩٧٧ كان عنوان قصة الغلاف يقول: "موت ماركس". وهو ما جعل أحد الجامعيين المتشائمين يقول: "الله مات، وماركس مات، وأنا أيضًا أشعر بالإعياء".

كانت هذه هي فكرة "نيتشه" على وجه التحديد: عواقب موت الله ستخترقُ كل جانب من جوانب الحياة، وهذه الفكرة في حد ذاتها تفوق الاحتمال، بل يمكن أن تكون فكرة انتحارية لو لم ينهض الإنسان ويمسك بزمام الأمور. والواقع أن "نيتشه" استطرد قائلاً إنه بما أن الله مات في القرن التاسع عشر سينشأ عن ذلك نتيجتان مباشرتان في القرن العشرين.

كانت النتيجة الأولى التي تنبأ بها أن القرن العشرين سيكون أكثر القرون دموية

في التاريخ، أما نبوته الثانية كانت أن حالة من الجنون العام ستتفشى في العالم. وقد تحققت النبوتان. فعدد القتلى بسبب الاختلافات الأيديولجية وعدد من صُرعوا في ساحات معارك المناورات الجيوسياسية في القرن العشرين يفوق عدد من قُتلوا في أي قرن من قرون التاريخ، بل يفوق إجمالي عدد القتلى في القرون التسعة عشر السابقة.

إلا أن ما يثير السخرية في تصريح "نيتشه" عن حالة الجنون العام أنه خطا أول خطوة نحو تحقيق النبوة وأصيب هو نفسه بالجنون، كما سبقت الإشارة، فأصبحت نبوة ذاتية التحقيق تتمتع بقوة تأثير رمزية. لقد توفي "نيتشه" سنة ١٩٠٠ معبرًا نوعًا ما عن ذات المعنى الذي عبَّر عنه "وردزورث" Wordsworth في قصيدة "العزم والاستقلال" "Resolution and Independence":

نحن الشعراء نبدأ حياتنا فرحين

ولكننا ننتهي تعساء مجانين

فمهما ارتفع صياح "نيتشه" وهو يبشر بعالم الإنسان الفائق الذي سيتمكن من العيش وسط ما تبقى من أطلال الأخلاق المسيحية والفلسفات الأخلاقية بل سيتجاوزها، فأيديولوجيته لم تقدم إجابة ولا حلاً لمأزق عالم بلا إله. لقد بذل كل جهد للوصول إلى ”معرفة نظيفة صحية“ مناديًا بضرورة تطهير الفكر بأداة ترشيح تُخلصه من أي قيمة خارجية تنبع من أي سلطة خارج أنفسنا. وغرض هذه الأداة أن تستبعد المعرفة "الخاطئة"، وتركز على المعرفة "الصحيحة"، وفقًا للتعريفات النيتشاوية. فقد فرض "نيتشه" نوعًا من الحظر على الحق كله، إذ قال إن "الحق خيال". وجرد الأخلاق المسيحية من شرعيتها. ومع ذلك لم يتمكن "نيتشه" أبدًا من الوصول إلى "نقاء" المعرفة الذي كان يرجوه. فهو لم يُخلف وراءه هذا الإرث، واليأس الذي حاول الهروب منه تَمكن منه وسيطر على حياته. فقد كتب في أحد خطاباته يقول: ”أشعر أني قلم، قلم جديد، استخدمَته قوة عليا على قصاصة من الورق“.[٩]

لقد بذل الفلاسفة المحدثون والمفكرون المسيحيون كل جهد لتحذير البشرية مما يصيب عالم بلا إله من ضعف وهشاشة. فالحِكم الأفلاطونية والتقليد النبوي في



اليهودية والمسيحية يزخر بما يؤكد الفارق الشاسع بين التناغم الذي تنعم به حياة مؤسسة على الحق والتفسخ الذي ينخر في حياة ترفض الحقائق الأبدية الباقية. لقد قال الفيلسوف "تشسترتون" إن الإيمان بعدم وجود الله يشبه من استيقظ في صبيحة أحد الأيام ونظر في المرآة ولم يرَ شيئًا. فحيث يغيب الانعكاس، ويغيب الإدراك، وتغيب معرفة الإنسان بذاته نهائيًا، لن يكون هناك أي معيار يقيس المرء نفسه عليه، ولن يوجد أي شيء يعمل المرء على تعديله. ومن ثم، تصبح مقولة سقراط الشهيرة "اعرف نفسك" مستحيلة.

قال الفيلسوف "تشسترتون" إن الإيمان بعدم وجود الله يشبه من استيقظ في صبيحة أحد الأيام ونظر في المرآة ولم يرَ شيئًا.

اشتداد الظلام

ولكن هذه الافتراضات تجعل الحياة مستحيلة. لذلك، ظهرت بعض الأصوات في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع تقول إنه حتى لو لم يوجد إله لابد أن نخلق إلهًا حتى يحمينا من أن نأكل بعضنا البعض. ويرجع أصل هذه الفكرة للتصريح الذي أُطلق منذ مئات السنين عن جوهر الأديان ووجودها. فقد قيل عن حضارة اليونان وروما القديمة إن كل الأديان من وجهة نظر العامة متساوية في صحتها، ومن وجهة نظر الفلاسفة متساوية في زيفها، ومن وجهة نظر الحكام متساوية في فائدتها. ومصطلح "فائدة" يعبر عن "سور للحماية" أو عن حدود يلزم وضعها في المجتمع . إلا أن الدين المبني على الحق عندما يُختزل إلى مجرد وظيفة اجتماعية لابد أن يتفكك من جراء إساءة استعماله. ولكن الأيام كانت أعلى صوتًا عندما أثبتت أن النفعية التي تعني بطبيعتها اختيار الأفيد أو الأنفع ، لا تنفع على المدى البعيد لأنها أسيرة اللحظة. ولذلك، لابد أن يكون أساس الفعل الأخلاقي أعمق وأبعد من فكرة الفائدة أو المنفعة العامة.

والإعلان الذي أطلقه "نيتشه" عن النصر الذي سيحرزه البشر الفائقون بعد فناء

الله تحقق بكل وضوح من حيث "المعرفة النقية". وقد تمخض عن سفاحين عاشقين للسلطة أحدثوا دمارًا يفوق الحصر. إلا أن الفصل الأخير من هذه المعتقدات لم يُكتب بعد. وأي محاولة للتهوين من الأثر العام الذي أحدثته هذه الأفكار يشبه من يقرأ النكات في الجريدة في الوقت الذي تعلن فيه عناوينه االرئيسية عن كوارث، أو كما يقال في المثل الشائع، كَمَن يعزف على الكمان بينما روما تحترق.

ومن المحقق أن ما خلفه "نيتشه" من يأس وشعور منحرف بالتفوق هو السبب في تشويه حياة النفوس المضطربة اليوم. فقد نشرت مجلة "ريدارز دايچست" Reader's Digest في عدد أغسطس ٢٠٠٣ نموذجًا لهذا التشوه في قصة مراهقَين، هما "روبرت" Robert وزميله "چيم" Jim اللذان قتلا رجلاً وامرأته وهما أستاذان محبوبان في كلية "دارتماوث" Dartmouth: "وضع الفَتَيان خططًا كبرى ليهربا من مدينتهما الصغيرة ويستمتعا بحياة الجريمة المثيرة. وكانت الخطوة الأولى أن يعثرا على هدف سهل ويأخذا أمواله، ثم يُسكتاه."[١٠] ويقول كُتاب مقال "القاتلان المبتهجان""The Thrill Killer": "كان "روبرت" يقرأ "نيتشه" وهو في المرحلة الثانوية. ولكن ما جذبه بشكل خاص هو عرض الفيلسوف الألماني لفكرة العدمية، وهي الفكرة الوجودية التي تزعم موت الله وتنفي وجود قيم أخلاقية. وأخذ الصديقان يقلدان بعضهما البعض، وأصبحت لهما أفكار شاذة جدًا. فقد أُعجبا بهتلر لأنهما اعتبراه "شديد الذكاء". وحتى في تلك البلدة الصغيرة "تشلسي" Chelsea [بلدتهما] التي يبلغ تعداد سكانها ١٢٥٠ نسمة، لم تلحظ الأسرتان ولا الأصدقاء تلك الأفكار الكئيبة التي خيمت بظلالها على حياة هذين الشابين."[١١] وسواء أكان يحق لنا أن نلوم فيلسوفًا على هذا الفِعل البشع أم لا، إلا أننا على الأقل يمكننا أن نرى المنطق الذي يخلق هذه الأفكار.

إن حقيقة الأفكار وما تجره من عواقب لا يمكن أن يستهان بها مهما حاولنا تزيين الواقع باستخدام لغة لطيفة مخففة. وطبقات الألوان الفلسفية التي تُكثر فرشاة الإلحاد من استخدامها لتجميل واجهة البناء لا يمكنها أن تخفي ما أصاب الأساس من شروخ بفعل عواصف الحياة. وأي محاولة لإخفاء حقيقة الواقع المر هي أقصى أشكال الكبت، وهي تعبر عن مستقبل وَهْم لا يمكن الهروب منه. فموت الله لن يُنتج بشرًا فائقين أنقياء يجذبوننا لأعلى بحبال كونية. ولكن السيناريو الأكثر احتمالاً

هو ذلك الذي تخيله الصحفي الإنجليزي الراحل "مالكوم مجريدچ" Malcolm Muggeridge.

> لو كان الله قد مات، فلابد أن يأخذ مكانه آخر. وهذا الآخر سيكون إما جنون العظمة أو هوس العشق×، الرغبة الجامحة في السلطة أو الرغبة الجامحة في اللذة، القبضة الحديدية أو الجنس، هتلر أو "هيو هفنر" Hugh Hefner.[١٢]××

إن ما خلُص إليه "مجريدچ" بأن مَن سيمسك الزمام مكان الله إما تاجر سلطة أو بائع جنس يتفق تمامًا مع ما نراه في مجتمع اليوم من ارتباك وفوضى. لقد أطلق هتلر على العالم واحدة من أشرس حالات التلذذ بالكراهية والسادية [التلذذ بتعذيب الآخرين] وأكثرها سفكًا للدماء، فقد حل السوبرمان المشكلة بالتخلص ممن رآهم دون المستوى. أما عقيدة "هفنر" فقد أهانت كرامة المرأة إهانة صريحة، وأكدت ضمنًا مبدأ اللذة والمتعة الحسية باعتباره مسعى الحياة الأعلى.

وباللغة النيتشاوية فإن الارتباط المنطقي بين السبب (الإلحاد) والنتيجة (العنف والسعي للذة) يماثل الارتباط الزمني بين إعلان هتلر عن نيته في كتاب "كفاحي" Mein Kampf وأبواب جهنم التي انفتحت على العالم مع هذا الإعلان على يد الرايخ الثالث. والمأساة الكبرى اليوم أن من يرفعون راية الإلحاد باعتباره كسبًا وانتصارًا للروح البشرية لا يعترفون بهذا ولا يدرسونه. فالإنسان بالمعنى العام لم يتولَ زمام الأمور مطلقًا، ولكن من يستأسرون بالزمام هم الأفراد الخارقون (السوبرمان) الذين يُنصبون أنفسهم ملوكًا على البشر كما عبَّر عن ذلك "تشسترتون" تعبيرًا ثاقبًا في قصيدته "الأفراد السرِّيون" The Secret People:

> آخر التعساء من حملة الأسلحة يتجهون بخيولهم في بطء نحو البحر
>
> فيأتي شعب آخر ويستولي على الأرض: أما نحن فحتى الآن لم يحِن دورنا.

× نوع من الهلاوس يتخيل فيه الشخص أنه مرتبط بعلاقة عاطفية أو جنسية مع أحد المشاهير. (المترجمة)

×× مؤسس مجلة "پلييبوي" Playboy الإباحية. (المترجمة)



أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- قال عالِم الاجتماع الألماني "ماكس وبر" "الإنسان يعتنق الدين عند نقطة المعنى". أي أن ما يدفعنا للبحث عن الله هو اشتياقنا الوجودي للمعنى ومعرفتنا الفطرية بوجود معنى. هل تتفق مع هذا الزعم؟ ما النماذج التي رأيتها في حياتك وفي مجتمعك تثبت هذا؟

٢- ناقش أثر كلٍّ من جاليليو، وداروين، وفرويد على الكنيسة. وكيف ترى تأثيرهم حتى اليوم في رفض الإيمان بوجود الله؟

٣- يزعم الكاتب أن "نيتشه" "أخرج الفلسفة من ميلها للهروب من وضع استنتاجاتها موضع التطبيق الفعلي بالمبالغة في التجريد، وأجبر الفيلسوف على دفع ثمن تذكرة كاملة في قطار الإلحاد حتى يرى أين سيصل به القطار". فكيف أجبر "نيتشه" المرء على أن يدفع تذكرة الإلحاد كاملة ويرى أين سيصل به القطار؟

٢



أليس من مسبب؟

العِلم لم "يشرح "شيئًا، وكلما ازدادت معرفتنا ازداد العالم غرابةً، واشتد الظلام الدامس المحيط به.

"ألدوس هكسلي "Aldous Huxley

يُحكى أن شخصًا سيئ الظن كان يجلس تحت شجرة بندق ويُجري حديثًا فكاهيًا تهكميًا مع الله. وكانت حجته في شكواه أن الله فشل فشلاً واضحًا في الالتزام بقواعد التصميم المعروفة. فقال: "يا رب. كيف تصنع شجرة كبيرة عاتية كهذه لتحمل ثمرًا صغيرًا دقيقًا كثمر البندق هذا؟ وتصنع نباتات صغيرة رقيقة تحمل هذا البطيخ الكبير الثقيل!"

وبينما كان يضحك على هذا النوع من انعدام التناسب في الكون الذي صنعه الله دون تَدَبُر، سقطت على رأسه فجأة ثمرة بندق. وبعد لحظةِ صمْت، تمتم قائلاً: "الحمد لله أنها ليست بطيخة!"

إلا أن الناس في مجتمعنا السريع الغارق وسط كم ضخم من المعلومات لا يشكون في الله ولا يتساءلون عن حقيقة وجوده لمجرد سقوط ثمرة بندق على رأسهم الحائر. وهذه الشكوك في مجملها ليست سيئة لأن خطورة الإيمان البسيط تكمن في الإجابات الساذجة التي تقود إليه. ولكن العقل الواعي يمكنه ويجب عليه أن يأتي بإجابات تتناسب مع حجم السؤال.

فالمعلومات المتوفرة للإلحاد لا حصر لها، مما يضطره للخوض في الكثير من المواد لتبرير ما يتوصل إليه من استنتاجات. وفي هذه الرحلة عليه أن يتخطى الكثير

من الحواجز حتى يصل إلى الصحة المنطقية والوجودية والعملية. ولكنه عندما يفشل في تخطي تلك الحواجز، عليه أن يمتحن صحة الإيمان بالله، ويلاحظ كيف ينجح المؤمن في عبور هذه العقبات نفسها التي يفشل هو في تخطيها، ويدرس الأسباب التي دعته للتوصل إلى استنتاجاته. وسأبين في هذا الفصل وبعض الفصول اللاحقة أن الإلحاد عاجز عن عبور الحواجز الكبرى التي تقف في طريقه وأنه في النهاية يضطر إلى عمل قفزات فاشلة أو غير قانونية. ورغم أن بعض هذه الجهود لا تسفر عن خسائر مدمرة، فهذه الحواجز في مجملها مستحيلة التخطي، والفشل في تخطيها ينطوي على معانٍ ضخمة جدًا.

الإلحاد بطبيعته هو الاعتقاد بعدم وجود إله. ولا يجب الخلط بين الإلحاد واللأدرية التي تدعي عدم المعرفة. والإلحاد عندما يفترض عدم وجود الله يرتكب على الفور خطأً أحمق ألا وهو النفي المطلق، وهو ما يتناقض مع نفسه. لأنني إن أردت الإبقاء على الاعتقاد بعدم وجود إله لابد أن أبين أني أتمتع بمعرفة غير محدودة، وكأني أقول: "أنا أتمتع بمعرفة غير محدودة تؤكد عدم وجود كائن يتمتع بمعرفة غير محدودة". ولكن لا داعٍ للدخول في هذه الحلقة المفرغة من الاستعراض اللغوي. فهناك حجج مضادة أهم.

أول حاجز كبير يجب تخطيه هو مسألة أصل الحياة، والقفزة الكبيرة الفاشلة التي اعتاد بعض العلماء أن يقفزوها من نتائج العلم إلى الإلحاد. ولا شك أن نظرية النشوء والارتقاء كان لها أكبر الأثر في نفي الله من بنية الأصل والوجود. ومنذ ذلك الحين أصبح طريق النشوء والارتقاء كله مليئًا بألغام شديدة الفاعلية حتى إن المسيحي الذي يسير هذا الطريق على أطراف أصابعه لابد له أن يطأ أحد هذه الألغام، إن عاجلاً أو آجلاً، فيتفتت هو وكل ما يعتز به من معتقدات.

وتاريخ التفاعل بين الإيمان بوجود الله ونظرية النشوء والارتقاء زاخر بالكلمات اللاذعة والحوارات المهينة بين هاتين الفلسفتين المتنافستين. وغالبًا ماتستند مشاعر العداء والكراهية التي يضمرها العلم للدين على أسباب معيبة أو شديدة الانحياز. ومن أقوى الأمثلة على ذلك الاحتقار رد "توماس هنري هكسلي" Thomas Henry Huxley المعروف على "صامويل ويلبرفورس" Samuel Wilberforce أسقف



أكسفورد في اجتماع للجمعية البريطانية للنهوض بالعلم British Society for the Advancement of Science سنة ١٨٦٠:

إن سنحت لي فرصة الاختيار بين أن يكون جدي قردًا تعيسًا أو إنسانًا منحته الطبيعة الكثير من الهبات ويتمتع بقدر كبير من التأثير، ولكنه يستخدم تلك الملكات وذلك التأثير لمجرد حشر بعض السخافات التافهة في مناقشات علمية جادة، فأنا أؤكد دون تردد أني سأختار القرد.

ويقال إنه عندما قص أسقف "ورسِستر" Worcester على زوجته ما حدث، أجابت قائلة: "منحدرون من القردة! يا للهول. أتمنى ألا يكون هذا صحيحًا. وإن كان، فلنصلِّ ألا ينتشر هذا الخبر".[1] ولكن لسوء حظ زوجة الأسقف، انتشرت القصة.

علم الأحياء أم علم اللاهوت:

ولكن المأساة الحقيقية تكمن في الفرق الشاسع بين ما نعرفه وما نؤمن به. فتقدم عمليات "الميكرو تطور" microevolutionary والقفز منها دون أدلة كافية إلى "الماكرو تطور" macroevolution مع تطبيقها على أصل الحياة بشكل خاص يفتقر للسلامة العلمية والميتافيزيقية[×]. ومع ذلك فإن اللهجة اللاذعة القاسية التي تُعبر عن عداوة شديدة للأمور الروحية كثيرًا ما وجدت طريقها إلى المجلات العلمية المتخصصة وكتابات الصحفيين الرائجة. والأمثلة على ذلك عديدة، والاستنتاجات تتضمن الكثير من المعاني بحيث لا يمكننا إهمال التعامل معها. واختلاط الفيزياء التي تقتصر على ما هو طبيعي ومرئي بالميتافيزيقا التي تُعنى بما وراء الطبيعة، والغزو الفيزيائي المستمر للمجال الفلسفي واللاهوتي يشبه من يضرب بسيف يمينًا ويسارًا دون أدنى تحمل للمسئولية ودون احترام لأي قانون، مما يهدد بأضرار جسيمة.

× يُعرِّف قاموس American Heritage Dictionary of the English Language مصطلح microevolution بأنه التطور الذي يَنتج عن سلسلة متتابعة من تنوعات جينية صغيرة نسبيًا غالبًا ما تؤدي إلى تكَوُّن أنواع فرعية جديدة. ويُعرِّف القاموس نفسُه مصطلح macroevolution بأنه تطور واسع النطاق يحدث على مدار الزمن الجيولوجي ويؤدي إلى تكَوُّن مجموعات تصنيفية جديدة. يُعرِّف قاموس Webster's Student Dictionary "الميتافيزيقا" metaphysics بأنها فرع الفلسفة الذي يتناول المبادئ الأولى للكينونة والمعرفة وجوهر الواقع. والمقصود بالميتافيزيقا كل ما هو متجاوز للطبيعي أو وراء الطبيعي. وهو المجال الذي تدرسه الفلسفة. أما العلم فمجاله هو العالَم الطبيعي. (المترجمة)



وفي النهاية ينتهي الأمر بصاحب السيف إلى أن يقطع رأسه بسيفه.

وهكذا، أول خطأ يسقط فيه الإلحاد هو أنه يقفز قفزة غير قانونية عبر العِلم، أي من النشوء والارتقاء إلى العلل الأولى. وهي قفزة ليس لها ما يبررها. لقد أسس "توماس هنري هكسلي" المعروف بلقب "حارس داروين الأمين" "Darwin's bulldog" هذا الاتجاه العدائي بحججه العنيدة شديدة الموالاة للداروينية. وفي تعليقه على كتاب "أصل الأنواع" The Origin of Species استخدم لغة في غاية الفصاحة تشع بهجةً وسرورًا:

> اللاهوتيون المنقرضون يرقدون بجوار مهد كل العلوم مثل الثعابين التي خنقها هرقل×، والتاريخ يسجل أنه كلما حدثت مواجهة حقيقية بين العلم والتقليد القويم، أجْبِر الأخير على التقهقر داميًا منسحقًا، أو مقضيًا عليه تمامًا. ولكن التقليد القويم هو خمر عالم الفكر، فهو لا يتعلم، ولكنه لا يمكن أن ينسى هزائمه.[٢]

لم تدخر بلاغته وسعًا في تمزيق أوصال المسيحية ثم تقيؤها كالوحش المفترس. ولكن فكر "هكسلي" تجاوز فكر داروين بمراحل، كما أشار العالِم والكاتب "ستانلي چاكي" Stanley Jaki الحاصل على إحدى الجوائز:

> لم يظهر تعبير "النشوء والارتقاء" "evolution" في كتاب "أصل الأنواع" إلا في صيغة الفعل "نشأ وارتقى" "evolved"، ولم يكن ذلك إلا في طبعته السادسة الصادرة سنة ١٨٧٢. ثم أصبحت الكلمة هي النبوة المضادة لذلك الاستنتاج النهائي الذي أشار فيه داروين (بدءًا من الطبعة الثانية) للخالق باعتباره مَن "نفخ أصلاً نسمة الحياة بقواها المتعددة في القليل من الأشكال أو في شكل واحد فقط". إلا أن مجمل النشوء والارتقاء في الداروينية يبين أن آخر عبارة في "أصل الأنواع"، وهي تلك التي تشير للخالق، شاذة ولا محل لها فيما آلت إليه فلسفة أو مذهب النشوء بوجه عام. واللافت للنظر في ذلك هو التناقض بين

× Hercules في الأساطير اليونانية هو ابن الإله زيوس وتقول الأسطورة إنه خنق ثعبانين وهو طفل رضيع ابن ثمانية أشهر. (المترجمة)

> هذه العبارة الأخيرة في "أصل الأنواع" والشعار الثالث والأخير من الشعارات التي مهدت لهذه العبارة. فقد استخدم داروين ذلك الشعار الذي اقتبسه من "فرانسيس بيكون" Francis Bacon ليحذرنا مِن أن نتوهم أننا قادرون على امتلاك الحقائق المطلقة سواء في اللاهوت أو الفلسفة عن طريق تأمل الطبيعة.[٣]

لقد صرح داروين في سيرته الذاتية أنه عندما ألّف كتاب "أصل الأنواع" أنه كان مؤمنًا بوجود الله. ولكن شكوكه في نشأة الحياة بدأت تنمو بمرور الوقت، إلا أنه شعر أن التوصل لاستنتاجات قاطعة في هذا المجال أمر يفوق قدراته. ونظرًا لإدراكه أنه مجرد ميتافيزيقي ضعيف مسكين، فقد وجد نفسه حبيسًا في متاهة لا يدري ما إذا كان مفهوم الله الموجود في عقله يرجع إلى أن الفكرة صحيحة فعلاً، أم أنه نوع من التلقين الآلي المتوارث الذي زرع الفكرة في عقله. ولكن المؤكد أنه لم يكن لديه النوايا والتطلعات العدائية الشرسة التي نشأت عند "هكسلي" فيما بعد.

وادعاء "هكسلي" بأن الصراع بين العلم والدين ينتج عنه دائمًا هزيمة الأخير على يد الأول ليس صحيحًا ولا منصفًا. فإن كان زعمه صحيحًا وإن كان محقًا في اعتقاده بأن زعمه لا يقبل الطعن ولا الشك، لما رأينا هذا العدد الضخم من العلماء البارزين اليوم ممن يرفضون القفزة الميتافيزيقية التي تميز بها الفكر الدارويني أو ما بعد الدارويني، ناهيك عن العلماء المسيحيين الأتقياء.[٤]

فمثلاً "مايكل بيهي" Michael Behe في كتابه "صندوق داروين الأسود" Darwin's BlackBox يبين لنا ما تتميز به الخلية البشرية من تعقيد لا يقبل الاختزال irreducible complexity لا يمكن لفكرة التطور البيولوجي أن تفسره. فقد زعم داروين أن العين البشرية تطورت من عين أبسط، ولكنه تجاهل السؤال الجوهري المختص بأصل العين. ولا يكتفي "بيهي" بالإشارة إلى تجاهل داروين لهذه المسألة، بل يصف التغيرات الكيميائية التي تحدث لتوليد البصر. وهي عبارة عن سلسلة من ردود الأفعال الكيماوية التي يستحيل حدوثها وفقًا لآلية التطور وتتم بدءًا من لحظة سقوط الفوتون [وحدة ضوئية] على الشبكية وانتهاءً باختلال اتزان الشحنة الذي يسبب انتقال التيار عبر العصب البصري إلى المخ، مما ينتج الإبصار.

ولذلك يخلص "بيهي" إلى أن التعقيد غير القابل للاختزال الذي يميز الخلية البشرية يكشف أن "الماكرو تطور" مستحيل من الناحية البيوكيميائية وأن الداروينية خاطئة.

زعَم داروين أن العين البشرية تطورت من عين أبسط، ولكنه تجاهل السؤال الجوهري المختص بأصل العين.

وعلى العكس من ادعاء "هكسلي" فالقفزة إلى الإلحاد تدمر العِلم أكثر مما تدمر اللاهوت. وكان يحسن به بدلاً من التركيز على الحرب بين العلم واللاهوت أن يركز على الحرب الشعواء التي تدور رحاها داخل الوسط العلمي نفسه حيث تتراجع بعض النظريات والمعتقدات العلمية كلما ظهرت نتائج جديدة تُبطل نتائج أخرى أقدم. فالانتقال من بطليموس إلى كوبرنيكوس إلى نيوتن إلى أينشتاين، وإلى نظرية الكم Quantum Theory وما تحظى به من اهتمام كبير يتضمن في طياته قفزات كبرى.

إن العلم ليس ميتافيزيقيًا ولا أحاديًا في طبيعته. ولذا، العلماء الأمناء يدرسون مادتهم بحذر وتواضع، معترفين بقصور معرفتهم نظرًا لمحدودية العلم في إدراكه للجنس البشري. وإن لم يتحلوا بهذا التواضع يتجاوزون الحد ويقفزون قفزة ميتافيزيقية فيحولون العلم إلى مذهب علمي scientism يظن خطأ أن أساليب البحث في العلوم الطبيعية يمكن تطبيقها في كل مجالات البحث والاستقصاء حتى غير العلمية.

يخلص "بيهي" إلى أن التعقيد غير القابل للاختزال الذي يميز الخلية البشرية يكشف أن الماكرو تطور مستحيل من الناحية البيوكيميائية وأن الداروينية خاطئة.

وهذا ما تُحذر منه كلٌ من "ماري هس" Mary Hesse في كتابها "معايير الحق في العلم واللاهوت" Criteria of Truth in Science and Theology والفيلسوف "يورجن هابرماس" Jürgen Habermas في كتابه "المعرفة والاهتمامات البشرية" Knowledge and Human Interests. وتُذكرنا "ماري هس"، في تعليقها على دور

العلم وحدوده التي يجب أن يحترمها، بأن المعرفة التي يزودنا بها العلم "لا تُعرفنا الطبيعة الجوهرية للأشياء، ولا قيمة وجودها في موقع معين من الكون، ولا كيفية إدارتها لحياتها".[٥]

وأقول إن العلم ليس أحاديًا بسبب تعدد فروعه المتباينة التي لابد أن تلتقي معًا إن أردنا التوصل لنتيجة موحدة. ولكننا نرى في هذه المساحة الشاسعة العديد من الطرق التي يتميز كلٌّ منها بحدود أصيلة فيه. وهذه الفروع المتمايزة التي لا غنى عنها لدراسة الجنس البشري تتسم بشدة تنوعها وكثرة متطلباتها، مما يجبر العالِم أن يتحلى بقدر كبير من الاحترام للتحدي الذي يواجهه. وهذه الفروع تضم عمل كل من عالِم الكونيات، وعالِم الفيزياء الفلكية، والفيزيائي، وعالِم الكيمياء الفيزيائية، وعالِم الكيمياء الحيوية، وعالِم الأحياء الجزيئية، والمتخصص في علم أحياء الخلية، وعالِم التشريح، وعالِم الفسيولوجي، وعالِم فسيولوجيا الأعصاب. وهو ما يؤكد اتساع المجال ورحابته.

فعالِم فسيولوجيا الأعصاب مثلاً يدرس المخ (وهو فرع واحد من الفروع العلمية المعقدة) وما فيه من مليار خلية عصبية طويلة، كلٌّ منها يتصل في المتوسط بعشرة آلاف خلية أخرى تحت سيطرة الموصلات الكيميائية. وحتى مخ الأخطبوط يتجاوز في تعقيده أي تحفة مصنوعة بيد بشر، أما مخ الإنسان أكثر تعقيدًا بما لا يقاس. وقد قدَّم "تشارلز شرينجتون" Charles Sherrington في كتاب "الإنسان في طبيعته" Manon His Nature تصويرًا بديعًا إذ رأى المخ باعتباره نولاً مسحورًا حيث تنسج ملايين المكاكيك فائقة السرعة تصميمًا متناغمًا، دائمًا ذا معنى رغم أنه لا يسير على منوال واحد رتيب، ولكنه دائم التنوع في تناغم رائع بين التصميمات الفرعية.[٦]

هذا هو حجم المعلومات المتصلة بعضو واحد في الجسم، فالأمر أبعد ما يكون عن مجرد ساحة لعب للهواة. وعندما تضيف إلى ذلك ما يتعلق بطبيعة الكائن البشري المعقدة من أبعاد أخرى، تصبح المهمة خارج نطاق سيطرة العالم المتخصص في العلوم الطبيعية بمفرده. فالبشر كائنات اجتماعية وجمالية، وليسوا مجرد أجسام مادية. وما نتميز به من قدرات لغوية فريدة، وصراعات أخلاقية، وميول دينية،

واشتياق للحب، وبحث عن الشخصانية يضيف أبعادًا عميقة للمهمة التي نحن بصددها. وهذا التعقيد يحتم على التنظير العلمي أن يعترف بمحدودياته، وإلا أتت النتائج شديدة الانحراف. إن تقدُّم العلم وتغير نظرياته سرعان ما يبين أن الداروينية وما يتصل بها من أشكال ما بعد المندلية post-Mendelian (بما فيها نظرية الوراثة) لا تدعم الحكم المجحف العنيف الذي أصدره "هكسلي" على اللاهوت.[٧] فكثيرًا ما أطاحت الاكتشافات الجديدة بما كان يُظن أنه حقائق علمية، والقوانين القديمة تقهقرت أمام تقدم فرضيات جديدة. وقد تعددت وجهات النظر الصادرة عن العديد من الأصوات المتنازعة طوال القرن الماضي، ومازالت الصراعات المتجذرة قائمة حتى اليوم. ولعل نظرة سريعة على مَواطن الخلاف تبرر ما أدعو إليه من ضرورة توخي الحذر عند التعامل مع هذه المسائل.

الأحياء أم الفيزياء:

تُرى الخلافات في المجال العلمي على ثلاث جبهات على الأقل. أولها غياب نظام موحد يجمع الفروع المتنوعة في وحدة متجانسة. ومن التحديات الجوهرية التي تكمن هنا هو التعامل مع مشكلة الحتمية التي تطرح سؤال: هل نحن نتاج الصدفة البحتة؟ ورغم أن عددًا من الفلاسفة تناول هذه القضية، فحتى هذه اللحظة لم يتمكن أحدهم من اقتراح نظرية توحد كل وجهات النظر وتقدم إجابة شافية.

والجبهة الثانية هي أن نظرية النشوء والارتقاء نفسها كانت محل عدد من الخلافات الكبرى فيما بين العلوم المختلفة على مدار ما لا يقل عن ثلاث فترات أساسية. ففي مطلع القرن العشرين، ركزت المناقشات على ما إذا كان النسل يرث خليطًا من الصفات الأبوية أم لا. وقد دخلت القضية برمتها في خضم من الجدل العنيف بعدما أعيد اكتشاف نظرية "جريجور مندل" Gregor Mendel، وتراشق كلٌّ من علماء القياسات الحيوية Biometricians (الذين يقيسون المادة البيولوجية)[×] وأنصار نظرية "مندل" بالعديد من الاتهامات القاسية. والعداوة التي نشأت عن ذلك تحولت إلى حوارات شخصية لاذعة.

× علم القياسات البيولوجية (الحيوية) هو فرع من علم الأحياء يدرس الظواهر والملاحظات البيولوجية عن طريق التحليل الإحصائي. (المترجمة)

أما الصراع الثالث بين علماء الحفريات وعلماء الوراثة انفجر في عشرينات القرن العشرين. فمع ازدياد المعرفة بالطفرات الوراثية ساد شعور بعدم الرضا عن الداروينية الكلاسيكية، مما أدى إلى طرح عدد من النظريات الأخرى المتنوعة التي تتناول آلية النشوء والارتقاء. ومَن يقرأ تاريخ علم الأحياء آنذاك ("نوردنسكيولد" Nordenskiold، "رادل" Radl، "سينجر" Singer، وغيرهم) يرى أنهم يصورون نظرية النشوء والارتقاء باعتبارها نوعًا من اللغط اللامنطقي.

وفي الستينات والسبعينات من القرن العشرين اكتسبت الحوارات حول الحيادية neutralism والانتخاب selection أهمية كبرى.× ومن أهم الأسماء التي ظهرت على هذه الساحة "هـ. ج. مولر" H. J. Muller وكذلك "ج. ب. س. هالدن" J. B. S. Haldane. وقد قال "ر. ج. بري" R. J. Berry أستاذ الوراثة في "يونيڤرستي كولج" University College بلندن:

> عندما نراجع الحجج النظرية التي ساقها "مولر" وكذلك "هالدن" نكتشف مدى سذاجتها. فقد نجح كلاهما في النظر إلى كل جين باعتباره يتصرف بالاستقلال عن حامله. وهو خطأ بيِّن.[٨]

ووصولاً إلى يومنا هذا نجد أن عالِمي الحفريات الأمريكيين "نايلز إلدردج" Niles Eldredge وكذلك "ستيڤن چاي جولد" Stephen Jay Gould قد تحديا النظرة المعتادة السائدة التي تقول بأن عدم معرفتنا بأصل الأنواع ناتج عن فجوات في سجل الحفريات. وهم يرجحان بدلاً من ذلك أن النشوء والارتقاء يسير على هيئة موجات نشاط متكررة. ومن ثَمَّ، فالفجوات ليست فجوات، ولكنها مجرد فترات راحة في العملية نفسها. وما تبع هذه النظرة من استنتاجات تَسبب في مزيد من المناقشات الساخنة.[٩]

ولم تقتصر الخلافات الكبرى على مستوى العمليات العلمية وكيفية حدوثها، لأن الجبهة الثالثة التي يواجه عليها العِلم أشد صراعاته تشتمل على صراع أعمق حول الاحتمالات المتعددة لتفسير أصل الحياة. فمثلاً السير "فرِد هويل" Sir Fred

---

× الحيادية تشير إلى العلاقة بين اثنين من الأنواع البيولوجية اللذين يتفاعلان معًا دون أن يؤثر أحدهما على الآخر. (المترجمة)



Hoyle يرجح في كتابه "الكون الذكي" The Intelligent Universe أن الفكرة القائلة بأن الحياة نشأت من تحرك الجزيئات حركة عشوائية "تماثل في سخفها واستحالتها القول بأن هبوب إعصار في ساحة خردة ينتج عنه تكوين طائرة بوينج ٧٤٧". وقد حسب احتمالية نشأة الحياة على هذا النحو فوجد أنها واحد إلى عشرة مرفوعة لأس أربعين ألفًا. (وهو يصور ذلك باحتمال تكون ألفي جزئ إنزيمي دفعة واحدة من أحماضها الأمينية العشرين المكوِّنة لها في وقت معين).

وإني أرى أن رد أحد العلماء المعاصرين على "فرد هويل" مدهش في حد ذاته:

> ولكن هذا الحساب ليس صحيحًا. فالاحتمال الأرجح هو وجود نظام أبسط كثيرًا يعيد إنتاج نفسه بنفسه وقادر على النمو بالانتخاب الطبيعي حيث إنه تكون في أي مكان على الأرض وفي أي وقت على مدى ١٠٠ مليون عام. ومن المستحيل أن نحسب هذا الاحتمال لأننا لا نعرف طبيعة هذا النظام الافتراضي الذي يعيد إنتاج نفسه، ولا تركيب "الحساء الأساسي"[×] "primeval soup" الذي نشأ فيه هذا النظام. فمن الواضح أن نشأة الحياة كانت حدثًا نادرًا ولكن ليس هناك ما يدعونا أن نظن أنه خارق للعادة أو غير محتمل الحدوث طبقًا للحساب الذي قام به "هويل".[١٠]

لاحظ هذا الرد. يستهل العالِم كلماته بالقول: "هذا الحساب ليس صحيحًا". وتقول الجملة التالية "من المستحيل أن نحسب هذا الاحتمال..." وهكذا يرجع رفضه لزعم"هويل" إلى استحالة حساب الاحتمالية بسبب جهلنا بالنظام. يا له من اعتراف جريء يعلن أن العلم لا يعرف البدايات بالمعنى الأصيل للكلمة، وأنه عاجز عن إجابة سؤال "كيف"، ناهيك عن سؤال "لماذا" يوجد شيء من الأساس بدلاً من لا شيء.

ومع ذلك مازال الكثيرون مُصرين على هذه القفزة العمياء. فقد أوضح "چورچ سي. سيمپسون"George C.Simpson أن نظرية النشوء والارتقاء بينت

× مصطلح ابتكره عالِم الأحياء السوفيتي "اسكندر أوپارين" Alexander Oparin عندما وضع نظريته عن نشأة الحياة على الأرض سنة ١٩٢٤ . (المترجمة)

أن نشوء الحياة برمته كان يمكن أن يتم تلقائيًا، وأن هذا ما حدث بالفعل. وقد قال "سيمپسون": "لا حاجة لنا أن نفترض وجود أي تدخل فوق طبيعي أو ميتافيزيقي في عملية النشوء والارتقاء". ولكن "ستانلي چاكي" قال ردًا على ذلك:

هناك ملاحظتان، إحداهما علمية والأخرى ميتافيزيقية. فالمسئولية العلمية التي تقع على عاتق مؤيدي النشوء والارتقاء التلقائي أن يقدموا تفسيرًا للسمات غير التلقائية في سلوك البشر بوجه عام وللنظريات التي تؤيد تلقائية automatism الكون، رغم أنها هي ذاتها لم تتكون من تلقاء نفسها. أما الناحية الميتافيزيقية فهي لازمة لتفسير البداية الأولية لعملية النشوء والارتقاء.[11]

العلم عاجز عن إجابة سؤال كيف، ناهيك عن سؤال لماذا يوجد شيء من الأساس بدلاً من لا شيء.

وقد سدد "لسلي نيوبيجن" Lesslie Newbigin الطعنة ذاتها للعلماء الذين يتمسكون بالنشوء التلقائي ويرفضون فكرة وجود مسبب أولي ذكي، في كتابه "لليونانيين جهالة" Foolishness to the Greeks ولكن من زاوية مختلفة. فمن التحديات العنيفة التي تواجههم أن يفسروا الأفكار والاستنتاجات القابعة في مخ تكَوَّن بشكل آلي أوتوماتيكي محض. وهل يمكن أن نعتبر الاستنتاجات المنبثقة عن هذه العملية الآلية استنتاجات صحيحة؟ وقد قال "نيوبيجن" مشيرًا إلى الظاهرة phenomenon والظاهرة الثانوية epiphenomenon للمخ وعلاقته بالعقل:

إلا أننا قد نشرح ما نمر به من حالات عقلية، ونحن نعرف أن هذه الحالات موجودة لدينا. فأنا أعتقد أني موجود. إن كانت فكرة أنا موجود هذه مجرد سلسلة من النبضات الكهربية في مخي، فقدرة المخ على إنتاج هذه النبضات لابد أن تنتج عن التطور الذي يتم عن طريق الانتخاب الطبيعي. ولكن بما أن الفكرة القائلة بأني قادر بإرادتي على التأثير في عمل هذه النبضات هي مجرد وهم، فوجود هذه الفكرة الوهمية ليس له أي تأثير على ما يحدث في عالم التغيرات الفيزيائية والكيميائية. ومن



ثم، ينتفي تأثيرها على الانتخاب الطبيعي. وهكذا يصبح مصدر هذه الفكرة الوهمية سرًا غامضًا لا تفسير له بما أنها لم تنتج عن الانتخاب الطبيعي. وهكذا يفشل "التفسير" في أن يفسر.[١٢]

وأضيف هنا أن هذه هي إحدى القضايا الجوهرية التي عانى منها داروين، وقد كان لها أعمق الأثر على هذا العالِم السلوكي. والإلحاد لم ينجح يومًا في معالجة هذه القضايا معالجة شافية، وهو ما يدفع بالفلسفات الإلحادية للدخول في دوامة من الحجج الدائرية التي تنتهي إلى لا شيءٍ. وقد طرح عالِم الأحياء "چورچ بيدل" George Beadle في مواجهته للإلحاد سؤالاً يقول: "من أين أتى الهيدروجين؟" ثم أضاف قائلاً: "أيهما أغرب، أن نعتقد في كون مخلوق من الهيدروجين قادر على التطور حتى يُنتج الإنسان أم أن نقبل خلق الإنسان كإنسان؟"[١٣]

إن فكرة "بيدل" منطقية. فالملحد في رفضه للأسباب الأولى لا يمكنه تفسير إمكانية وجود مسبب أولي ليس شخصًا، حسب زعمه، ولا يمكنه بالأحرى تفسير قدرة "المادة الخام" التي "نشأ" منها كل شيء وما تنطوي عليه هذه الفكرة من غرابة. فتحوُّل الهيدروجين إلى كائنات عاقلة ومريدة لا يمكن شرحه علميًا ولا يمكن الاعتراف بصحته فلسفيًا.

الملحد في رفضه للأسباب الأولى لا يمكنه تفسير إمكانية وجود مسبب أولي ليس شخصًا، حسب زعمه، ولا يمكنه بالأحرى تفسير قدرة "المادة الخام" التي "نشأ" منها كل شيء وما تنطوي عليه هذه الفكرة من غرابة.

فهذه القضية برمتها تمثل مشكلة لا حل لها عند العلماء حتى إن "ف. هـ. س. كريك" F. H. C. Crick الذي كان لاكتشافه جزئ الـ DNA أعمق الأثر على علم الوراثة والحياة البيولوجية كما نعرفها اليوم، قال: "الهدف النهائي للحركة الحديثة في علم الأحياء هو شرح علم الأحياء كله بلغة الفيزياء والكيمياء".[١٤]

ولكننا نصل تدريجيًا إلى طريق مسدود. فقد بيَّن علماء الأحياء أن اكتشاف الأساس الفيزيائي للشفرة الجينية زاد من صعوبة الوصول لإجابة عن سؤال أصل

الحياة. حتى لو سلَّمنا بأن الشفرة الجينية نتجت عن الانتخاب الطبيعي، فمازلنا نحتاج "الآلة" لترجمة الشفرة إلى وظيفة، وهذه الترجمة في حد ذاتها تعتمد على مكونات هي نفسها نتاج للترجمة. وإمكانية حدوثِ ذلك ضئيلة جدًا تصل إلى الصفر، مما دفع "كريك" أن يرجح أن الحياة في شكلها البكتيري ربما انتقلت إلى هذا الكوكب في صاروخ من مكان آخر في الفضاء. وهكذا نعود مرة أخرى إلى نقطة الصفر. فإن "كريك" وغيره ممن يُخرجون الله من النسق الكلي دائمًا ما ينتهون إلى تفسير يعجز عن أن يفسر.

الفيزياء أم الميتافيزيقا:

تتعارض أيضًا فكرة تصاعد الأشكال البيولوجية إلى تصميمات أكثر تعقيدًا وتقدمًا مع ثاني قوانين الديناميكا الحرارية في الفيزياء. والديناميكا الحرارية هي أحد فروع الفيزياء الذي يعني بالعلاقات فيما بين الأشكال المختلفة للطاقة وتَحولها من شكل إلى آخر فيما بين بعضها البعض، وسلوك الأنظمة في تعاملها مع كميات أساسية معينة مثل الضغط ودرجة الحرارة. ولمّا كان أصل الكون الطبيعي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الفرع، فلابد من احترام قوانين الديناميكا الحرارية.

والقانون الثاني يوضح أساسًا أن الحرارة لا يمكن أن تتحول من جسم بارد إلى جسم ساخن دون حدوث تغيرات كلية في أجسام أخرى. وفي حالة حدوث عملية لاعكسية× irreversible process، دائمًا ما يزداد الإنتروپي entropy (أي موت الحرارة). وإن قبِلنا اللعب بالألفاظ باعتباره نوعًا من الدعابة، نقول إن الهبوط إلى الإنتروپي أو العشوائية التامة هو في نهاية الأمر عبارة عن انتقال من النظام إلى الفوضى، من المركب إلى البسيط.

وقد قدم شكسبير هذه الفكرة في كلمة الوداع في آخر مسرحياته "العاصفة" The Tempest حيث يقول على لسان "پروسپرو"Prospero:

فهذا ليس إلا مزاح وقد انتهى. وهؤلاء الممثلون

× يقصد بهذا المصطلح أنه عندما يحدث تغيير في حالة الحركة الحرارية thermodynamic state لنظام ما لا يمكن إعادة النظام لحالته الأصلية، أي أن العملية لا يمكن أن تحدث في اتجاه عكسي، ومن أمثلتها انتقال الحرارة، والاحتكاك، والتشوه البلاستيكي. (المترجمة)



كما قلت لك، ليسوا سوى أرواح
وقد تلاشوا وذهبوا أدراج الرياح
ونظير من يتخيل مشهدًا لا وجود له
ها هي الأبراج المتوجة بالسحاب، والقصور الفخمة
والمعابد المهيبة، وحتى الكرة الأرضية العظيمة
مثل كل إرث تذوب وتضمحل كالملح في الماء
وهكذا في هذا الاستعراض المشؤوم يغيب الواهمون
ولا يتركون وراءهم أثرًا

والسؤال من وجهة النظر العلمية هو كيف يمكن للأنظمة البيولوجية أن "تسبح ضد التيار الإنتروپي" في هذا النظام المغلق؟ أو، إن أردنا التعبير عن الفكرة بشكل مختلف، كيف يمكن للأنظمة البيولوجية أن تصعد سُلم التعقيد والنظام في حين أن العالم الطبيعي يهبط إلى الإنتروپي والفوضى؟

وقد حاول العلماء التعامل مع هذه المعضلة في دراستهم للبِنى المبدِّدة× dissipative structures التي تبين أن الكائنات الحية تحتفظ ببنيتها على حساب النظام، فتعيد الحرارة إلى البيئة. إلا أنه، كما يشير علماء آخرون، فإن هذه الفكرة أيضًا لا تقدم تفسيرًا ولا إجابة لسؤال: كيف يمكن لأنظمة بهذا القدر من الدقة والتعقيد كالكائنات الحية أن تظهر إلى حيز الوجود في عالم تؤدي فيه العمليات اللاعكسية إلى زيادة في الإنتروپي، وبالتالي إلى الفوضى؟

وبالرغم مما قام به العلماء من محاولات للتوصل إلى إجابة شافية للسؤال الذي يطرحه القانون الثاني في الديناميكا الحرارية، لم تنجح محاولاتهم في إزالة الارتباك والحيرة. وذلك، لأن نتيجة محاولاتهم تحتم أن يسير أحد القوانين الأساسية في الأحياء في اتجاه مضاد تمامًا لأحد القوانين الأساسية في الفيزياء. وحجة العلماء هنا أن القانون الذي ينطبق على الكل لا ينطبق على كافة أجزائه. (خداع خبيث

× بنية لها نظام ديناميكي في حالة ثابتة تعيد إنتاج نفسها. وهذه الحالة الثابتة يمكن الوصول إليها إما بالتطور الطبيعي للبنية، أو بأسلوب آخر مختلف، أو بالاثنين معًا. (المترجمة)

مليء بمشكلات خطيرة لمَن يريد أن يلتزم بالقوانين). وهكذا نعود مرة أخرى إلى "الحساء الأساسي" الذي يحوي بداخله هذه القدرة العجيبة على الارتفاع فوق القوانين الفيزيائية الأساسية على نحو غير مفهوم. وبذلك يعجز التفسير عن أن يفسر كما أشار "لسلي نيوبيجن"، إذ تتكرر الإجابة عينها مثل قرار أغنية يعيد الكلمة ذاتها مرارًا وتكرارًا، ألا وهي "الصدفة".

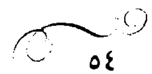
وقد قال عالِم الكيمياء الحيوية الفرنسي "چاك مونو" Jacques Monod دون خجل: "إن أساس عقيدة التطور المذهلة هو الصدفة البحتة العمياء ذات الحرية المطلَقة".[١٥] ويختم "مونو" أغنيته التي تعبر عن خروج التناغم من النشاز، والنظام من الفوضى، بهذه الكلمات الرنانة:

> لقد انتفى العهد العتيق، وعرف الإنسان أخيرًا أنه وحيد في خضم الكون القاسي الذي انبثق منه بالصدفة، دون تحديد لمصيره ولا لمسئوليته. أما الملكوت الأعلى أو الظلام السفلي، فالاختيار بينهما متروك له.[١٦]

ثعبان أم حبل:

"چون پولكينجهورن" John Polkinghorne عالِم الفيزياء النظرية وزميل "ستيڤن هوكينج" والرئيس السابق لكلية "كوين كولچ" Queen College في كامبريدچ معروف بتميزه الأكاديمي وتفوقه في مجاله. وقد تصدر قائمة علماء فيزياء الطاقة العالية لأكثر من ثلاثين عامًا. ومجلة "فيزيكس بولتين" Physics Bulletin وصفت كتابه "عالَم الكم" The Quantum World بأنه من أفضل ما كُتب في هذا المجال. ويتميز الدكتور "پولكينجهورن" ببراعته في تفنيد فكرة من يزعمون أن العلم يغنينا عن الإيمان بعالَم خلقه الله. وقد تحدى استنتاج "چاك مونو" أن عالَمنا نتاج الصدفة الناشئة عن عملية من الحركة العشوائية، وأشار إلى أن المشكلة الكبرى تتعلق بأصل الحياة نفسها.

ويقيم "پولكينجهورن" الحجة ضد حماقة الفكرة القائلة بأن الأحماض الأمينية تراصَّت بشكل عشوائي من تلقاء نفسها وكونت سلسلة البروتين ويؤكد بكل حزم أن هذا الكون شديد الدقة والانضباط والذي يمكن فهمه بالعقل لا يمكن تفسيره



تفسيرًا وافيًا بعملية الصدفة العشوائية. فإن دقة هذا الكون تؤكد المبدأ الإنساني× anthropic principle الذي يقضي أساسًا بأن وجود الإنسان وبقاءه لا ينشآن عن كون عشوائي بل يعتمدان على كون يتميز بِسمات خاصة جدًا من حيث قوانينه الأساسية وظروفه. إنه يشبه ثورة كوبرنيكية حادة، لا تعيد الأرض إلى مركز الكون، بل تربط طبيعة الكون بما يكمن فيه من إمكانات تسمح بوجود الإنسان.

ويا لَدقة التوازن، وشدة الإحكام، حتى إن "پولكينجهورن" كتب يقول:

> انزعج العلماء مما يتطلبه المبدأ الإنساني من توازن دقيق. وللتخلص مما أصابهم من توتر، لجأ بعضهم إلى اقتراح مفاده أنه ربما هناك حافظة تحوي العديد من الأكوان ... التي تنشأ من سلسلة لا متناهية من الحركات المنتظمة لواحد فقط من هذه الأكوان وهو في حالة مستمرة من التمدد والانكماش، وفي كل مرة تنصهر بنيته الأساسية تمامًا في بوتقة الانسحاق الشديد×× big crunch، ومن ثم، ينبثق مرة أخرى في شكل مختلف في التمدد التالي من هذه الحلقة الكبيرة.

ثم يضيف "پولكينجهورن" قائلاً:

> لنتعرف على هذه الاستنتاجات على حقيقتها. فهي في الواقع ليست فيزياء، ولكنها ميتافيزيقا بالمعنى الدقيق للكلمة. فليس هناك سبب علمي محض يدعونا للإيمان بوجود مجموعة من الأكوان. ...

ولكن هناك تفسير آخر محترم فكريًا، ويبدو لعقلي أكثر ذكاءً، هو أن هذا العالَم الواحد يتسم بالماهية التي هو عليها لأنه مخلوق بإرادة خالق قصد له أن يكون هكذا.[١٧]

يجب أن تكون الخلاصة واضحة في أذهاننا. فسواء أكان استنتاج "كريك" بأن الحياة انتقلت إلى هذا الكوكب في شكلها البكتيري بصاروخ موجَّه من كوكب

× يُعرف "قاموس أكسفورد" Oxford Dictionary المبدأ الإنساني بأنه المبدأ الكوني القائل بأن نظريات الكون مقيدة بضرورة السماح بالوجود البشري. (المترجمة)

×× يُعرف "قاموس أكسفورد" Oxford Dictionary الانسحاق الشديد بأنه انكماش الكون حتى يصل إلى درجة عالية جدًا من الكثافة والحرارة (والانسحاق الشديد هو العكس الافتراضي للانفجار الكبير) (المترجمة)

آخر، أم زعم "مونو" المبالغ فيه بشأن الصدفة، فإن ما يحاول "هكسلي" تأكيده من أن العلم سدد ضربة قاضية للاهوت هو حلم بعيد المنال. فمن الدروس المأساوية التي نتعلمها في هذا القرن أن كل مجموعة خبراء في مجال معين يعتمدون على ما لديهم من معرفة في مجالهم لإثبات كل ما يريدون إثباته تقريبًا، متجاهلين أهمية التوصل إلى حق واحد يجمع كل المعارف معًا ويعترف بسائر العلوم اعترافًا منصفًا. ويبدو أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن زعم "هكسلي" ومَن يعيشون تحت غبار هذا الزعم يرون العمليات الصغرى micro-processes التي تتم في الأشجار وتفوتهم الحتميات الكبرى macro-necessities التي تحويها الغابات.

ما يحاول "هكسلي" تأكيده من أن العلم سدد ضربة قاضية للاهوت هو حلم بعيد المنال.

يروي أحد الأمثال الهندوسية القديمة أن رجلاً رأى شيئًا يلتوي بشكل مخيف في الرياح وسط ضباب الليل المظلم فظنه ثعبانًا وهو في الواقع لم يكن سوى حبل. أما العالِم الملحد ضيق الأفق الذي يعيش حبيس فكرة وحيدة وسط رؤية معملية ضبابية وقع في ذات الخطأ الأحمق ولكن بالعكس، وظن الثعبان حبلاً. ففي المثل الشرقي يكمن الخطأ في رؤية الميت على أنه حي، بينما في الإلحاد يكمن الخطأ في رؤية الحي على أنه ميت. وهكذا فقد الملحد جوهر الحياة بافتراضه لوجود سبب أولي غير عاقل.

إني أذكر جيدًا حلقة نقاشية كان يديرها الدكتور "پولكينجهورن" في جامعة كامبريدچ. وقد قال بابتسامة عريضة تعليقًا على العوامل الكامنة في هذا الكون بالإشارة إلى نظرية الكم تحديدًا: "ليس هناك غداء مجاني. فلابد لشخص أن يدفع التكلفة. والله وحده هو من يملك الموارد اللازمة حتى نحصل على هذا الكون".

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- فيما يختص بمسألة أصل الحياة، اشرح "القفزة الكبيرة الفاشلة التي اعتاد بعض العلماء أن يقفزوها من نتائج العلم إلى الإلحاد".

٢- تُذكرنا "ماري هس" أن المعرفة التي يزودنا بها العلم "لا تُعرفنا الطبيعة الجوهرية للأشياء، ولا قيمة وجودها في موقع معين من الكون، ولا كيفية إدارتها لحياتها". في رأيك ما الذي تقصده بهذه العبارة؟

٣- يقول الكاتب: "العلم عاجز عن إجابة سؤال كيف، ناهيك عن سؤال لماذا يوجد شيء من الأساس بدلاً من لا شيء". هل تتفق أم تختلف مع هذا الرأي؟ ولماذا؟

٤- ناقش هذه العبارة: "الملحد في رفضه للأسباب الأولى لا يمكنه تفسير إمكانية وجود مسبب أولي ليس شخصًا، حسب زعمه، ولا يمكنه بالأحرى تفسير قدرة "المادة الخام" التي "نشأ" منها كل شيء وما تنطوي عليه هذه الفكرة من غرابة".

٥- كيف تتعارض نظرية التطور مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية؟

٣



معاناة الفضيلة

العالم يتحول ويتغير،
إلا أن شيئًا واحدًا لا يعتريه تغيير.
طوال سني حياتي، رأيت شيئًا واحدًا لا يتغير،
ومع ذلك تُخفيه، إنه لا يتغير:
الصراع الدائم بين الخير والشر

"تي. إس. إليوت "T. S. Eliot
"الصخرة" The Rock

عندما رفض الملحد وجود مسبب أولي عاقل لنشأة الحياة أصبح يواجه عائقًا آخر بالغ الصعوبة، ألا وهو تحديد طبيعة الإنسان الجوهرية. ففي كل مجتمع، أيًا كانت دعائمه الثقافية، نجد قانونًا يحدد "الوجوبيات" [ما يجب فعله وكيف يجب أن تكون الأمور]. وبالرغم من أن التفاصيل قد تختلف من ثقافة لأخرى، فهذه التفاصيل دائمًا ما تقوم على مجموعة من المعتقدات التي تعبر عما يجب أن تكون عليه الأمور. وهذه المعتقدات ترتبط، بدورها، بطبيعة الإنسان الجوهرية وغرض وجوده من وجهة نظر أفراد هذا المجتمع. ولذا، فالرأي القائل بأنه لا يصح أن نتحدى أخلاقيات شخص ما ونخضعها للمناقشة رأي غير دقيق. وذلك لأن المعتقدات التي تقوم عليها هذه المناقشة يمكن الدفاع عنها ويمكن تفنيدها، وهو ما يجعلها قابلة للمناقشة. وهنا يمكننا الوصول إلى اتفاق عام: حيثما وُجد قانون يحدد "الوجوبيات"، فهو دائمًا ما يرتبط بغرض الحياة الذي يؤمن به واضع هذا

القانون. فالصلة وثيقة جدًا بين الغرض والوجوب، وأي محاولة لفصلهما لابد أن تقابلها حالة من النزاع على مستوى الأفراد والاضطراب على مستوى المجتمعات، وتكون النتيجة فوضى عارمة.

ولنأخذ الساعة مثالاً على ذلك. إن أي توصيف لجودة الساعة أو رداءتها يرتبط بالوظيفة التي نتوقعها منها. وأسوق هنا قصة قديمة، ولكن مغزاها يجعلها تستحق التكرار. يُحكى أن رجلاً كان يمر على حانوت ساعاتي يوميًا في طريق ذهابه إلى العمل. وقد اعتاد أن يتوقف خارج الحانوت ويضبط ساعته على الساعة الموضوعة في نافذة الحانوت. وعندما لاحظ الساعاتي هذا الرجل يومًا فيومًا، قرر ذات مرة أن يفتح معه حوارًا، وسأله عن وظيفته. فقال الرجل في خجل إنه يعمل ميقاتي المصنع المجاور وأن ساعته بها عطل، مما يضطره إلى ضبطها كل يوم. وهو مسئول عن دق جرس نهاية اليوم في تمام الرابعة مساء. لذلك، فهو يضبط ساعته كل صباح حتى يدق الجرس في موعده.

وعندئذ شعر الساعاتي بالحرج أكثر من الميقاتي وقال له: "يؤسفني أن أخبرك أن ساعتي أيضًا ليست دقيقة، وأنا دائمًا أضبطها على الجرس الذي أسمعه كل يوم من المصنع الساعة الرابعة بعد الظهر!"

فكيف يمكن للميقاتي أن يعرف الوقت المضبوط إن كان كل ما لديه ساعة بها عطل يُصلحها بساعة غير دقيقة؟ ما الذي يحدث لمجتمع لا يعرف الطريق الذي يسلكه ليميز الخطأ من الصواب؟ وعندما يناقش فلاسفة الأخلاق المشوَّشون قضايا الخطأ والصواب منطلقين من نقاط غير يقينية، تَحدُث أخطاء مضاعفة. فإن كان الكون قد أوجد نفسه، فهو عاجز عن توصيل أي أخلاقيات، وهو ما أكده "ستيفن كرين Stephen Crane":

قال رجل للكون:
"سيدي، أنا موجود"
فأجابه الكون: "ولو،
هذا الخبر لم ينشئ فيَّ
شعورًا بالواجب الأخلاقي".[١]

وفقًا للنظرة الطبيعية[×] naturalistic للعالم، لا يمكن أن يوجد في الكون أي شعور بالواجب، ولا أي مطلب أخلاقي.

والملحد الذي يقبل، بطبيعة الحال، النظرة الطبيعية البحتة لأصل الإنسان وجوهره، مجبَر على قبول نظرية "ويج" Whig في التاريخ[××] التي تؤكد أن اللحظة الأكثر تقدمًا في الزمن تمثل قمة التطور. ولكننا عندما نُقَيِّم التقدم بهذه الطريقة نجعله عنصرًا زمنيًا أكثر منه منطقيًا. وإذا سلَّمنا بذلك، كما يشير عدد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس، تصبح نقطة الإنجاز في الحاضر هي أن المطلَقات الأخلاقية شيء ينتمي للماضي، وأي نظرية أخلاقية تحظى بالقبول والاعتراف هي موضوع لا يناسب العصر ولا معنى له. وقد عبَّر "نيتشه" عن هذه الفكرة كما يلي:

> عندما يرفض المرء الإيمان المسيحي، فهو ينكر على نفسه الحق في الأخلاقيات المسيحية. وهذه الأخلاقيات ليست واضحة في ذاتها. فالمسيحية منظومة، ونظرة متكاملة للأمور مجتمعة. ولكن كسر المفهوم الأساسي فيها، ألا وهو الإيمان بالله، يكسر المنظومة كلها. فالمسيحية تقوم أو تسقط بناءً على الإيمان بالله.[٢]

كان محقًا. فلا يمكن للمرء أن يأخذ الجوانب المفيدة في الأخلاق المسيحية بينما يستغني عن المسيح. ولا يمكن أن تحتفظ بالوصايا العشر وترفض أسفار موسى. وقد اعتبر "نيتشه" أن تطويبات الموعظة على الجبل منهج عقيم للحياة لأنها تؤكد مسئولية الإنسان تجاه الفقراء والضعفاء في المجتمع. وكان "نيتشه" يرى أن المجتمع الذي ينقاد بهذه الأخلاق هو مجتمع يحكمه الفاشلون.

إن ما نشهده حاليًا من رفض للقانون الأخلاقي يُعتبر بحق تجربة فريدة من

× المذهب الطبيعي naturalism كما يُعرفه "قاموس أكسفورد" هو موقف فلسفي يرى أن كل شيء ينتج عن خصائص وأسباب طبيعية ويستبعد التفسيرات الخارقة للطبيعة أو الروحية أو يقلل منها، ويوضح القاموس نفسه أن هذا المذهب في فلسفة الأخلاق يُعبر عن النظرية التي تقول بأن المبادئ الأخلاقية يمكن اشتقاقها من مبادئ لا علاقة لها بالأخلاق. (المترجمة)

×× نظرية تعتبر الماضي نوعًا من التدرج الحتمي الذي يتجه نحو مزيد من الحرية والتنوير، حتى يتوَّج نهائيًا بالأشكال الحديثة من الديمقراطية الليبرالية والملكية الدستورية. (المترجمة)

تجارب الحضارة. ولا أقصد بهذا إنكار ما عانته الحضارة في الماضي من صراعات أخلاقية. ولكن مجتمعات العصور الماضية كانت تتبنى، ولو نظريًا، معايير معينة لتحديد الصواب والخطأ، أي أساسًا تشيد عليه مباني السلوك الأخلاقي. إلا أنه في أيامنا هذه لا توجد أساسات ونحن ماضون في طريقنا بخطى ثابتة نحو الإخصاء الأخلاقي. فمن بين الإحدى والعشرين حضارة التي سَجلها المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" Arnold Toynbee، حضارتنا هي أولى الحضارات التي لا تُعَلم قانونًا أخلاقيًا ولا تُقدم لصغارها أي تعليم أخلاقي.

وهذا الرفض للقانون الأخلاقي، باعتباره تجربة فريدة من نوعها، يتضمن بعدًا آخر. فبالرغم من أنها ليست أول مرة تتخذ فيها منظومة الإلحاد شكلاً واضحًا محدد المعالم، فما صاحَبها من فقدان للمطلَقات لم يحظَ فيما مضى بهذا القدر من القبول المتبجح الممزوج بنشوة الانتصار. فالحكيم الهندي "سانكارا" Sankara هو من تولى تنظيم مجتمعه وقيادته بما قدمه من تفسيرات لنصوص "الڤيدا" Vedas [أقدم نصوص دينية هندوسية] في القرن الثامن. وبالرغم من شدة إيمانه بالأحادية، وعدم إيمانه بإله شخصي علاقاتي، كان يؤمن بالقانون الأخلاقي إيمانًا راسخًا، ولو عاش في عصرنا هذا لاعتبر عدم إيماننا بالقانون الأخلاقي دلالة على الشر والفساد.[٣] وبالرغم من أن "جاوتاما بوذا" Gautama Buddha علَّم معتقداته باعتبارها منظومة إلحادية، فقد تبنى قانونًا أخلاقيًا قويًا ولو كان من أبناء عصرنا لاعتبر موقفنا اللاأخلاقي نوعًا من الجهل.

ولكننا إن سلَّمنا بأننا وُجدنا في هذا العالم بالصدفة، يصبح هذا الموقف متوافقًا مع معطيات هذا الوجود. فمنطق نشأة الحياة بالصدفة دفع مجتمعنا إلى أن يعيد صياغة قواعده، فحلت النفعية محل الواجب، وتربع التعبير عن الذات على عرش المرجعية، وأصبح الشعور بالارتياح والانبساط مرادفًا للصلاح والصواب. إن هذه القواعد الجديدة تُسقط الفيلسوف الأخلاقي في دوامة من النسبية المرعبة، حيث تموت كل المطلَقات شر ميتة. وتصبح الحياة لعبة مقامرة قليلة القواعد. ولكنها برمتها ليست إلا أداة لتحقيق الهدف ولا تحمل معنى في ذاتها سوى أنها وسيلة تجلب المتعة للاَّعب.



عندما انفلتت سفينتنا من المراسي الأخلاقية في هذا العالم الجديد الجريء، وجدنا أنفسنا نتخبط في بحار لا خريطة لها، وقد قررنا التخلص من البوصلة.

وعندما انفلتت سفينتنا من المراسي الأخلاقية في هذا العالم الجديد الجريء، وجدنا أنفسنا نتخبط في بحار لا خريطة لها، وقد قررنا التخلص من البوصلة. وقد عبَّر "پيتر كريفت" Peter Kreeft الأستاذ في "بوسطن كوليچ" Boston College في كتابه "ثلاث فلسفات حياتية" Three Philosophies of Life عن هذا المعنى بمنتهى الوضوح والإيجاز:

> طالما تناول عِلم الأخلاق القديم ثلاث مسائل. أما عِلم الأخلاق الحديث فهو لا يتعامل إلا مع واحدة، أو اثنتين على الأكثر. والمسائل الثلاث تشبه ثلاثة أوامر يتلقاها قادة أسطول من السفن. [التشبيه مستعار من "سي. إس. لويس" C. S. Lewis]. الأول: على السفن أن تحذر الارتطام بعضها ببعض. ويمثل هذا الأمر الأخلاقيات الاجتماعية، وهو ما يتناوله فلاسفة الأخلاق القدامى والمحدثون أيضًا. والثاني: على السفن أن تظل في حالة جيدة وتحترس من الغرق. وهو ما يُعبر عن الأخلاقيات والفضائل والرذائل الفردية، وبناء الشخصية الأدبية للفرد، وهو مبدأ قلما نسمع عنه في الفلسفات الأخلاقية الحديثة. أما الثالث والأهم أن يدرك القادة سبب وجود الأسطول في البحر من الأساس... وأظن أني أعرف ما يدفع الفلاسفة المحدثين للتهرب من طرح هذا السؤال عظيم الأهمية: لأنهم لا يملكون الإجابة عليه.[٤]

لقد أبرز "پيتر كريفت" ببراعة الاختلافات بين فلاسفة الأخلاق القدامى ونظرائهم المحدثين، وأضيف، وما بعد المحدثين post-modern. ففلاسفة الأخلاق القدامى أمعنوا في فحص التفاصيل الدقيقة، وتناولوا كلاً من الماهية والكيفية في مجال الأخلاق حتى يتوصلوا لأحكام مرجعية. أما فلاسفة الأخلاق المعاصرون تدور أسئلتهم بالأحرى حول لماذا، وماذا لو حتى يصيغوا وصفًا للأخلاق.

مثل مزعج:

يقدم فيلسوف الأخلاق البارز "ألاسدير ماكينتاير" Alasdair MacIntyre تصويرًا أوضح في رصده لهذا المرض المعاصر. ففي كتابه "نحو الفضيلة: دراسة في نظرية الأخلاق" After Virtue: A Study in Moral Theory الذي ترك آثارًا عميقة في هذا المجال، يعرض سيناريو يتحدى فكر القارئ في فصل بعنوان "اقتراح مثير للقلق" "A Disquieting Suggestion" حيث يطلب من القارئ أن يتخيل عالـمًا أدت فيه العلوم الطبيعية إلى وقوع كارثة عامة بسبب بعض الأخطاء الحمقاء التي وقع فيها عدد قليل من العلماء. فقد أدى التغير البيئي إلى وقوع كوارث كبرى مما دفع الجماهير إلى أعمال شغب وتدمير شامل وصلت إلى حد إعدام العلماء لفظيًا وفعليًا والتخلص من كافة الكتب العلمية وأعادت العالم إلى حالته الأصلية وأفرغته من المعرفة العلمية. وفي أعقاب هذه الحادثة، وصل أحد الأحزاب السياسية الخيالية إلى الحكم ووعد بالتخلص نهائيًا من تدريس العلوم.

ولكن بعد فترة من الزمن، يسعى بعض الأفراد المستنيرين لإحياء العلوم، ولكن مشكلتهم عدم توافر البيانات الكافية اللازمة لهذه المهمة. فبالرغم من أن اللغة العلمية بدأت تظهر من جديد، لم تكن لديهم تعريفات قاطعة متفق عليها لبعض التعبيرات مثل مصطلح "الوزن الذري" ومصطلح "الكثافة النوعية". صحيح أن هذه التعريفات مذكورة في بعض الوريقات التي أُنقذت من الحريق ولكن ليس هناك أي مرجعيات تؤكدها.

وكما هو الحال في الأمثال عمومًا، لا يجب التمسك بالتفاصيل لدرجة تقتل الفكرة الرئيسية من وراء المثل. فقد اقترح "ماكينتاير" وضعًا خياليًا صَور فيه العِلم يواجه خطورة شديدة، حتى إن اللغة نفسها لم تعد تتصل بالحقائق الفعلية.

لو تخيلنا أن هذا السيناريو تحول إلى واقع، فسوف تنشأ عنه نتيجتان. الأولى أن عالِم المنطق لن تكون له أي فائدة لأنه سيبقى سجين البيانات المتاحة له تمامًا كما هو الحال مع العلماء. وفي أحسن الأحوال لن يتمكن إلا من التعامل مع ما كان "معروفًا" أو "معتقدًا". والثانية أن الوجودي الذي يعيش بقوة إرادته لا يمكنه أن

يعتبر الحلول المتاحة صحيحة أو خاطئة لأنه لَمَّا كان يرى نفسه مستقلاً وقادرًا على إدارة ذاته سيضطر إلى اختيار ما يشعر أنه صحيح من وجهة نظره الشخصية. وفي ظل هذه الظروف، هل يمكن لنظرية علمية أن تقوم بناء على القبول الشعبي لها؟

وهكذا بعد أن تحطم الأساس وصارت الأولوية للشعور، يتحول المجتمع إلى حالة من الفردانية القاسية حيث يجلس كل شخص تحت شجرة تفاح ويحدد سبب شعوره بسقوط التفاح على الأرض. فمع فقدان الحق باعتباره أساس كل شيء، يبقى "الشعور" أو الحدس هو الخيار أمام الجميع . وعالِم الاجتماع سيقدم إسهاماته على أساس دراسة مسحية، وبعدها يبني القواعد العلمية وفقًا لما هو مقبول لدى الأغلبية. وبالرغم من أن هذه القواعد ستختلف من مجتمع لآخر، فلا يجب أن نضخم من خطورة هذا الأمر لأنه في مجتمع يقوم فيه الخلاص على أساس الدراسات المسحية، يفقد الدليل التجريبي أهميته. ولكن المهم هو الوجود. ومع غياب الحقائق التي تشير إليها الألفاظ، يصبح المفضل والمرغوب هو المعيار.

وقد وضع "ماكينتاير" تطبيقًا محددًا جدًا لهذا التصوير المُعبر الثاقب:

> إن الفرضية التي أحاول تقديمها أنه في العالَم الفعلي الذي نعيش فيه تعاني لغة الأخلاق حالة الفوضى الخطيرة التي تعانيها لغة العلوم الطبيعية في العالم الخيالي الذي صورته. فكل ما نمتلكه في هذه الحالة هو مجرد بقايا لإطار مفاهيمي، أجزاء أصبحت تفتقر للسياقات التي اشتقت منها معانيها. بل إن ما نملكه حاليًا هو صورة مقلَّدة مهزوزة للأخلاق . ومع ذلك فنحن ما زلنا نستخدم الكثير من التعبيرات الأساسية. ولكننا فقدنا فهمنا للأخلاق بنسبة كبيرة، إن لم نكن فقدناه بالكامل، على المستويين النظري والعملي.[٥]

إن الموقف الخيالي الذي صوره "ماكينتاير" يحقق مَثل "المجنون" الذي ساقه "نيتشه". ففيما بين التأثير النفسي لحادثة جاليليو والقفزة العمياء من نظرية داروين إلى الإلحاد، والمحاولة الفلسفية لخنق مفهوم الله بحرمانه من متنفَسه الميتافيزيقي، لم يبقَ للأخلاق أي أساس منطقي تقوم عليه. فقد نجح الهدامون في تقويضه

تدريجيًا وعلى نحو فعال، حتى إن الدفاع عن الأخلاق أصبح مجردًا من أي سند فكري يدعمه.

الأفكار الرائجة

قد يسأل أحدهم سؤالاً مشروعًا عما إذا كان العامة يستقون بالفعل معتقداتهم الأخلاقية من مفكري اليوم الذين لا يكفون عن المجاهرة بأفكارهم. والإجابة هي نعم ولا. فهولاء الخبراء المفوهون من ذوي القدرة الفكرية والنقاشية يزودون مؤسسات العالم سواء أكانت قانونية أو تعليمية أو دينية أو سياسية بقوة فكرية وفلسفية. ولم يعد أحد يؤمن بالاستنتاج الأفلاطوني الذي يقضي بأن كل السياسة قانون، وكل القانون أخلاق. وعندما قررنا أن نعيش تحت سطوة الوهم الكبير القائل بأن الحريات الشخصية وحرية التعبير تخلو من الافتراضات والمسئوليات الأخلاقية، حكمنا على أنفسنا بالإفلاس، وضحينا بالكرامة والحق والأخلاق على مذبح الاستقلالية وعبادة الذات.

عندما قررنا أن نعيش تحت سطوة الوهم الكبير القائل بأن الحريات الشخصية وحرية التعبير تخلو من الافتراضات والمسئوليات الأخلاقية، حكمنا على أنفسنا بالإفلاس.

وإن أردنا أن نفهم ما نعانيه اليوم من تشوش أخلاقي، علينا أن نتبع الآثار التي وصلت بنا إلى هذا الوضع. ولا شك أن أصابع الاتهام تشير إلى المجتمع الفكري. فالكثير من المفكرين ومن يطلق عليهم قادة الفكر في المجتمع حقروا الأساسات التقليدية للصواب والخطأ وشنوا هجمة ثلاثية على المعتقدات التي كان البشر يحترمونها ويثمنونها: فعلوا ذلك أولاً بما نشروه من كتابات وما أصدروه من تصريحات، وثانيًا بما أجروه من تغييرات في المؤسسات التي تمثل ركائز المجتمع، كالمؤسسات القانونية والتعليمية، وثالثًا بإهمالهم المتبجح للأخلاق في حياتهم الشخصية.[٦] وبالتالي، فالمؤسسات التي أنشئت بغرض توفير الحقائق للمجتمع أصبحت تخدم أغراضها الذاتية وذات صفة مؤقتة إلى حد كبير. وأصبح

الافتراض المسبق الأساسي الذي يحكمنا هو أن الصواب والخطأ أفكار ليس لها أي نقطة مرجعية مطلقة. وهكذا نجح جهابذة الفكر في إتمام مهمتهم.

وإذ ركب صناع الرأي هؤلاء موجة هذا العصر الذي أضحى بلا إله، أمسكوا بسيوفهم الفلسفية وراحوا يشطرون بها كل ما يجدونه في طريقهم. وأصبحوا يرفعون راية تُعبر عن عقيدتهم كتبوا عليها "المعرفة بأي ثمن"، وقد وُصفَت هذه العقلية التي تسعى للمعرفة من أجل المعرفة بأنها "شهوة للمعرفة". "يتعلّمن في كُلّ حينٍ، ولا يستطعن أن يُقبلن إلى معرفة الحقّ أبداً". [٢تي ٣: ٧] هو وصف كتابي مناسب لهؤلاء الأفراد). فهؤلاء المفكرون أرادوا نزع كل ستار وحجاب لدرجة العبث بالأجنة في بطون أمهاتها. وقد أطاحوا بكل التعاليم المعروفة والمنقولة في الحِكم والأمثال التي تغرس قيم التوقير والخشوع والتواضع. ورفضوا كل استنتاجات الماضي باعتبارها عقائد بدائية ووصفوها بأنها منظومة فكرية صاغها قلة من الأفراد ليسيطروا على الجماهير بالضغط عليهم بمشاعر الذنب.

ولكن الحقيقة التي فاتت هؤلاء المفكرين أن الأخلاق ليست شيئًا مجردًا ولا شيئًا مصنوعًا عن قصد. بل ينبغي لكل من المؤرخ والعالِم والفيلسوف أن يبحثوا عن كل ما تُثبت القاعدة أنه حق وما يؤكد وصفه أيضًا أنه حق. ويجب عليهم أن يعلنوا ما يتوصلون إليه من نتائج بصدق. فالفلسفة قد تبدأ بالتساؤل، ولكن دافعها هو حب الحكمة أي معرفة الحق وتطبيقه. وعندما ينتهك المفكرون الأخلاق في أي فرع من فروع العِلم سواء ضمنيًا أو صراحةً، فإن ذلك يستتبع خرق القوانين وحياكة نوع من الخيال العلمي. ومن يخرقون القوانين يستخدمون سلطتهم على الطبيعة للسيطرة على الآخرين.

إن كلبًا قويًا مدربًا قد يحمينا من أفعال الآخرين المؤذية، ولكن كيف نحمي أنفسنا من الغرور الفكري الذي يسلب كل ما هو قيِّم ويتركه للهزء والرفض على أيدي أساتذة الجامعات والمشاهير؟ إن أبطال مجتمعنا يفوزون بجائزة نوبل أو بأوسمة أكاديمية ثم يستغلون ذلك في شن هجوم عنيف على القانون الأخلاقي. فكيف يمكن لرجل الشارع أن يجابه فائزًا بجائزة نوبل أو نجمًا من نجوم هوليود؟

ولذلك، فأناس مثل "برتراند رَسِل" وكذلك "چان پول سارتر"، وحتى "وودي

آلن" Woody Allen كان لهم تأثير عميق على المجتمع بمحاجتهم ضد وجود الله واستهزائهم بأحكامه. وقد يظن المرء أن عمالقة الفكر أمثال هؤلاء كانوا سيخرجون بحجة جذابة تؤيد فلسفتهم الأخلاقية. إلا أنها لم تظهر حتى الآن.

ولا شك أن "برتراند رَسِل" كشف عن نقطة ضعف فلسفته الأخلاقية في مناظرته الشهيرة سنة ١٩٤٨ مع الفيلسوف "فردريك كوپلستون" Frederick Copleston. ففي منتصف المناظرة سأل "كوپلستون" "رَسِل" عن الأساس الذي يميز به بين الصواب والخطأ، فأجاب "رَسِل" أنه يُفرق بينهما كما يُفرق بين الأصفر والأزرق. فقال "كوپلستون" متحديًا هذا التشبيه إن التفريق بين الألوان يتم على أساس الرؤية. ولكن كيف يمكن التمييز بين الحسن والسيئ؟ فأجاب "رَسِل" وقال إنه يفعل ذلك على أساس مشاعره.[٧]

ولكن "كوپلستون" كان في غاية السماحة، لأنه لو أراد أن يقضي على "رَسِل" فلسفيًا، لكان قد دمر حجته. لأن الناس في بعض الثقافات يحبون بعضهم بعضًا، ولكنهم في ثقافات أخرى يأكلون بعضهم بعضًا، وكلاهما على أساس الشعور. يا تُرى أيهما كان يفضل "رَسِل"؟

إن الفلاسفة العلمانيين لا يمكنهم تقديم إجابة منطقية عن هذا السؤال المتعلق بكيفية التفريق بين الصواب والخطأ لأن واضعي نظريات الأخلاق لا يملكون نقطة انطلاق مشتركة، ولا يرجع ذلك إلى قلة محاولاتهم. بل على العكس، فقد قاموا بمحاولات مستميتة وتوصلوا إلى حجج جيدة جذابة. ولكنهم في النهاية يدورون في دوائر ويضلون طريقهم في متاهة من الحجج والحجج المضادة. وما يزيد الأمر كله تعقيدًا هو التوق البشري الذي يستحيل إشباعه، مما يجعل التوصل إلى نظرية إلحادية جامعة أمرًا مستحيلاً.

يروي الشاعر وكاتب المقال الإنجليزي "ف. و. هـ. مايرز" F. W. H. Myers أنه كان يتمشى في إحدى الأمسيات الممطرة في شهر آيار / مايو في حديقة بكلية "ترينيتي" في جامعة كامبريدچ بصحبة الروائية العظيمة "ماري آن إيڤانز" (التي كتبت رواياتها باسم رجالي مستعار هو "چورچ إليوت" George Eliot). وكانا يناقشان الأخلاق والدين. وكتب "مايرز" معلقًا على ذلك:



خرجَت نوعًا ما عن سلوكها المعتاد واتخذت لموضوع حديثها ثلاث كلمات كُثُر استخدامها كنداء الحرب الذي يحمس الرجال: الله، الخلود، الواجب. وإذ نطقَت كلاً منها بجدية مخيفة، وجدتُ الأولى تستعصي على الفهم، والثانية يستحيل تصديقها، أما الثالثة فيا لها من كلمة فاصلة مطلقة. ربما أني لم أسمع نبرة أقوى تؤكد سيادة هذا القانون اللاشخصي الذي لا يعرف اللين ولا التراجع.[^8]

إن كلمة "الواجب" لها سحرها وإغراؤها. ولكني أؤكد ثانية أنه لو كنا نتخذ من الانتخاب الطبيعي نقطة انطلاق لنا، فيستحيل أن نجد إجابات على أسئلة مثل: واجب تجاه من؟ ولأي غرض؟ لقد ظهر عدد لانهائي من النظريات التي تشرح مفهوم "الواجب" ولكنها دائمًا ما تنجرف في منزلق سحيق.

ولكل نظرية اسم يُعبر عنها: الذاتية subjectivism، العاطفية emotivism، الأنوية egoism، النفعية utilitarianism، وغيرها. وأيًا كان الاتجاه الذي تسلكه كل منظومة، تصل جميعها إلى الاستقلالية أو الحكم الذاتي autonomy الذي يعني حرفيًا قانونًا تجاه الذات. وقد جسَّد "چرمي بنثام" Jeremy Bentham عبثية الجهود الطائلة التي بذلها الفلاسفة في المفهوم الذي صاغه تحت عنوان "مبدأ السعادة العظمى" "greatest happiness principle" الذي استخلص منه "معيارًا حسابيًا" يطبقه على أي فعل ويقيسه به من حيث مدته، وشدته، وقربه، ومداه، ويقينيته، ونقائه، وإنتاجيته، وغير ذلك من العوامل التي تحدد نفع الشيء.

علَّمنا أنفسنا الحماقة

وهو ما يعكس مدى السخف البيِّن الذي وصلنا إليه، ومازالت هذه الفلسفة عاجزة عن إجابة أسئلة من قبيل: لماذا يجب أن نكون أخلاقيين؟ ومن الذي يحدد الأخلاق؟ فالحقيقة أن ما وصل إليه العقل البشري في بناء الأطر الأخلاقية أو هدمها يقدم مبررًا قويًا للتوبيخ القاسي الذي قاله "مالكوم مجريدچ"، رغم تشاؤمه، ألا وهو أننا علَّمنا أنفسنا الحماقة. ولذلك، فإن فلاسفتنا، مهما كان حسن نيتهم، قتلوا الأخلاق في محاولتهم أن ينفخوا فيها نسمة حياة بالانفصال عن الله.

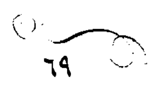


عاقبة متوقعة:

بعد أن نجح هؤلاء المفكرون في قتل الأخلاق أكاديميًا فصلوا مهاراتهم العقلية عن ممارساتهم الأخلاقية في حياتهم الخاصة، والكثيرون ممن تبنوا أخلاقيات استقلالية autonomous عاشوها بالكامل حتى وصلوا إلى نهايتها المأساوية. فأخلاقيات "برتراند رَسِل" أو "چان پول سارتر" أو "إرنست همينجواي" Ernest Hemingway كشفت عن حياة تفتقر للتماسك والوحدة. فقد عاش هؤلاء الكُتاب في علاقات مجردة من عهد الحب أو الوفاء الأخلاقي. إلا أن ما تركوه من تأثير جبار كان مفجعًا، ويجب أن تزودنا نماذج حياتهم بالشجاعة للاعتراف بالأخطاء الخطيرة والمدمرة التي اشتمل عليها تعليم وأسلوب حياة أولئك الذين شكلوا الفكر الحداثي وما بعد الحداثي.

إن "چان پول سارتر" مُعلم الستينات من القرن العشرين الذي أصبح اسمه كلمة مألوفة في أفواه الطلاب هو من أشعل نيران الوجودية في ذلك العصر. وعشيقته "سيمون دي بوڤوار" Simone de Beauvoir التي عاشت معه أطول فترة مقارنة بغيرها، قالت إن أكثر الشعارات التي بثت فيها الحماسة من فكر "سارتر" هو "ممنوع أن تمنع" "It is forbidden to forbid." لقد أصبح "سارتر" بكتاباته الأب الروحي الأكاديمي للكثير من الحركات الإرهابية الأشد وحشية في ذلك العقد. حتى إن المؤرخ "پول چونسون" Paul Johnson قال عنه:

> ما عجز عن توقعه، وكان أي شخص حكيم سيتوقعه، أن معظم العنف الذي شجع عليه فلسفيًا لن يمارسه السود على البيض بل على غيرهم من السود. فإذ ساعد "فانون" Fanon على إشعال نيران العنف في أفريقيا، ساهم في الحروب الأهلية والمذابح التي حاقت بمعظم مناطق تلك القارة من منتصف الستينات حتى اليوم. وكان تأثيره في جنوب شرق آسيا حيث كانت حرب ڤيتنام تضع أوزارها أقسى من ذلك. فالجرائم البشعة التي ارتُكبَت في كمبوديا من نيسان / أبريل ١٩٧٥ فصاعدًا وأودت بحياة ما بين خُمس وثلث السكان نظمتها مجموعة من المفكرين الناطقين بالفرنسية من أبناء الطبقة الوسطى عُرِفت باسم



Angka Leu ("المنظمة العليا" The Higher Organization). وكان من بين قادتها الثمانية خمسة مدرسين، وأستاذ جامعي، وموظف حكومي، وخبير اقتصادي. وقد درسوا جميعهم في فرنسا في الخمسينات من القرن العشرين حيث انضموا للحزب الشيوعي وتشربوا تعاليم "سارتر" عن استخدام الفلسفة في إحداث تغييرات سياسية واجتماعية philosophical activism، وعن "العنف الضروري" "necessary violence. "لقد كان هؤلاء السفاحون أبناءه الأيديولوجيين.[٩]

ويتمثل التناقض المربك عند "سارتر" في أنه وجه انتقادات لاذعة لتورط الولايات المتحدة في حرب ڤيتنام باعتبارها لاأخلاقية، في حين أنه سلك هو نفسه الطريق المنطقي من الوجودية التي تتبنى الحياد الأخلاقي ethical neutrality إلى الماركسية، من الفردانية المتشددة إلى "المجتمع اللاطبقي". وأقول إنه طريق منطقي لأني أؤمن إيمانًا أكيدًا أن كل الثقافات الاستقلالية تحتاج بعد فترة من الزمن إلى حالة باطنية مبهجة من الغموض الأخلاقي وإلى "قضية أخلاقية". فبرفضها لله لا تجد أي قضية تستحق أن تكرس لها كل جهودها، ومن ثم، تتجه إلى نموذج المدينة الفاضلة الماركسي وتجمع القطيع تحت "أجنحة السوبرمان".

إلا أن تأثير "سارتر" على الناس في ستينات القرن العشرين يُعتبر صغيرًا مقارنة بتأثير "نيتشه" على أدولف هتلر. فقد اتخذ هتلر من كتابات "نيتشه" نموذجه الفلسفي وشن أكثر الحروب دموية وتدميرًا في التاريخ التي لم يكن لها أي مبرر، وقد غيرت شكل العالم على نحو يستحيل علاجه. ولا يمكن إنكار تأثير "نيتشه" على هتلر. فقد كتب المؤرخ "ويليام شيرر" William Shirer يقول: "اعتاد هتلر زيارة متحف "نيتشه" في "ڤايمار" Weimar ونشر احترامه الشديد للفيلسوف بأخذ لقطات فوتوغرافية لنفسه وهو يحدق في بهجة غامرة في تمثال هذا الرجل العظيم".[١٠]

وربما تُعَد بقايا معسكر "أوشڤيتسِ" Auschwitz النازي في جنوب بولندا أسوأ وصمة في عالمنا اليوم. فهناك أشرفَ "رودولف هوس" Rudolph Hoess قائد المعسكر على قتل ١٢ ألف شخص يوميًا. وزيارة واحدة لهذا المكان كافية أن تبعث

في النفس حزنـًا تعجز عن وصفه الكلمات. إنه يكشف عمق الجرم الذي يمكن أن ينحط إليه العقل البشري. فغرفة واحدة تحوي حوالي ٦٣٥٠ كيلو جرام من شَعر النساء الذي كان يؤخذ منهن بعد إخراج أجسادهن من غرف الغاز ويُستخدم في صنع أجولة لنقل البضائع . وقد وصف "يوچين كوجان" Eugene Kogan في كتابه "الجحيم: النظرية والممارسة" Theory and Practice of Hell رعب التجربة النازية. وكانت هذه هي "الألعاب الجديدة" التي اختُرعَت آنذاك على حد تعبير "نيتشه" في ملعب العالم النازي. لقد أخذ هتلر منطق "نيتشه" وقاد النظرة الإلحادية لنتيجتها المشروعة. وكلمات هتلر معلَنة بوضوح في "أوشڤيتس":

> حررْتُ ألمانيا من الأوهام الغبية والمشينة المختصة بالضمير والأخلاق. ... وسندرب شبابـًا يقف العالم أمامهم مرتعدًا. أريد شبابـًا قادرين على العنف، مغرورين ومستبدين، قساة لا يعرفون اللين.

لقد أخذ العنصر الميتافيزيقي في النظرية الداروينية وقال في كتابه "كفاحي":

> إن كانت الطبيعة لا ترغب في أن الضعفاء يخالطون الأقوياء، فهي ترفض أن جنسـًا أرقى (كالجنس الجرماني) يختلط بجنس أدنى (كالجنس اليهودي). لماذا؟ لأنه لو حدث ذلك فالجهود التي بذلَتها على مدى مئات وآلاف السنين لتأسيس مرحلة تطورية أعلى ستذهب أدراج الرياح.[١١]

والنقطة المفيدة في استخدام هتلر للانتخاب الطبيعي أن داروين نفسه توقع هذه العواقب والتداعيات لنظريته. فقد قال في تعليقه على الحرب الأهلية في أمريكا: "على المدى البعيد ستجني القضية البشرية الثمار الوفيرة لمقتل مليون نفس".[١٢] وأضاف في سياق آخر قائلاً: "عندما أتخيل العالم في المستقبل القريب أرى أن الأجناس الأكثر تحضرًا في العالم أجمع ستكون قد قضت على عدد لانهائي من الأجناس الأدنى".[١٣]

إن كان الإلحاد يكتسب الدعم اللازم لبقائه من فكر التطور الإلحادي، إذَن لا يمكنه أن يحجز مد الأمواج العاتية للتداعيات الفلسفية لهذا الفكر. ولابد ألا يغيب هذا عن ذهننا. وإن كان أغسطينوس قد حذر من الحكم على فلسفة بناءً على إساءة

استخدام البعض لها، فنظرية سيادة القوي على الضعيف ليست إساءة استخدام الانتخاب الطبيعي، بل إنها جوهر الانتخاب الطبيعي. ولكن هتلر كشف الإلحاد عن غير قصد وجره إلى عواقبه المنطقية التي كان يتجه نحوها على أي حال ولكن في تردد. فتعرية الناس الذي تم في معسكرات الاعتقال النازية بكل ما تحمله الكلمة من معنى جلب النتائج المنطقية للقضاء على فكرة الله والإطاحة بالقانون الأخلاقي.

وبينما كان هتلر يتعقب "أدنياء" العالم دون هوادة ويقود الأمة ذات أعلى المستويات التعليمية آنذاك، بدأ "چوزيف ستالين" Josef Stalin (الذي وصفه "مالكوم مجريدچ" قائلاً: ''ذلك اللص القاتل القادم من چورچيا عضو الكرِملين'') إبادة "الأدنياء" من غير المتعلمين. إن ستالين الذي كان يدرس ليصبح كاهنًا وجد أن القوة الأخلاقية ليست مؤذية مقارنة بالقوة الوحشية. ولذلك عيَّنه لينين Lenin للقضاء على المعتقدات المعادية للثورة، وكان من أسباب اختياره له كراهيته لله ولكل ما هو ديني. وتُظهر تقديرات المؤرخين الروس حاليًا أن أعداد القتلى وصلت إلى ١٥ مليون نسمة. وقد علق أحد المؤرخين على ذلك بالقول إن هتلر أغوى ألمانيا، وستالين اغتصب روسيا، مدفوعين كليهما بفلسفة إلحادية.

عندما تصل نسبية الأخلاق إلى قمتها ستكون قد حولت البشر إلى كائنات تافهة وجعلتنا إحصائيات يسهل الاستغناء عنها بعد استخدامها لتنفيذ الخطة الأيديولوجية للأقلية التي تمثل السوبرمان. وإن كان أحد يظن أن هذا الطرح أبعد ما يكون عن الإلحاد، دعوني أذكركم أن "نيتشه" هو مَن قال إنه بما أن الله مات في القرن التاسع عشر، سيصبح القرن العشرين أكثر القرون دموية في التاريخ. إن الاستهانة بقدسية الحياة ونتيجتها الطبيعية من تقييم الحياة حسب جودتها شكلت جزءًا كبيرًا من الركيزة الميتافيزيقية للرايخ الثالث. وهكذا كان لابد من القضاء على "الأدنى"، أما "الأرقى" هو من يحدد المصير، والسوبرمان هو المسيطر بقوته وإرادته.

ومما يثير السخرية في محاكمات "نورمبرج" Nuremberg أنه من أقوى الحجج التي قُدمَت للدفاع عن القضاة المتهمين هي أنهم كانوا يعملون وفقًا لقانون بلادهم. وقد طُرح سؤال مضاد لهذه الحجة، وهو سؤال مشروع: ''ولكن أليس من قانون أعلى من قوانيننا؟'' كان يُفترض أن تكون إجابة "نيتشه": "لا". إن العقل البشري

المجرد غير المؤسَّس على مسبب إلهي أولي يجعل من البقاء الخُلُق الوحيد، ولا يجيب أبدًا عن أسئلة متى، ولماذا، ومَن.

ولكني لابد أن أوضح نقطة هامة حتى لا يساء فهمي. ليس كل الملحدين لاأخلاقيين، ولكن الأخلاق باعتبارها الصلاح لا يمكن تبريرها بالمقتضيات الإلحادية. فيمكن أن يكون للملحد عقلية أخلاقية، ولكن كل ما في الأمر أنه بالصدفة يعيش حياة أفضل من عقيدته بشأن الطبيعة البشرية وما تستلزمه. فقد تكون عنده قيم أخلاقية شخصية، ولكن يستحيل أن يكون لديه أي شعور بالإلزام والالتزام الأخلاقي العام. لأن الواجب الأخلاقي لا يمكن أن يعمل منطقيًا في غياب القانون الأخلاقي، وليس من قانون أخلاقي في عالم لاأخلاقي.

ليس كل الملحدين لاأخلاقيين، ولكن الأخلاق باعتبارها الصلاح لا يمكن تبريرها بالمقتضيات الإلحادية.

وأضيف أيضًا، لئلا يقال إن الإلحاد ليس الفلسفة الوحيدة التي أدت إلى الحروب، وإن الصليبيين تسببوا في الكثير من العنف باسم المسيح، وإجابتي مباشرة. فما ارتكبه الصليبيون من جرائم قتل باسم المسيح لنشر عقيدتهم يتعارض كليةً مع رسالة الإنجيل وأسلوبه. في حين أن الساسة الذين حكموا في ظل فكر "نيتشه" وفكر "سارتر" كان سلوكهم في تمام الانسجام مع هذه الأيديولوجية، بل كان في بعض الحالات طوعًا لأحكامها.

علاوة على ذلك، سنخدع أنفسنا لو استنتجنا خطأً أن عنف فلسفة الإلحاد لم يؤثر علينا بعد. والاعتقاد بأن هذا التأثير بعيد عنا يفترض أن عواقب هذه الأفكار التي تبناها هؤلاء المفكرون لم تؤثر إلا على مناطقَ جغرافية نائية أو على حالات استثنائية مثل الرايخ الثالث. ولكنَّ المفكرين الذين أبعدوا الله من فلسفاتهم لم يكتفوا بالتأثير على هذا المحيط البعيد، فأفكارهم لها وزن لا يستهان به في عمليات صنع القرار على أعلى المستويات في بلادنا، وهم يزرعون في جسد مجتمعنا عصب قيمهم وأنسجتها في كل من القانون والتعليم. والتأثير النهائي لمعتقداتهم خطير وكبير.

وقوانين البلاد أصبحت اليوم تتشكل على أيدي الكثيرين ممن ينكرون قانون

الله الأخلاقي. حتى إننا نجد أنفسنا غارقين في مجادلات تجر علينا عواقب جسيمة ونحاول أن نجريها على أرضية مشتركة بعد أن أصبحنا نعيش في ظل وهم الحيادية، كما قال الفيلسوف الإنجليزي "تشسترتون":

> لأنه تحت سطح المشروعية الأملس في مجتمعنا تموج أمور غير قانونية بالمرة. وهكذا أصبحنا مهددين بالانهيار كل لحظة، إذ لا نهتم إلا بما هو مشروع، ولا نعبأ نهائيًا بما هو قانوني. وما لم نتبع قانونًا أخلاقيًا في المسائل الحساسة مثل الزواج والقتل، سيتحول العالم كله إلى حالة من الفوضى العارمة التي تعج بالاستثناءات وتخلو من القواعد. وسوف تواجهنا العديد من القضايا العسيرة التي سنتهاون فيها ونتعامل معها على أنها أمور بسيطة.[١٤]

كُتبَت هذه الكلمات منذ أكثر من نصف قرن، والآن في هذا المدى الزمني القصير، أصبح تعليق "روبرت فيتش" Robert Fitch أستاذ العلوم السياسية ينطبق على واقعنا بشكل مؤلم:

> إننا نعيش في عصر أصبحت فيه الأخلاق نسيًا منسيًا. فقد حل العِلم محلها، وأبطلتها الفلسفة، ورفضها علم النفس باعتبارها عنصرًا عاطفيًا. واختُزلَت إلى عواطف الشفقة، وتبخرت فتحولت إلى مجرد جماليات، وتقهقرت أمام النسبية. وما اعتدناه من تمييز أخلاقي بين الخير والشر استحال إلى عواطف تثير البكاء تدفعنا للتعاطف مع القاتل أكثر مما نتعاطف مع المقتول، ومع الزاني أكثر ممن وقعت عليه الخيانة، وبدأنا نؤمن بالفعل أن المذنب الحقيقي الذي تسبب في المشكلة بأكملها هو الضحية وليس مرتكب الجريمة.[١٥]

ولابد أن أؤكد مجددًا أن الزمن أظهر ما للأفكار من عواقب. فقد صدر كتاب "ريتشارد ويفر" Richard Weaver "عواقب الأفكار" Ideas Have Consequences قبل الكتاب المشهور "إغلاق العقل الأمريكي" The Closing of the American Mind لمؤلفه "آلن بلوم" Alan Bloom (وهو أيضًا من جامعة شيكاغو University of Chicago) بأربعين عامًا. وقد قدم كتاب "ويفر" الخلفية النبوية للصورة التي

رسمها "بلوم" للمتشكك مغلق العقل في عصر ما بعد الحداثة. لقد أحدثت الأفكار تأثيرات في قلب مجتمعاتنا على نحو يفوق إدراكنا.

إن أفكار الصفوة المثقفين الملحدين شكلت هذا القرن بشكل لا يمكن إنكاره. وكم كان "چورچ ويل" George Will كاتب العمود في مجلة "نيوزويك" Newsweek محقًا عندما قال إنه ليس هناك شيء بذيء في الخبرة البشرية إلا ويمكننا أن نجد له مبررًا لدى أحد الأساتذة الجامعيين. والدرس واضح: إنه امتياز عظيم أن تكون من المفكرين المثقفين، ولكن الخطورة أن تكون من المفكرين المثقفين بدون الله. وقد عبَّرَت فرقة "الروك" الغنائية "كينج كريمزون" King Crimson عن ذلك خير تعبير منذ سنوات عندما وصفت المعرفة في إحدى أغانيها بأنها "صديق مميت في غياب القواعد".

تأثير عديم القيمة:

لم تكن حجج المفكرين هي المصدر الوحيد لِما أتى على المجتمع من تأثير سلبي. ولكن المؤثر الأقوى كان أسلوب حياتهم وحياة قادة التيارات الفكرية الذي أضفى مزيدًا من القبول على فكرة القيم الشخصية، أي اختلاف القيم من فرد لآخر. ومصطلح "القيم" هو أحد المصطلحات النيتشاوية التي أبرزها "نيتشه" لأن الأخلاق لم يعد لها سوق. وقد كان "آلن بلوم" موفقًا في تتبعه لكلمة "قيم" من "ماكس وبر" إلى "نيتشه". إن حياة المفكرين غالبًا ما تستعصى على التفسير، فقد غزى الإسكندر الأكبر العالم ولكنه لم يتمكن من التغلب على إدمانه للكحول.

وقد أثار "پول چونسون" قضية أسلوب الحياة هذه مرارًا وتكرارًا في كتابه الشهير "المفكرون" Intellectuals. وعناوين الفصول وحدها تسلط ضوءًا كاشفًا على أنواع الولع والرغبات العميقة الملتهبة غير المروضة التي تعتمل في نفوس الكثيرين ممن شكلوا المجتمع. ومن أكثر الأوصاف التي تكسر القلب مما عرضه في الكتاب هو آخر فقرة في معالجته لنموذج حياة "چان پول سارتر" حيث اقتبس مادته المؤلمة من "سيمون دي بوڤوار" وكتابها "إلى اللقاء: وداعًا سارتر" Adieux: A Farewell to Sartre. فقد صدمها أسلوب حياته في نهاية أيامه حتى إنها صورت

السنوات التي قضتها معه بمفردات قاسية في وصفها لكثرة علاقاته الجنسية المنفلتة، وتسيبه، وإسرافه في الشراب. وقد افتقرت حياته لأي نوع من الاتساق أو الوحدة تمامًا مثل حياة "برتراند رَسِل". ويختم "چونسون" ذلك الفصل (بعنوان "چان پول سارتر: "كرة تافهة صغيرة من الفراء والحبر" Jean-Paul Sartre: 'A Little Ball of Fur and Ink' ") قائلاً:

> أكثر من ٥٠ ألف شخص، معظمهم من الشباب تبعوا جثمانه إلى "مقابر مونپارناس" Montparnasse Cemetery. وبعضهم تسلقوا الأشجار حتى يروا الجثمان بوضوح. وأحدهم ركض حتى سقط على الصندوق نفسه. ولكن لماذا أتوا لتكريم المتوفى؟ أي عقيدة وأي حق منير بشأن البشرية كانوا يحاولون أن يؤكدوا بحضورهم بهذه الأعداد الغفيرة؟ سؤال جدير بالطرح.[١٦]

لقد لخص "چونسون" في هذا التعليق الموجز حياة شخص. ولكن أهم تحفظ على هذا النوع من المفكرين يذكره "چونسون" على نحو مثير جدًا في آخر فصول الكتاب بعنوان "هروب العقل" "The Flight of Reason". إلا أن البعض سيرفضون الانتباه لتحذيره، ولكن إهمال هذا التحذير سيجعل التاريخ يعيد أخطاءه.

> من الدروس الأساسية التي نتعلمها من هذا القرن المأساوي الذي شهد التضحية بحياة ملايين الأبرياء في خطط تهدف لتحسين حظ البشرية، هو أن نحترس من المفكرين ... لأن المفكرين أبعد ما يكونون عن الفردانية وعدم الانصياع للعرف والتقليد، بل إنهم يتبعون نماذج سلوكية بعينها. وإذا نظرنا إليهم باعتبارهم مجموعة واحدة غالبًا ما نجدهم شديدي الانصياع للأطر التي رسمها أولئك الذين يبتغي المفكرون رضاهم ويقدرونه ... [مما يمكنهم] من خلق أجواء للآراء والمعتقدات الثابتة الصارمة التي غالبًا ما تُوَلد مسارات سلوكية متهورة ومدمرة. إلا أن الأهم من ذلك كله، أنه علينا أن نتذكر باستمرار ما اعتاد المفكرون على نسيانه: البشر أهم من المفاهيم ولابد أن تكون لهم الأولوية. إن أسوأ أنواع الحكم المطلق الغاشم هو حكم طغيان الأفكار المجرد من الرحمة.[١٧]



في عصر ما بعد الحداثة الذي نعيش فيه ليس للقيم أي ضابط خارجي، بل أصبحت القيم تتوقف كلية على ما يريد الفرد أن يبثه فيها. وأصبح الشخص العادي يتبع ذوي المراكز الرفيعة بما يعيشون من حياة منحرفة لأن تأثيرهم الفكري عليه أعطاه المبرر الأكاديمي والعملي لهذا النوع من الحياة. وهذه القيم الجديدة التي أفرغَت في وسط زاوج بين الاتجاه للتصنيع industrlization والامتداد الحضري urbanization من جهة والنزعة الاستهلاكية consumerism ومذهب المتعة hedonism من جهة أخرى جرَّدت الوضع البشري من الأخلاق على نحو لم يحلم به أي أبيقوري.× لقد كانت المصادر الفكرية بالنسبة للكثيرين هي العاصمة الأكاديمية التي ساعدتهم على الانفلات من محاذير جنة عدن وإهلاك أنفسهم. وعندما بهرتهم أضواء المدينة تمنوا الحصول على كل شيء ما عدا الأخلاق.

وما كان أحد يتصور فيما مضى ما يمكن أن يتمخض عنه هذا الوضع من نتائجَ كارثية في مسائل تتعلق بالحياة والموت. فانتشار شعار "موت الله" كان كالمحلول الذي ذابت فيه مادة الأخلاق التي كانت تحفظ حياة العالم. ولكن كما هو الحال مع غيره من هذه الشعارات، تبقى المشكلة الكبرى هي كيف وأين نحتويه، والفلاسفة الملحدون لا يملكون الإجابة. وقد كتب شكسبير منذ قرون عن الدمار الذي نتج عن محو الصواب والخطأ:

الصواب والخطأ
وهما اللذان يحول العدل بين صراعهما السرمدي.
يجب أن يفقدا اسميهما وهكذا يفقد العدل اسمه أيضًا.
وإذا كل شيء ينتهي بنفسه إلى السلطة،
والسلطة إلى إرادة، والإرادة إلى شهوة.
أما الشهوة فذئب منتشر في العالم،
يظاهره نصير مزدوج من الإرادة والسلطة
والعالم أصبح حتمًا فريسة له،

× من يؤمن بالفلسفة الأبيقورية التي تقوم على أن اللذة، وخاصة اللذة العقلية هي الخير الأسمى. (المترجمة)

ثم ينتهي أمره هو بأن يلتهم نفسه.[١٨]

ذكر "برتراند رَسِل" عبارة كاشفة جدًا في مقدمة سيرته الذاتية سنة ١٩٧٠. فقد قال إن حياته كانت محكومة بولع ثلاثي: الاشتياق للحب، والبحث عن المعرفة، وشعور مضنٍ بالألم تجاه معاناة الجنس البشري. وربما يمكنني أن أضيف أنه ما كان يمكنه أن يُشبع أي جانب من هذا الولع دون أساس أخلاقي.

عندما يرفض الفلاسفة الاعتراف بالقانون الأخلاقي، فإنهم يقطعون عصب الحياة. ولَمَّا كانوا قد قضوا على هذه الإمكانية عندما "قتلوا الله"، فقد بذلوا جهودًا مضنية ليعيشوا عواقب أفكارهم. وانتهى بهم الحال كالرسم الذي نشرَته مجلة "نيوزويك" سنة ١٩٧٤ لرجل في شجرة التطور معلق في الفضاء دون أي شيء يستند عليه. وما زالوا يحاولون، على المستوى الأخلاقي، أن يبنوا إنسانًا من سن خنزير منقرض.

إن الإجابات التي يبحث عنها أي مجتمع لا توجد إلا في نظام أخلاقي منطقي وعملي وذي معنى. وأقول بكل صراحة إن الأخلاق التي يُعَلم بها الإلحاد ويتضمنها ويتبناها لا يمكن العيش بمقتضاها. وقد أوجز أحد المعلمين المحدثين الطريق المسدود الذي قادنا إليه الإلحاد في تعليق مناسب وإن كان مخففًا. إذ قال "ج. پ. سترن" J. P. Stern أستاذ الألمانية في جامعة لندن University of London إجابةً على سؤال بشأن الإجابات الإيجابية التي يمكن أن يقدمها "نيتشه" لحياة تخلو من الله:

> أخشى أن الإجابات عن ذلك السؤال من فلسفة "نيتشه" غير مُرضية بالمرة. فتناوله للأسئلة الاجتماعية في مجمله لا يصل للعمق. ... واقتراحات "نيتشه" تجعل عيش الناس معًا في تناغم أمرًا شديد الصعوبة. ... ومن ثم، يمكننا أن نقول إن بعض التعاليم السياسية الصادمة في عصرنا وبعض السياسات الفاشية التي ظهرت في بدايات هذا القرن تقوم نوعًا ما على فكرة أنه على المرء أن يُكون قِيَمه بنفسه ويعيش وفقًا لها بصرف النظر عن عواقبها، وهذا باعتراف المفكرين في كل الأحوال. وهكذا لم تفدنا هذه النظرة فائدة حقيقية كما ترى.[١٩]



أقول بكل صراحة إن الأخلاق التي يُعلم بها الإلحاد ويتضمنها ويتبناها لا يمكن العيش بمقتضاها.

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- اشرح حجة "نيتشه" التي تقول: "عندما يرفض المرء الإيمان المسيحي، فهو ينكر على نفسه الحق في الأخلاقيات المسيحية". (انظر الاقتباس كاملاً ص ٥٧). هل لاحظت في خبرتك الشخصية أن بعض من يزعمون عدم وجود معيار أخلاقي يستندون هم أنفسهم إلى الأخلاق في حججهم؟ كيف تَرُد عليهم؟

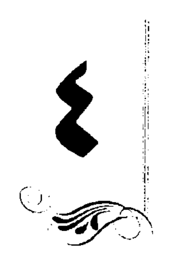
٢- يبين الكاتب أنه "لم يبقَ للأخلاق أي أساس منطقي تقوم عليه. فقد نجح الهدامون في تقويضه تدريجيًا وعلى نحو فعال" استنادًا على حجة "ألاسدير ماكينتاير" ومَثل "نيتشه" المعروف باسم "المجنون". ناقش هذا الاستنتاج الذي خلص إليه الكاتب.

٣- ناقش الفكرة القائلة بأنه أيًا كانت الفلسفة العلمانية التي ينتمي إليها المرء فهي "مازالت ... عاجزة عن إجابة أسئلة من قبيل: لماذا يجب أن نكون أخلاقيين؟ ومن الذي يحدد الأخلاق؟"

٤- يقول الكاتب: "ليس كل الملحدين لاأخلاقيين، ولكن الأخلاق باعتبارها الصلاح لا يمكن تبريرها بالمقتضيات الإلحادية. فيمكن أن يكون للملحد عقلية أخلاقية، ولكن كل ما في الأمر أنه بالصدفة يعيش حياة أفضل من عقيدته بشأن الطبيعة البشرية وما تستلزمه". كيف يعكسُ ذلك الانفصال بين قلوبنا وعقولنا؟ وهل ترى أمثلة على هذا الانفصال في حياتك الشخصية؟

٥- اشرح ما تعنيه عبارة: "الأخلاق التي يُعَلم بها الإلحاد ويتضمنها ويتبناها لا يمكن العيش بمقتضاها". هل تتفق أم تختلف مع هذا الرأي؟

٤



سيزيف والمستحيل

للشباب الحرية في غزو العالم، وهم لا يريدون ذلك.
والرخاء المادي لم يعطِ الحياة معنى. والتعطش
للحب وللمعنى الحقيقي هو السبب في اندلاع ثورة
المخدرات.

"آلن كوهين" Allen Cohen

سطر "ماثيو آرنولد" Matthew Arnold قصيدته "شاطئ دوفر" "Dover Beach" سنة ١٨٥١ حيث وصف هدوء البحر وانتظام إيقاع أمواجه وهي تروح جيئة وذهابًا. وما بعثه في نفسه من حزن عميق دفع أفكاره نحو ما حدث من تراجع مأساوي للأمور الروحية في وطنه انجلترا. فقد كان إيمانها قويًا، إلا أنه بدأ يضعف في أيامه، وقصفت عواصف الشك بما كان من هدوء. وقد عبَّر في المقطع الثالث من قصيدته عن هذه الأفكار التي أشقته.

بحرُ الإيمانِ كان أيضاً
طافحاً ذاتَ يومٍ ، يلفُّ شاطئَ الأرضِ
كَطَيّاتِ زنّارٍ وضّاء.
لكنني لا أسمعُ الآنَ
غيرَ هديرِهِ المتراجعِ ، الكئيبِ ، الطويل
تجرجرُهُ أنفاسُ العواصفِ الليليةِ
لترميهِ ، هناكَ عند التخومِ الفسيحةِ القَصيّةِ

وحصباءِ الأرضِ العارية×

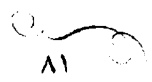
وقد أخذ "دون كيوپت" Don Cupitt عميد كلية "إيمانيول كوليچ" Emmanuel College في جامعة كامبريدچ وهو قس مرسوم، معاني المقطع الثالث من هذه القصيدة ولاسيما شطرها الأول وقدم مجموعة حلقات تليفزيونية قوية على قناة "بي بي سي" BBC بعنوان "بحر الإيمان" The Sea of Faith. ثم وسَّع "كيوپت" مادته ووضعها في كتاب تحت العنوان نفسه موجهًا ضربة عنيفة دون حياء ضد الإيمان المسيحي التقليدي. وقد اتخذ أبيات المقطع الثالث من قصيدة "آرنولد" نقطة انطلاق له محاولاً تسديد طعنات قاتلة للمسيحية الأولى المبنية على تعليم الكتاب المقدس وحده والإيمان التقليدي بوجود الله. وبعد حديثه الفصيح عن "مهاجمة الله" بنى منظومته العقائدية التي أطلق عليها أحد النقاد بحق "إيمان في البحر".

وإني أذكر العنوان والدور الذي لعبته القصيدة في إلهام "كيوپت" لتأليف كتابه لأشير إلى شيء استرعى انتباهي. فقد حذف "كيوپت" المقطع الرابع من قصيدة "آرنولد". ولا يصعب علينا أن ندرك سبب تجاهله لهذا المقطع، ألا وهو أنه مضاد لأطروحته الأساسية. فهو يحاول أن يؤسس حياة لها معنى في عالم بلا إله، وهو احتمال شجبه "آرنولد" بكل صراحة ووضوح في المقطع الرابع.

آهٍ حبيبتي، لِنَصْدُقِ القولَ بيننا!
فالعالَمُ الذي ينبسطُ أمامنا
مثلَ أرضٍ للأحلامِ: جديداً، جميلاً، متلونًا
لا يملكُ في الحقِّ: لا الحُبَّ، لا الفرحةَ، لا الضياءَ
لا اليقينَ، لا السلامَ، لا شفاءً من الآلامِ.
وها نحنُ هنا، كأننا فوقَ سهلٍ يغرقُ في الظلامِ
تجرُفُهُ صرخاتُ ذعرٍ حائرةٌ

× ترجمة ماجد الحيدر الحوار المتمدن-العدد: ٣٨٢٠- ١٥/ ٨/ ٢٠١٢.

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=320064



من كَرٍّ وفَرٍّ

إذ تلتحمُ في دجى الليل ... جيوشٌ من الجاهلين×!

فلا شك أن "آرنولد" يرى (كما نعرف من كتاباته الأخرى) أن فقدان الله صحبه فقدان الفرح والحب والنور والسلام واليقين وشفاء الآلام. وهكذا نجد أنفسنا متروكين على "سهل يغرق في الظلام".

إلا أن"كيوپت" معذور في هذا التعامي المقصود. فهو يسير على خطى الآخرين الذين أرادوا مثله الاستغناء عن الله ولكنهم رفضوا مواجهة العواقب المشروعة لذلك، ألا وهي فقدان المعنى. ولكن "نيتشه" جدير بالاحترام لأنه كان صادقًا وصريحًا في مواجهة هذه العاقبة، ولم يتلاعب بالألفاظ مستخدمًا حججًا مجردة مشحونة بالملاحظات والتفسيرات لينكر أمرًا واضحًا كالشمس. فاللهث وراء المعنى وسط شعور عميق بالاغتراب هو نتيجة حتمية للنظرة الإلحادية. وهكذا يؤدي فقدان الخالق ورفض القانون الأخلاقي إلى العائق الثالث الذي يواجه الإلحاد، وهو البحث عن المعنى. وحياة الملايين تشهد عن فشل هذا المسعى.

ومن عاشوا في ستينات القرن العشرين يذكرون سلسلة المؤتمرات التي عُقِدَت آنذاك تحت عنوان "من أنا؟" "Who Am I?" وإنه يبدو غريبًا أن الكلاب والقطط لا يتساءلون أبدًا عن الهوية الكلابية أو القططية. فالبشر فقط هم مَن يطرحون هذا السؤال، ويُفترض أنهم أكثر الكائنات إدراكًا.

يؤدي فقدان الخالق ورفض القانون الأخلاقي إلى العائق الثالث الذي يواجه الإلحاد، وهو البحث عن المعنى.

إلا أن ما يثير السخرية في هذه الفكرة أن الكثير من معاناة الإنسان ناتج عن عظمته وسموه باعتباره أرقى المخلوقات. والبشر مرضى بداء التساؤل عديم الشفاء. وحتى عندما نجد إجابات لأسئلتنا الثانوية، ولا نجد إجابات للأسئلة الجوهرية نظل

× ترجمة ماجد الحيدر الحوار المتمدن-العدد: ٣٨٢٠- ١٥ / ٨/ ٢٠١٢.

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=320064

في حالة بحث مستمرة لنملأ فراغنا الداخلي حتى يصبح البحث تدريجيًا غاية في حد ذاته.

في إحدى محاضراتي عن موضوع "بحث الإنسان عن المعنى" وقف أحد الطلاب وصاح قائلاً: "كل شيء في الحياة بلا معنى". فأكدتُ له بكل إصرار أنه ليس معقولاً أن يعتقد في هذه الفكرة، ولكنه أكد بنفس الحِدة والإصرار أن هذا هو ما يؤمن به، وهكذا استمر الحال بيننا برهة. وحيث إني لم أرِد أن أُزيد من إحباط الشاب وكنت أود أن أخرج من الجامعة بسلام، قررت أن أغلق النقاش. فسألته عما إذا كانت جملته لها معنى. وعندها ساد صمت رهيب، ثم أجاب مترددًا: "نعم". فأضفت قائلاً إنه إن كان لزعمه معنى، فلا يمكن أن يكون كل ما في الحياة بلا معنى. وإن كان كل شيء فعلاً بلا معنى، يصبح زعمه أيضًا بلا معنى. ومن ثم، لم يُجب بشيء.

ورغم أني خاطرت بأني قد أبدو سطحيًا في التعامل مع المسألة، وكنت واعيًا في الوقت ذاته بما يقصده، فقد أظهر الحوار استحالة الهروب من هذا الداء، ألا وهو التعبير عن اللامعنى بطريقة لها معنى.

يروي لنا الكتاب المقدس قصة رجل وجَّه قلبه وعقله بكل اجتهاد وإصرار لدراسة بطلان الوجود. وأكثر ما يسترعي انتباهي في القصة أن هذا الرجل تَوَفَّر له من المعرفة والشهرة والممتلكات والأموال ما يفوقُ كل معاصريه. ومع ذلك يفتتح سليمان سفر الجامعة بالعبارة المشهورة: "بَاطل الأباطيل الكل بَاطل". أو "لا معنى، لا معنى، الكل بلا معنى". ولكن البعض لم يتتبع فكره حتى نهاية السفر. فقد ذكر سليمان هذه الملاحظة عن الحياة انطلاقًا من دراسة ومن خبرة شخصية، وعليه نجد شعوره بالفراغ موضوعًا متكررًا في السفر. وقد وصف كل ما سلك من سبل، وما حقق من إنجازات في طريق الحكمة، واللذة، والعمل، والمكاسب المادية، والكثير غير ذلك. ولكنه وصل إلى أزمة فلسفية تشبه أزمة منتصف العمر، ولخصها في هذه الكلمات الواردة في جامعة ٢: ١٠، ١١

ومهما اشتهته عيناي لم أمسكه عنهما. لم أمنع قلبي من كلّ فرحٍ لأنّ

قلبي فرح بكلّ تعبي. وهذا كان نصيبي من كلّ تعبي. ثمّ التفتّ أنا إلى كلّ
أعمالي الّتي عملتها يداي وإلى التّعب الّذي تعبته في عمله فإذا الكلّ باطلٌ
وقبض الرّيح ولا منفعة تحت الشّمس!

بعد أن جرَّب سليمان كل ما توصل إليه عقله وطالته ثروته، اكتشف أن السعي البشري كله يدور في حركة دائرية رتيبة وينتهي بالموت.

التكرار الرتيب:

ولم يكن سليمان طبعًا الشخص الوحيد الذي عبَّر عن شعور الإنسان بأنه منفصل عن الغرض النهائي الأسمى للحياة. فمن أشهر قصص الميثولوجيا اليونانية أسطورة سيزيف الذي لعنته الآلهة لأنه خان الرتب السماوية بكشف أسرار إلهية للبشر الزائلين، فحكموا عليه بأن يدحرج حجرًا ضخمًا إلى قمة أحد التلال، ويراه وهو يتدحرج لأسفل ثانية، ويستمر في تكرار هذا التمرين إلى ما لا نهاية. وكان الجحيم بالنسبة له أن يؤدي عملاً بلا معنى لا يُسفر عن أي شيء سوى تكرار بلا طائل يضاعف من شعوره بالفراغ. وما كان يمكنه التكفير عن الخطية التي ارتكبها في حق الآلهة وجرَّت عليه هذا المصير الملعون بخطوة واحدة ولا ألف ولا حتى عشرة آلاف. فلم يكن بيده أي شيء يفعله لينقذ نفسه من هذا العدم. وتعبر إحدى القصائد الحديثة عن هذه الفكرة:

دب لطيف عجوز في حديقة الحيوان
ليس لديه أي عمل كان
فإنْ هاجمه الملل كالطغيان
يسير جيئة وذهابًا
ثم يعكسها ويسير ذهابًا وجيئة كالحيران

أما سيزيف المسكين لم يكن حتى بإمكانه أن يعكس الاتجاه ولو لبرهة. وقد طُرِحَت كل الاقتراحات العبقرية لحل مشكلته بدءًا من تغيير نظرته الداخلية ("أن

تتغير طبيعة سيزيف من الداخل بحيث يستمتع بدحرجة الأحجار") وانتهاءً بتغيير منظوره الخارجي ("أن يدحرجَ كل مرة حجرًا مختلفًا، وقد يتمكن في النهاية من تشييد مبنى جميل"). إن معظم البشر يدركون محنة سيزيف وقد اختبروا معاناته. فلا تكرار نشاط واحد بعينه، ولا الانغماس في أنشطة متنوعة أعفى البشرية من الشعور بالرتابة. والحقيقة أن الوصول لهذه النتيجة لا يستلزم قراءة الأساطير الإغريقية، ولا يعني أننا ننظر للحياة بمنظار أسود. فهي حالة عامة تشمل كل الثقافات والأعمار. فحتى الأطفال يرددون هذا الموضوع في أناشيد الحضانة:

دوق يورك العجوز العظيم

كان عنده عشرة آلاف جندي

كان يجعلهم يصعدون إلى قمة التل

ثم يهبطون إلى سفحه ثانية

وعندما يكونون في الأعلى يكونون في الأعلى

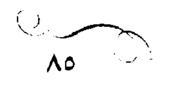
وعندما يكونون في الأسفل يكونون في الأسفل

وعندما يكونون في منتصف الطريق

لا يكونون أعلى ولا يكونون أسفل

ولولا لحن هذا النشيد، لـما كانت المعلومات التي يقدمها تثير أي عقل، وهذا هو الحال في نشاط سيزيف أيضًا. فالتكرار العقيم في الحالتين ينشيء شعورًا بانعدام الجدوى حتى في مفهوم الأطفال البسيط.

إلا أن صراع سليمان يمضي بنا خطوة أبعد من محنة سيزيف. فسليمان يعكس مفهومًا أعمق يثير مزيدًا من الحزن والأسى ويعبر عنه تعبيرًا يدل على تفكير تأملي عميق. فحتى هذا الرجل الذي يحق له أن يفخر بما حاز من قدرات فكرية وخيالية يحسده عليها الكثيرون، الذي حكم أبهى بلاط ملكي في عصره، لم يفلت من الشعور بانعدام القيمة. فتنوع النشاط والموارد التي لا حصر لها التي كانت رهن إشارته ظلت تجلب نوعًا من الرتابة التي أشقت أعظم العقول.



ولكن هذه النقطة الجوهرية تفوت الفلاسفة الذين يحاولون إيجاد مهرب للمتشكك بأن يقولوا إنه لا معنى لطرح أسئلة عن معنى الحياة. فقد حاول الإنسان عبر العصور أن يسبر غور هذا السؤال، ولم يتمكن أبدًا من الهروب من تداعياته. فأرسطو حاول أن يتناول هذا السؤال بدراسة طبيعة الإنسان. والفيلسوف "چان چاك روسو" Jean Jacques Rousseau قال إن هذه المحنة نتجت عن الرغبات المحمومة الاصطناعية التي نشأت عما حدث داخلنا من تغيرات وجدانية عندما ابتعدنا عن الطبيعة. وهكذا تنوعت التشخصيات.

هذه النقطة الجوهرية تفوت الفلاسفة الذين يحاولون إيجاد مهرب للمتشكك بأن يقولوا إنه لا معنى لطرح أسئلة عن معنى الحياة.

واللورد "بايرون" Lord Byron الذي عاش ومات مرتبكًا مضطربًا جسَّد روح العالم عندما تغيب منه القيم. ولخص حياته في المقطع الثاني من قصيدة قصيرة كتبها في عيد ميلاده السادس والثلاثين قبل وفاته بثلاثة أشهر.

دخلت شجرة عمري خريفها

وذبلت زهور المحبة وثمارها

وأصبحت الديدان والآفات والأحزان

من نصيب هذا الكيان

إن مشكلة اللامعنى بما لها من حدة وانتشار زجت بأفضل الشعراء إلى عملية من المزايدة. وأثارت أقوى الحجج الفلسفية. ومن ثم، لا يمكن في حدود هذا الكتاب أن نناقش كل المدارس الفكرية الممثّلة في هذا المضمار. ولكننا سنفحص الفكر الأكثر شيوعًا والذي يحظى بأكبر قدر من التأييد.

فالفكرة التي ذكرناها فيما سبق عن تغيير سيزيف لموقفه من دحرجة الحجر لا تلقى استجابة مرغوبة في هذا المجال لأنها تُغفل تمامًا النقطة الجوهرية في السؤال الذي ينطوي على شقين أساسيين. أولهما أنه إن كان المذهب الطبيعي هو كل ما

نملك، أفلا تصبح الحياة نفسها نوعًا من سخرية الأقدار وتصير قابلة لكل التفسيرات بما في ذلك التفسير الذي يقول باللامعنى؟ فلماذا إذَن نحاول أن نتنكر لهذا التفسير رغم مشروعيته، وما الفائدة من تغيير سيزيف لموقفه؟ وإن لم يكن هناك إله، يصبح هذا التفسير هو الأصح من أي تفسير آخر مؤقت.

والشق الثاني أن تغيير سيزيف لموقفه لن يخفف من واقع الأمر، ألا وهو انعدام الهدف، ولن يعيد الإنسان "الذي وُضع في مكان خاطئ" إلى مكانه الصحيح، ولكن كل ما في الأمر أنه يخلق حالة من فقدان الوعي حتى لا يشعر الإنسان بالألم. ولذلك، نرى العديد من النظريات الصادمة التي ظهرت في محاولة لحل هذه المعضلة، وكل منها لا تزيدها إلا تعقيدًا. وتبقى رتابة الحياة وفقدان المعنى مهما حاولنا أن نتجاهلهما. وقد كان الفنانون والشعراء هم أكثر من عبَّروا ببراعة عن انعدام المعنى. كما غنت "چوني ميتشل" Joni Mitchell "إننا أسرى عجلة الزمن ندور معها كمن يدور في دوامة الملاهي".

لقد توصل كل من سيزيف وسليمان للنتيجة ذاتها انطلاقًا من خبرتهما الشخصية: لا تنويع النشاط ولا تغيير موقفنا يعالج الرتابة. فالنشاط لا يخلق المعنى، بل على العكس، المعنى هو ما يخلق النشاط. فإن كانت الحياة في تعبيرها الوجودي ليس لها معنى، فتغيير الموقف الشخصي لا يغير واقع اللامعنى. ولكنه يغير كيفية أداء المرء في عالم خالٍ من المعنى. وهذه هي النقطة التي تناولها "چان پول سارتر" في كتابه "لا مفر" No Exit. فإن كان المركب يغرق، ما الفرق بين الوقوف على السطح وتحية الناس ولعب الدور الأخير في لعبة الورق؟

ولكن سليمان وسيزيف لا يقنعان بمجرد متعة مؤقتة، أو شيء يهدئ مَللهم. إنهما لا يطلبان معنى بحذف جزء من الواقع ولكنهما يبحثان عن قناعة ثابتة توفر لهما أساسًا متينًا يحملهما في رحلة وجودهما ويضفي معنى يشمل حياتهما بأكملها.

إجابة عاجزة:

إن أنجح حجة فلسفية ضد مسألة المعنى تعتمد على الطعن في صلاحية السؤال نفسه. فالبعض يقولون إن طرح سؤال المعنى يسلب الحياة قيمتها. ويقول "كِرت

باير" Kurt Baier ممثل هذه المدرسة الفكرية إن العِلم دائمًا ما ينظر إلى الحياة بنظرة السبب والأثر، وفي هذه الحالة تصبح مصطلحات مثل الغرض والمعنى تعبيراتٍ لا محل لها من وجهة نظر دعاة المذهب الطبيعي. وحتى الآن يُعتبر موقفه مقبولاً، إلا أنه سرعان ما يتضح أن هذه المصطلحات غير مقبولة ليس لأنها خارج نطاق العلم فحسب، بل لأن صاحب المذهب الطبيعي لا يعرف كيف يتعامل معها. ولذلك، يصفها بأنها غير ضرورية. وقد قال "باير" إن سؤال الشخص عن معنى أو غرض حياته يحط من قيمته باختزال كرامته إلى مجرد وسيلة، وليست غاية في حد ذاتها.

ولكن هذه الحجة تناقض نفسها. فكيف يمكن أن تزعم أن شيئًا ما انحطت قيمته ما لم تكن تعرف قيمته الحقيقية من الأساس؟ وكيف تحكم على شيء أنه مزيف وأنت لا تعرف الأصلي؟ إن هذا النهج يضع نفسه في مأزق لأنه دائمًا ما يستخدم كلمات "له غرض" أو "له معنى" ليقيم الحجة ضد الغرض والمعنى باعتبارهما مفهومين لا غنى عنهما في الخبرة البشرية. وهكذا تهدم حجة "باير" نفسها. فيا لها من جرأة غريبة أن يعطي جهود البشر الفردية قيمة في ذاتها، بينما يسلب الأفراد كل قيمة إذ يجعل أصلهم ومصيرهم بلا قيمة. فما يقوله هذا النهج فعليًا هو أن الحياة لها أغراض صغيرة، ولكن ليس لها غرض واحد نهائي، وبذلك يدمر القيمة النهائية ويضع مكانها أشياء مصطنعة.

ولكننا هنا أمام نقطة في غاية الأهمية، ألا وهي أن دعاة المذهب الطبيعي يتعاملون مع هذه القضية بطريقة عكس التي يتعاملون بها مع القانون الثاني في الديناميكا الحرارية. فلعلك تتذكر أيها القارئ العزيز أنه في المحاولات العلمية للتعامل مع مسألة أصل الحياة، تجاهل الطبيعيون القانون الثاني وزعموا أن التدرج البيولوجي يسير في الاتجاه المعاكس لقوانين الفيزياء. فالقانون الفيزيائي يوضح أن الأشياء تتحرك من النظام إلى الفوضى، ولكن التطور يتجه من الفوضى إلى النظام. وكان تبرير العلماء أن ما ينطبق على الكل لا ينطبق على أجزائه، وهكذا فإن أجزاء التطور البيولوجي يمكنها أن تسبح ضد تيار الإنتروپي ككل. ولكنهم الآن في قضية المعنى يقولون إن ما ينطبق على الأجزاء (دحرجة الأحجار، وبناء المعابد . . . إلخ)



له معنى ، ولكنه لا ينطبق على الحياة ككل. فالحياة مرقطة بأغراض صغيرة ولكنها لا تسير نحو هدف نهائي: قيم صغيرة، ولكن ليست هناك قيمة نهائية.

إن خطورة مأزق دعاة المذهب الطبيعي أنهم غالبًا ما يقيدون أنفسهم بأفكار تلغي بعضها بعضًا. وافتراضاتهم تتغير باستمرار بما يتناسب مع مجال النقاش، مما يؤدي إلى تصادم النتائج. وبناء على حجتهم يمكن للمغتصب أن يغتصب ضحيته لأنه لا يرى فيها إلا وسيلة لغاية وهي لا تحمل في ذاتها أي معنى أو قيمة أسمى. وهكذا الحال في جرائم القتل، حيث لا يرى القاتل أن الضحية لها قيمة وكرامة، بل يراها شيئًا يجب إزاحته لتحقيق أغراضه. ومن ثم، فإن السؤال المتعلق بالمعنى الجوهري للحياة والغرض منها أبعد ما يكون عن تقليل قيمة الفرد، وهو لا ينكر الكرامة الإنسانية، بل إن الكرامة لا تقوم بدونه. فماذا فعل دعاة المذهب الطبيعي؟ إنهم في محاولتهم أن يجدوا طريقًا منطقيًا للتعامل مع المشكلة، وقعوا في فخ اللامنطق، وفي محاولتهم لنزع فتيل السؤال، فَجَّروا السائل.

ولطالما نبَّه المفكرون العظماء على مر العصور إلى أن الافتراق عن الله يعري البشر ويقتل المعنى. وإنكار الله وموت المعنى صنوان لا يفترقان، رغم محاولات الفصل بينهما بالتعليم والتعلم والنشاط الزائد للبشر في عصر ما بعد الحداثة. ولكننا كلما نبتعد عن الله، كلما نحط من قيمة الإنسان. وقد أوجز "تي. إس. إليوت" الحائز على جائزة نوبل هذا المعنى على نحو مؤثر:

أين الحياة التي فقدناها في المعيشة؟

أين الحكمة التي فقدناها في المعرفة؟

أين المعرفة التي فقدناها في المعلومات؟

إن دورة الزمن على مر عشرين قرنًا

تبعدنا عن الله وتقربنا من التراب.[1]

لقد أشار "تشسترتون" إلى أن المجنون ليس بالضرورة مَن فقد عقله، بل إنه قد يكون الشخص الذي فقدَ كل شيء ما عدا عقله لأن الحياة أكثر من مجرد معادلات رياضية. حتى إن "سي. إس. لويس" كان سيطلق على مثل هذا الشخص "رجل

بلا صدر" أي بلا قلب. إن بهجة الحب، وجمال الرضيع، وروعة أم ترضع طفلها، وعذوبة الأنغام الرقيقة، كل هذه الأشياء تتجاوز العقل. ومع ذلك فهي تحمل معاني حقيقية في حياتنا. ولكن إن كانت الحياة نفسها بلا معنى، فأي معنى تنطوي عليه هذه الأمور؟ هذا سؤال يتطلب إجابة. وحاجة العقل البشري إلى الإجابة هي التي تلح في طرح السؤال.

كلما نبتعد عن الله، كلما نحط من قيمة الإنسان.

السؤال بَحذر:

يجب ألا نقلل من شأن البحث عن المعنى. فالأمثلة كثيرة على ما يعانيه السائل الجاد من شقاء ذهني مضنٍ. ومن المهم هنا أن نتابع هذا الطرح الذي قدمه الفيلسوف الفرنسي "ڤولتير" Voltaire لأنه سيساعدنا أن نضع أيدينا على لب القضية:

> أنا جزء ضئيل من كلٍّ عظيم. نعم. ولكن كل الكائنات التي تشعر التي وُلِدَت من نفس القانون الذي وُلِدْتُ منه تعاني مثلي وتموت مثلي.
>
> فالنسر يقف ثابتًا على فريسته المرتعبة، ويطعن جناحيها المرتعشين بمنقاره الدموي. ويبدو له الموقف كله جيدًا. ولكن بعد قليل يأتي العُقاب ويمزق النسر إربًا إربًا. و العُقاب يرتعد من سهام الإنسان. والإنسان المنبطح في تراب ساحات المعارك حيث يختلط دمه بدم إخوانه من البشر الذين يهلكون معه، يصبح بدوره مأكلاً للجوارح. فالعالم كله يئن. الكل يولد للعذاب ويقتل بعضه الآخر. وعلى خلفية هذه الفوضى الرهيبة يمكنك أن تقول إن آلام كل عضو على حدة تصنع خير الجميع.
>
> يا لها من روعة! وأنت تصرخ بصوت ملؤه الحسرة والفناء وتقول: "كل شيء جيد". إن الكون لا يشرح لك الحقيقة، وقلبك يفند غرور عقلك مئة مرة. فأي تفسير يمكن للعقل الأعظم أن يقدمه؟ الصمت. إن



كتاب القدر مغلق أمامنا. والإنسان غريب عما يبحث عنه ويسعى إليه.
وهو لا يعلم من أين يأتي ولا إلى أين يذهب، ذرات معذبة في سرير من
الطين يلتهمها الموت، ويا لسخرية الأقدار.

ولكن حزن "ڤولتير" يختلف قليلاً عن حزن سليمان. فبينما أكد سليمان انعدام قيمة الجهود البشرية سواء في العمل أو لتحصيل اللذة، رأى "ڤولتير" انعدام قيمة الوجود نفسه. لأن الموت، ذلك العدو الرئيسي يدمر كل مدمرٍّ على المدى البعيد. وهكذا افترض أن مآسي كل طرف على حدة تشكل خير الجميع، وكأن الحياة كلها قذيفة من الألم والوحشية ترتد على راميها في صورة الانتخاب الطبيعي.

إنه يقدم أعظم نكتة تحمل خبرًا سارًا وخبرًا محزنًا. الخبر المحزن أن هناك حربًا دائرة. أما الخبر السار أن الحانوتية يحتاجون لهذه الحرب لأنها مصدر رزقهم. وقد بذل جهودًا مستميتة في المعركة الضارية التي تدور رحاها بين التفاؤل والتشاؤم. ومن أهم جهوده كتاب "كانديد" Candide الذي يُعتبر أشهر مؤلفاته. وهو عبارة عن قصة رجل يحاول بكل جهده أن يظل متمسكًا بتفاؤله رغم ما يحل به من نكبات الدهر ولطمات القدر من كل صوب.

وبينما يرتحل "كانديد" في الحياة باحثًا عن السعادة يواجه إحباطًا وراء إحباط، ويتعمق شعوره بالكآبة. ثم يرى ذات يوم أحد الرهبان الثياتين Theatine الضحوكين المُسَلِّين يسير في السوق متأبطًا شابة يبدو عليها أنها لا تحمل من هموم الدنيا شيئًا فيتأكد أن بحثه قد انتهى، ويراهن صديقه "مارتن" Martin على أن هذين الشخصين قد وجدا بالفعل السعادة التي كانت هاربة منه.

ويقبل "مارتن" الرهان راضيًا لأنه متيقن أن التعاسة عنصر جوهري في حياة كل إنسان دون استثناء. (وهذا الجزء في الكتاب ذو مغزى عميق ويعكس نظرة "ڤولتير" للكنيسة في عصره باعتبارها منافقة، مفلسة، شديدة الاهتمام بمظاهر الأبهة، غير مكترثة بسداد احتياجات البشر).

وعندما يُطرح سؤال السعادة الشخصية على المرأة، تتبخر أسطورة السعادة على الفور.



> إني مجبرة على الاستمرار في هذه المهنة البغيضة التي تبدو لكم أيها الرجال مبهجة جدًا. ولكنها لنا نحن ليست سوى هاوية من البؤس. أتيت إلى ڤينيسيا لأمارس مهنتي. سيدي، لو تخيلت شعوري وأنا مضطرة أن ألمس تاجرًا عجوزًا أو محاميًا أو راهبًا أو مراكبيًا أو كاهنًا دون تمييز، وأنا أتعرض لكل أشكال الإهانة والاستغلال، وأنا أنحط لدرجة استعارة تنورة حتى يمزقها أحد الرجال المقززين، وعندما يسرق مني أحد الرجال ما كسبته من رجل آخر، وعندما يبتزني الحكام بالمال حتى لا أكشف فضائحهم، دون أن يكون لي أي أمل في المستقبل سوى قسوة الشيخوخة، ودار رعاية الفقراء، ومقلب القمامة، ستستنتج أني أتعس مخلوقات الأرض.

ووسط مشاعر الدهشة وخيبة الأمل، ينظر "كانديد" إلى الراهب في ترقب آملاً أن تأتي إجابته عكس هذه الإجابة. فيقول له:

> أبانا، يبدو أنك تعيش حياة يحسدك عليها الجميع: واضح أنك في كامل صحتك، ووجهك يشع سعادة ... ويظهر أنك مسرور بحياتك في رهبنة الثياتين.[٢]

ولكن الكاهن يسكب قلبه معترفًا بما يعانيه من مشاعر الوحدة القاتلة في الدير، والرياء المريع الذي يملأ قلبه ويحيط به. وبينما يكشف عن قصته البائسة التعيسة، يدرك "كانديد" في أسى أنه خسر الرهان. فالرمزان المتضادان في المجتمع: العاهرة التي توزع اللذة دون شعور بالذنب ولا قانون أخلاقي يلزمها، والراهب المعتزل الذي يُفترض أنه يجسد سمو الإنسان، كلاهما تعيس. أحدهما يرى الحياة حفلة راقصة، والآخر يراها مناحة، ولكن كليهما يريانها فارغة. وكما قال "سارتر" لا فرق بين لعب الورق وتحية الناس، فالمركب يغرق في الحالتين. لقد رأى "ڤولتير" الأمر بهذا الشكل لأنه كان يبحث بكل ذرة في كيانه عن إجابة للغز الحياة الأعظم، ألا وهو ما يبدو من انعدام المعنى في كل شيء، ولكنه فشل في العثور على الإجابة. ويعطينا "كانديد" المفتاح لما خلص إليه "ڤولتير"، ألا وهو اللامعنى، وهو ذات المفتاح الذي يفتح ما قاله سليمان قبل ذلك بقرون عن اللذة والدين.

مشكلة اللذة:

إنَّ فهمْنا لما يقوله الفلاسفة ومشاهير المفكرين عنصر أساسي لإيجاد الحل. فالحجة التي يقدمها الكثيرون ممن يقولون إن وجود الشر هو الذي يثير السعي نحو المعنى تنطوي على خلل جوهري. وهي تبدو في ظاهرها قوية، ولكنها محملة بشحنة عاطفية ضخمة تجعل حكمها غير صحيح. فلا شك أن وجود الألم والشر بتجلياتهما المتنوعة يتحدى حتى أقوى الحجج التي تحاول أن تجعل الحب غرض الحياة. ولا يمكن للمرء أن يتجاهل مشكلة الشر إلا إذا انتحر فكريًا. ومع ذلك فمشكلة الشر لا تمثل القضية الرئيسية في فقدان المعنى.

فالملحد عنده قضايا أكثر جوهرية من مشكلة الشر تجبره على طرح سؤال معنى الحياة. لأن الحقيقة أن الكثير من المتألمين يجدون للحياة معنى والكثير ممن ينعمون باللذة لا يختبرون أي معنى للحياة. فنحن نعاني إحباط اللامعنى حتى قبل أن نتعرض لمشكلة الألم، وحتى عندما نحصل على كل ما نشتهيه من سبل الراحة. وقد عبَّر عن هذا الأسى خير تعبير الخادم الميثودي والأستاذ الجامعي "پول هون" :Paul Hoon

التكنولوجيا حررته من قيود المكان فأصبح يسافر بسرعة ٢٥ ألف ميل في الساعة.

التصنيع منحه حرية الانتقال من وظيفة إلى وظيفة أو من بيت إلى بيت أو من مستوى اقتصادي منخفض لمستوى أعلى.

الإلكترونيات تعطيه الحرية فيدير القرص ويدخل إلى مئات الخبرات الغريبة عنه. والتعليم يحرر عقله وضميره.

الطب يحرره من المرض. والطب النفسي والكيمياء يحرران مشاعره.

الموسيقى والفن يحرران خياله.

الحكومة تحرره من القرار السياسي، ولو نظريًا.

انكسر ألف طاغية داخليًا وخارجيًا ومع ذلك تصحُّ عليه تسمية "الإنسان

القلِق" "restless man"، homo perturbatus المخمور بهذه الحرية التي لم يعرف لها مثيلاً من قبل.

ورغم كل ما اكتسبه ذلك الإنسان الذي يسافر بسرعة ٢٥ ألف ميل في الساعة، فهو يعاني من الانهيار العصبي. وهو حبيس الثراء والفقر، وكل منهما يسجنه على طريقته.

التليفزيون يستولي على أرق مشاعره ويقولب ذوقه.

التعليم يتحول إلى مشاية رياضية.

والتيارات الفنية تؤثر على الوعي العام فيشتري ثلاثة مليون قارئ الرواية ذاتها.

المخدرات تستعبد الناس.

والحروب لا تنتهي.

والمفاوضات الدبلوماسية تصل إلى طريق مسدود.

"النظام" أو "المؤسسة" تقيد. الفوضى تتفشى والقانون يرد بوسائل (اعتاد الناس على تسميتها) قمعية.

"الحتمية" لا تزال مصطلحًا واقعيًا في معجم الأخصائي النفسي، وما زال الموت رابضًا في نهاية طريق الحياة.[٣]

من السهل أن نفهم ما الذي جعل اللامبالاة والخوف والفراغ أمورًا طبيعية ولماذا يسجننا كل منها بطريقته. لقد أبرز "پول هون" المشكلة الحقيقية ونجح في تحديد أسبابها. فبالرغم من كل ما هو متاح لنا مما يُفترض أن يُزيد الحياة سهولة وإشباعًا، فالبشر المخمورون بوفرة الخيارات يجدون أنفسهم مكبلين بأغلال يستحيل كسرها.

وليس مستغربًا أن كلمة "ملل" boredom [في اللغة الإنجليزية] كلمة حديثة جدًا لا نظير لها في اللغة القديمة أو لغة العصور الوسطى.[٤] ويستطيع "كِرت باير" أن يكتب أي حجة تحلو له لينكر أن البحث عن المعنى حقيقة واقعة، ولكن

البشر سيعودون لهذا البحث في كل عصر بسبب طبيعة المرض.

وقد أوجز "تشسترتون" هذا المرض في جملة واحدة ثاقبة "اليأس لا يكمن في التعب من كثرة المعاناة بل في التعب من كثرة الفرح".[٥] وأود أن أغير كلمة واحدة في تلك الجملة حتى تتناسب مع استخدامنا المعاصر للألفاظ: "اليأس لا يكمن في التعب من كثرة المعاناة بل التعب من كثرة اللذة".

ولا أقصد مطلقًا من هذه الخلاصة أن أضفي إيحاءً سلبيًا على كلمة "اللذة"، لأنها يمكن أن تصف إشباعًا مشروعًا مثل فرحة الفوز بمباراة تنس في نهائيات "ويمبلدون"، ويمكن أن تصف أيضًا النشوى الطائشة التي يشعر بها مدمن المخدرات. فلا يجب أن يساء فهم الكلمة نفسها لأن السياق هو ما يحدد معناها.

وبذلك يمكننا أن نترجم فكرة "تشسترتون" هكذا: اليأس لا يَنتج عن التعب من كثرة المعاناة، بل يَنتج عن التعب من كثرة اللذة. فعندما نفرط في الضغط على زرار اللذة ونجد أنه لم يعد يخلصنا أو يعيننا، يتولد عن ذلك شعور رهيب بالفراغ. ولا شك أن أقسى مشاعر الوحدة تتولد عندما يخذلك السند الوحيد الذي كنت تنتظر منه النجاة والحل النهائي. وقد عبَّر الكثيرون عن هذا الشعور إما بتعبيرات ملتهبة مشحونة بالمشاعر أو باعترافات صادقة تؤكد البحث عن معنى.

"صامويل تيلور كولريدج" Samuel Taylor Coleridge أحد مؤسسي الحركة الرومانسية في الأدب معروف بعبقريته الشعرية، وربما أشهر أشعاره هي "قصيدة البحار القديم" "The Rime of the Ancient Mariner"، "كوبلا خان" "Kubla Khan"، "كريستابل" "Christabel". وقد كان محقًا عندما قال إن العقل يتمتع بقوى إبداعية جبارة. واستخدامُه ليس مجرد عملية ميكانيكية يمكن تفسيرها بالكيمياء أو الفيزياء. ومع ذلك فقد كتب في مذكراته الكلمات التالية في فترة محورية من حياته:

> غدًا عيد ميلادي الحادي والثلاثون. كم أنا مسكين! قلبي يموت ... لماذا لم أنعم بقلب خالٍ من الهموم؟ ما زالت هذه الكتب المحبوبة أمامي، هذه الغرفة الراقية هي المركز الذي يجتمع فيه عالـَم الجمال كلـُه، وهي البحيرة العميقة التي تجري إليها كل قنوات العذوبة وغدرانها.

عقلي مشحون بالأفكار، شديد النشاط، مزدحم بالخطط النبيلة، وقادر تمامًا على تحقيقها... فلماذا لا أشعر بالسعادة؟[٦]

أقسى مشاعر الوحدة تتولد عندما يخذلك السند الوحيد الذي كنت تنتظر منه النجاة والحل النهائي.

وعلى الرغم من قدرته العقلية الفائقة على توليد الأفكار، عاش فراغًا أدى به إلى إدمان الأفيون. وقد قال عنه الشاعر "ويليام هازليت" William Hazlitt إنه يتجرع النسيان واللاوعي.

فالنجاح والقدرة الإبداعية لا يجلبان للحياة معنى حتى لو بلغا أقصى مدى لهما. وكان إدراك هذا الأمر هو سبب إيمان الدكتور "جيمس سيمپسون" James Simpson مكتشف الكلوروفورم. ففي عمله في الجراحة رأى أن العمليات الجراحية تسبب آلامًا مميتة للمرضى، مما دفعه إلى البحث عن مخدر. وكان اكتشافه لمادة الكلوروفورم هدية عظيمة للبشرية. حتى إن أولى مرضاه التي استخدم معها هذا المخدر وهي تلد سمَّت ابنتها "أنستيزيا" Anesthesia [عدم الإحساس بالألم] تعبيرًا عن عرفانها له.

يظن المرء أن العيش في الآلام بمختلف أنواعها كان سيصل بالدكتور "سيمپسون" إلى حالة من اليأس الوجودي. أو على العكس، أنه كان سيعتبر تخفيفه للآلام الجسدية هو أعظم اكتشافاته. إلا أنه لم يكن هذا هو ما أدى إلى صراعه الروحي، أو بالأحرى انتصاره الروحي، ولكن

> عندما يبلغ هذا العمل الخيري منتهاه، عندما لا أجد مرضى أعالجهم، ولا أمراضًا أشفيها، عندما ينتهي تمامًا كل ما كان يشغلني، ما الذي سيملأ قلبي وفكري وقدرتي؟[٧]

إن الحياة التي أنفقها في العمل الخيري وحب البشرية تركت قلبه جائعًا فارغًا. ومما يثير السخرية أن من طرحت عليه هذا السؤال عن انعدام الهدف في حياته كانت واحدة من مرضاه. وهنا يكمن لب المشكلة؛ امرأة مريضة واهنة تدعو مكتشف الكلوروفورم ليبحث عن المعنى الحقيقي للحياة.

وأظن أن فيلم "المركبات النارية" Chariots of Fire يقدم معالجة ممتازة لهذا الصراع العميق وإن كان على نحو خفي. فهو يصور العدَّاء العظيم "هارولد أبرامز" Harold Abrams شخصًا قويًا متحمسًا مزهوًا مهيبًا واثقًا من نفسه. وفي بداية القصة يسأله أحد أصدقائه عن شعوره تجاه الخسارة، فيجيب "أبرامز" منزعجًا: "لا أعرف. أنا لم أخسر مطلقًا". وقرب نهاية الفيلم وقبل أهم سباقاته بلحظات، نظر "أبرامز" في عيني صديقه وقال: "كنت دائمًا أخشى الخسارة، ولكني الآن أخشى الفوز. أمامي عشر ثوانٍ لأثبت غرض وجودي، ورغم ذلك لست واثقًا أني سأنجح في إثباته".

وتتأكد هذه الفكرة عندما نرى انخفاض معنوياته بعد حصوله على الميدالية الذهبية في باريس سنة ١٩٢٤. فقد فاز، ولكنه ما زال يجهل سبب وجوده.

وهنا نصل إلى أول نقطة في طريق حل معضلة اللامعنى. فحتى ملذات الحياة تُوَلد شعورًا باللامعنى، لأنها تبقى إلى حين ثم تتلاشى. وفي أحسن حالاتها تحمل قوة "انطلاق" مؤقتة كالتي تطلق الصاروخ ولكن ليس لديها قوةُ "تحمُّل" باقية، أو بتشبيه آخر هي مثل ومضات البرق في طريق مظلم، ولكنها لا يمكن أن تهدي المسافر على الطريق.

المفتاح الصحيح:

ولكن لدينا نقطة أخرى في طريق الحل، وهي تمثل صميم المذهب الطبيعي وتبرز مأزقه وفقره. وسليمان يقدم لنا المفتاح الذي يكشف اللغز. فبعد أن كان يصطدم بحائط صد في نهاية كل درب سلكه، كان يكرر عبارة واحدة هي "تحت الشمس"، وتشير إلى الحياة بعيدًا عن الله التي تُرى من منظور أفقي في منظومة مغلقة. وقد رسم لنا "ڤولتير" منظومته المغلقة بقوله "فأي تفسير يمكن للعقل الأعظم أن يقدمه؟ الصمت". وعند هذه النقطة يفترق "ڤولتير" عن سليمان. لأن "ڤولتير" بقي في بؤسه باستبعاده للعقل الأعظم، في حين أن سليمان انتقل من اللامعنى إلى المعنى عندما سمح للعقل الأعظم أن يتكلم.

والمسيحية تؤكد أن الله تكلم بالفعل، وما لم يأخذ مكانه اللائق في حياتنا، فلا

حياة العاهرة المستهترة المستبيحة ولا حياة الراهب المنعزل بجديتها ودافعيتها وطقسيتها يمكن أن يكون لها معنى أو غرض.

وكلمات القديس أغسطينوس أسقف هيپو Augustine of Hippo (٣٥٤-٤٣٠) تُعبر أفضل تعبير عن هذه الفكرة: "لقد صنعتنا لذاتك، وستظل قلوبنا قلقة حتى تجد راحتها فيك". أو كما قال عالِم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي "بليز پاسكال" في تعبيره المشهور: "في قلب كل إنسان فراغ على شكل الله، ولا يمكن أن يملأه إلا الله".

الإلحاد يسير مطأطئ الرأس مشدودًا إلى الأرض، وهو ما يجعله عاجزًا عن إدراك أي شيء له قيمة أبدية. ولذلك، عليه أن يعترف بأزمته: أنه بدون الله، تصبح الحياة بلا معنى.

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- قرأنا في صفحة ٨٠ حوارًا ساخنًا بين الكاتب وطالب جامعي حول مسألة المعنى. ما الذي أدى بالكاتب إلى هذا الاستنتاج: "أظهر الحوار استحالة الهروب من هذا الداء، ألا وهو التعبير عن اللامعنى بطريقة لها معنى؟"

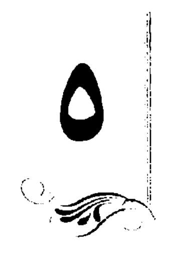
٢- يتوصل كل من سيزيف وسليمان إلى النقطة نفسها في صراعهما مع مشكلة اللامعنى ويَخلصان إلى أنه "إن كانت الحياة في تعبيرها الوجودي ليس لها معنى، فتغيير الموقف الشخصي لا يغير واقع اللامعنى. ولكنه يغير كيفية أداء المرء في عالم خالٍ من المعنى". ناقش الخلاصة التي توصلا إليها. واشرح معاناتك في البحث عن المعنى في حياتك الشخصية.

٣- اشرح ما يقصده الكاتب بقوله إن دعاة المذهب الطبيعي يتناولون قضية أصل الحياة وقضية المعنى من نقطتي انطلاق متناقضتين، أو "بأفكار تلغي بعضها بعضًا". (انظر صفحة ٨٥- ٨٦).

٤- ما تعليقك على هذه العبارة: "الحجة التي يقدمها الكثيرون ممن يقولون إن

وجود الشر هو الذي يثير السعي نحو المعنى تنطوي على خلل جوهري؟" هل واجهْتَ هذه الحجة أو استخدمْتَها من قبل؟

٥- قال "تشسترتون": "اليأس لا يكمن في التعب من كثرة المعاناة بل في التعب من كثرة الفرح (أو اللذة)". هل تتفق معه؟ ما الأدلة التي تؤيد هذا الرأي من حياتك الشخصية ومن مجتمعك؟



٥

شكوك خطيرة

إن نسيت طريق الهيكل
ستجد الذي يذكر الطريق إلى بابك
فيمكنك أن تتهرب من الحياة،
ولكن يستحيل أن تهرب من الموت
ويستحيل أن تنكر هذا الغريب
"تي. إس. إليوت"

أكون أو لا أكون: تلك هي المشكلة.
... الموت رقاد،
رقاد ربما تتخلله الأحلام، وهذه هي العقبة
فإن الأحلام التي قد تعاودنا في رقاد الموت،
بعد أن طرحنا عنا ذلك الغلاف الفاني
لخليقةٌ أن تحملنا على التريث
"ويليام شكسبير"، هاملت

تناول أغلب المفكرين العظماء موضوع الموت لأنه آخر "عدو" ولأنه الخبرة الوحيدة التي يضطر جميع البشر لمواجهتها. إنه العنصر الأعظم الذي يساوي بين جميع البشر. ولكنه أيضًا الموضوع الوحيد الذي ما زال يدخل في طائفة "المجهول"، وأحيانًا في طائفة المحرمات التي لا يليق ذكرها في الأحاديث المهذبة والحوارات اللطيفة السعيدة لئلا يفسدها ويعكر صفوها.

قال الفيلسوف الوجودي "ألبير كامو" Albert Camus (١٩١٣- ١٩٦٠) إن الموت هو مشكلة الفلسفة الوحيدة. وأضيف أنها مشكلة ضخمة. فرغم كل ما حصلناه من معرفة، يبقى الموت هو الساحة الوحيدة التي تعج بالشكوك واللايقين.

ففي موضوع الميلاد نجحنا نوعًا ما في كشف النقاب ومعرفة الأسرار، حتى إننا تمكنًّا من تسجيل الأصوات والنبضات التي يستجيب لها الجنين في رحم الأم. وفي مجال الأمراض، قفز العِلم قفزات واسعة واكتشف علاجًا للكثير منها، حتى وإن كانت أمراض جديدة تطل بوجهها القبيح وتقض مضجع الباحثين. فحدود المعرفة تتسع يومًا بعد يوم بسرعة فائقة حتى إن ما تحقق من إنجازات اليوم ما كان يمكن للأجيال السابقة أن تحلم به.

وهكذا تحول الخيال إلى حقيقة، ومع ذلك فالعمى الحقيقي الذي نشعر به تجاه الموت عمى مطبق. فالموت هو الموضوع الوحيد الذي لم ننجح في تسطيحه أو تبسيطه كما قال عنه "ألدوس هكسلي". ولكن ماذا في الموت يجعله يلقي بهذه الظلال الرهيبة على عالـمنا، ولماذا يكبل أكثر مجتمعاتنا "تحضرًا"؟

على صخرة الموت يتحطم الإلحاد نهائيًا لأن أي منظومة لا تعرف أصل الإنسان ولا يمكنها أن تبرر سبب وجوده لابد أن تظل صامتة عن مصيره، أو تقدم حججًا لإثبات العدم، وذلك في أحسن الأحوال. وقد قال عالِم النفس والفيلسوف الأمريكي "ويليام چيمز" William James "إن حضارتنا مؤسسة على حالة الفوضى، وكل وجود إنساني ليس إلا لحظة خاطفة من أسى العجز والوحدة".[١] والجميع يخشون مواجهة الموت، باستثناء من يُقدمون على الانتحار تعبيرًا عن شعورهم المميت باليأس والهجر. فالموت هو الخبرة الوحيدة التي فيها نترك كل ما نملك ولا نأخذ إلا ذواتنا على حقيقتها. إنه لحظة الصدق حين تسقط كل الأقنعة. إنه الإنسان بمفرده في مواجهة مصيره.

لقد قال الممثل والمخرج "وودي آلن" عن الموت: "لا أخاف من الموت، ولكني أرجو ألا أكون موجودًا عندما يأتي". وإن كان بالفعل لا يخشى الموت كما يزعم، فالخبر السار الذي يجب أن يعرفه أنه سيموت، أما الخبر المحزن أنه سيضطر أن يكون موجودًا. وعمومًا، أليست هذه الوحدة والحتمية هما ما يزيدان من رهبة

الموت؟ إن الإلحاد عاجز عن تقديم أي عزاء يُذكر في ساحة الموت، وكما هو الحال في قضية أصل الحياة يتركنا ذرات تائهة تافهة مجهولة المصير، ولا شيء غير المجهول.

وقد عبَّر "برتراند رَسِل" عن النظرة الإلحادية للموت بكل جرأة:

> إن العالَم الذي يقدمه لنا العلم هو باختصار عديم المعنى والهدف. ففي هذا العالَم لابد لأفكارنا النموذجية أن تجد مأوى. وأهمها أن "الإنسان نتاج أسباب لم يكن لديها رؤية مسبقة للغاية التي تبغي تحقيقها. وهكذا يصبح أصله، ونموه، وآماله ومخاوفه، وما يحب وما يعتقد ليس إلا محصلة تجمعات عشوائية من الذرات، حتى إنه ما من قوة ولا بطولة ولا فكر عميق أو شعور جياش يمكنه أنه يحفظ حياة الإنسان فيما وراء القبر. فكل ما أُنجزَ من أعمال على مر العصور، وكل مشاعر الحب والتكريس، وكل إلهام، والعبقرية البشرية بكل لمعانها محكوم عليه بالانقراض في موت المجموعة الشمسية الرهيب، وصرْح الإنجازات البشرية كله لابد حتمًا أن يُدفن تحت حطام بقايا الكون. إن كل هذه الأمور، وإن كان عليها خلاف، تكاد تكون مؤكَّدة حتى إن أي فلسفة ترفضها يجب أن تفقد كل أمل في البقاء. ولا يمكن لمَسْكن النفس أن يُبنى على أساس آمن إلا بالاستناد على هذه الحقائق، على صخر اليأس الراسخ الذي لا يلين.[٢]

وفي النهاية تختزل النظرة الإلحادية عالِم النبات من دراسة النرجس إلى تخصيبه، وتهبط بالعالِم من قياس "الانفجار الكبير" إلى مجرد صوت خافت ضئيل، وتبخس قيمة عالِم الجيولوجيا من دراسة العمود الجيولوجي إلى مجرد حفرية في إحدى طبقاته. فليس غريبًا إذن أن يكتب "هـ. ج. وِلز" H. G. Wells عالِم التطور المتحمس وتلميذ "هكسلي" كتابه الأخير الذي لا يوصف إلا بأنه صرخة يأس أطلقها في نهاية حياته عندما رأى كل تفاؤله الإنساني ينهار. وقد عَبَّر "مالكوم مجريدچ" عن صرخة "وِلز" التي تمزق القلب تعبيرًا في غاية الدقة:

> حوَّل "وِلز" وجهه إلى الحائط وأطلق في كتابه "العقل عند منتهاه"

Mind at the End of Its Tether آخر صرخة ألم يائسة نسفت كل معتقداته وآماله. فقد أدرك بعد فوات الأوان أن قوة الحياة التي كان يتبعها ليست سوى أمنية الموت التي سرَّ أن يغمر فيها القليل الذي بقي من حياته في ترقب أكيد للفناء النهائي والتام.[٣]

في النهاية تختزل النظرة الإلحادية عالِم النبات من دراسة النرجس إلى تخصيبه، وتهبط بالعالِم من قياس "الانفجار الكبير" إلى مجرد صوت خافت ضئيل، وتبخس قيمة عالِم الجيولوجيا من دراسة العمود الجيولوجي إلى مجرد حفرية في إحدى طبقاته.

ولكن الفكر البشري يأبى أن يخضع لهذه النظرة الكارثية المجردة من أي يقين. فكل ذرة في كياننا تصرخ مؤكِّدة أن الحياة لابد أن تكون أعمق وأقيم من ذلك.

انهيار العلاقات:

إن ظلال الموت السوداء تلوح أمامنا في أوقات مختلفة من حياتنا. وقلوبنا تصرخ باحثة عن تفسير. والأسباب عديدة لهذا الشعور السلبي تجاه الموت. أولها قطع كل العلاقات نهائيًا. فرغم أن الحياة تمتلئ بالأحلام والآمال والطموحات والإنجازات، فهي تقوم على رابطة متينة من العلاقات تكونت على مدى سنوات مع آخرين يمثلون قيمة كبرى في حياتنا. والإنسان يمكنه أن يحتمل ما تتعرض له هذه العلاقات من تهديد بسبب المرض أو الافتراق المؤقت. ولكن مواجهة الانفصال النهائي، والمفاجئ في أغلب الأحيان، يلقي بالحياة بين براثن قوة معادية قاسية تتحكم في مصائرنا.

وقد وصفت "سيمون دي بوفوار" موت والدتها بأنه "عنيف ومباغت كمحرك طائرة توقف فجأة في الفضاء العريض". فكل مجد الإنسان يتضاءل فجأة إلى كتلة طين باردة، ويتلاشى العقل الذي كان يومًا ما يوَلد الأفكار والمخترعات.

كتب "ألفرد لورد تنيسون" Alfred Lord Tennyson قصيدته "في ذكرى آرثر

هنري هالـَم" "In Memoriam A. H. H." بعد موت صديقه "آرثر هالـَم" Arthur Hallam المفاجئ وعبـَّر في هذه التحفة الأدبية المطولة التي كتبها على مدى سنوات عما عاناه من صراع في هذه الخبرة الحزينة ليعرف القوة العظمى التي تدير مصير البشرية.

وقد اقتبسـْتُ بضعة مقاطع لأبين عمق صراعه وإدراكه للتداعيات الفلسفية الناتجة عن الاختيار بين الإلحاد والإيمان بالله. ففي مطلع قصيدته يـُعبر على استحياء عن عدائه لله وسط حالة من الاستسلام المرير.

لك مدارات النور والظلام

أنت مَن صنعتَ الحياة في الإنسان والحيوان

أنت مَن صنعتَ الموت، ويا للعجب،

فقدمك على الجمجمة التي صنعتـَها يدك

وبعد بضعة مقاطع يَظهر صراعه الكبير في حيرته بين الله والطبيعة محاولاً أن يميز أيهما هو المسيطر على الأمور.

فهل الله والطبيعة في صراع

والطبيعة تبث هذه الأحلام الشريرة؟

وهي على النوع حريصة

غير عابئة بحياة الفرد الفريدة...

هل هي حقـًا "على النوع حريصة؟" ولكن لا

من الجرف المسطح والحجر المقتطع

تصرخ "آلاف الأنواع تلاشت

لا أكترث لشيء، فالكل سيتلاشى

"وأنت تلح عليَّ قائلاً:

أنا أحيي، أنا أميت

الروح ليست إلا النفَس

هذا كل شيء".

ربما هو

الإنسان، آخر أعمالها، الذي بدا حسنًا جدًا

بهذا الغرض البهيِّ البادي في عينيه

الذي أصعد المزامير إلى السموات

الذي بنى له هياكل لصلوات بلا استجابات

الذي وثق أن الله محبة بالحقيقة

والحب القانون الأعلى في الخليقة

إلا أن دموية الأنياب والمخالب في الطبيعة

صرخت بكل قوتها متمردة على قانونه

مَن أَحبَّ، من عانى آلاف الأمراض

من ناضل في سبيل الحق والعدل

يُطرح في الصحراء على الرمال

أو يُسجَن في غياهب التلال؟

لا شيء بعد الآن؟ وحش، حلم

صراع . تنانين عظام

تمزق بعضها بعضًا

كانت تعيش معه في انسجام

يا للحياة الباطلة، الهزيلة

يا ليت صوتكَ يعزي ويبارك

هل من أمل في الاستجابة أو التعويض؟

خلف الحجاب، خلف الحجاب[٤]

إن صراع "تنيسون" يمثل معركة "تطورية" تسبق أطروحة داروين. فهو يطرح السؤال المؤلم عما إذا كانت الطبيعة الغشيمة هي بالفعل الحساء الأساسي الذي تكوَّن منه الإنسان. لاحظ جيدًا التعبيرات الحية التي تنبض بذلك الصراع الوجداني في فلسفةٍ نظريةٍ لا تؤمن بوجود الله. فهو يقول عن الطبيعة: "وهي على النوع حريصة غير عابئة بحياة الفرد الفريدة". إن الشاعر هنا يستنكر وجود "غرض" أكبر للحياة دون وجود "غرض" فردي لكل شخص على حدة. هذا هو جوهر السؤال.

ولاحظ أيضًا الفكرة المضادة التي يعترض بها على تلك الفكرة. فهل كانت الطبيعة حريصة بالفعل على "النوع" أم أنها أضعفت الكثير من الأنواع الأخرى حتى ينشأ الكائن البشري مستخدمًا النهج نفسه الذي تستخدمه الطبيعة "دموية الأنياب والمخالب؟" إن هذه الأسئلة تسدد ضربة قاضية للإلحاد لأن البشر طبقًا للمذهب الطبيعي تمكنوا من البقاء عن طريق "تمزيق بعضهم البعض".

اللعب بالألفاظ لن يساعد دعاة المذهب الطبيعي في تهريب الأمل إلى الحياة.

وقد خرج "تنيسون" من فحصه العميق لهذه القضايا باستنتاجين مؤكَّدين: انقطاع علاقاتنا بسبب الموت ينشيء حزنًا عميقًا في القلب، ومصيرنا مرتبط بأصلنا. فاللعب بالألفاظ لن يساعد دعاة المذهب الطبيعي في تهريب الأمل إلى الحياة.

وفي فيلم الأطفال "برانسر" Prancer نطالع مشهدًا في غاية الرقة. فالفتاة الصغيرة "چسي" Jessie التي تلعب دور البطولة فقدت أمها حديثًا وهي تتحدث مع صديقتها التي تؤكد أنها يستحيل أن تؤمن بما لا تراه. فتجيبها "چسي" قائلة: "ولكن ماذا عن الله؟ فهو أيضًا لا يمكنك أن تريه. هل معنى هذا أنكِ لا تؤمنين به؟" فتعترف صديقتها أنها فعلاً تشك في وجود الله لأنها لا تراه. وتجيب "چسي" في اندهاش وانفعال قائلة: "ولكن إن لم يكن الله موجودًا، فليست هناك سماء. وإن لم تكن هناك سماء، فأين أمي؟"

إن القلب البشري يشتاق للقاء بعد الافتراق يومًا ما. والموت لا يقضي على هذا الاشتياق. والشاعر الرومانسي "ويليام وردزورث" William Wordsworth (١٧٧٠- ١٨٥٠) يصور هذا التوق البشري في قصيدة له بعنوان "نحن سبعة" "We Are Seven".

... قابلتُ طفلة تعيش في كوخ
قالت إنها في الثامنة
كان شعرها غزيرًا مُلتَّوى
تحيط حلقاته بوجهها...
كم لكِ من الإخوة والأخوات
أيتها الفتاة الصغيرة؟
أجابتني: كم؟ نحن كلنا سبعة.
ثم نظرَتْ إليَّ في حيرة.
أين هم الآن؟ أرجوكِ خبريني،
فأجابت سبعة نحن:
يقطن اثنان في "كونواي"،
واثنان ذهبا إلى البحر،
اثنان يرقدان في فناء الكنيسة،
أختي وأخي.
وأنا أسكن مع أمي على مقربة منهما
في كوخ فناء الكنيسة...
ها أنتِ تجرِين في كل مكان، يا صغيرتي،
وأوصالك تفيض بالحياة.
فإذا كان اثنان يرقدان في فناء الكنيسة

إذن فأنتم خمسة فقط . . .

كم أنتم إذن،

ما دام اثنان في السماء؟

فجاءتني إجابة الصغيرة سريعة:

سيدي، إننا سبعة.

فأجبت: ولكنهما قد ماتا، هذان الاثنان قد ماتا،

وروحاهما الآن في السماء.

هباء ضاعت كلماتي، فالصغيرة

بقيت على عنادها

وقالت: لا، بل سبعة نحن.[٥]

إن فكرة انقطاع العلاقة نهائيًا لا تلقى قبولاً ولا استحسانًا حتى في عقل الأطفال. إلا أن هذا ليس السؤال الوحيد الذي يطرحه الموت ويتوق البشر للحصول على إجابة عنه، ولكن العقل يثير أسئلة أخرى. فإن كان الموت هو نهاية كل شيء، كيف يتحقق العدل النهائي؟

العدالة في خطر:

يشكو الشاعر والكاتب الإنجليزي "ويليام شنستون" William Shenstone (١٧١٤- ١٧٦٣) في أحد مقالاته أن القوانين بوجه عام كشبكة تسمح فتحاتها بأن يتسلل منها الصغير، ويخترقها الكبير، وينحشر داخلها المتوسط. فإن جمعنا كل ما ارتُكب من جرائم على مر العصور ومضى دون عقاب، نجد مسألة العدالة تزداد تعقيدًا. ففي يومنا هذا يقال إنه في بعض البلدان (حيث تتحول بعض البيوت إلى حصون لضمان الأمن) يسير المذنب حرًا طليقًا بينما يعيش البريء خلف القضبان.

لقد تحدث "وينستون تشرشل" Winston Churchill بلسان كل العالم المعذَّب عندما دعا إلى تنفيذ العدالة في تعقب المذنب.

ليس لديَّ إلا غرض واحد، هو القضاء على هتلر، وعندها تصبح حياتي أكثر سهولة ويسرًا. لو غزا هتلر الجحيم، لَذَكَرْتُ الشيطان بالخير في مجلس العموم.[٦]

مَن رأى مشهد محاكمة "أدولف إيتشمان" Adolf Eichmann [ضابط نازي وواحد من أكبر منظمي الهولوكوست] لن ينسى أبدًا الصرخة التي انطلقت مدوية من صفوف المشاهدين تطالب بإجراء العدل. إن الحياة توخز ضمائرنا بصوتها الهادئ الرقيق منبهةً إيانا أن العدل لابد أن يُجرى، وإن لم يكن في هذا العالم، ففي العالم الآتي. وهكذا يلح السؤال في قلوبنا: هل الموت يقضي على كل أمل في تحقيق العدل أم يضمنه؟

إن الإنسان يؤمن إيمانًا فطريًا قويًا أن الموت وما بعده ضروريان لموازنة هذا العالم المليء بالأخطاء، حتى إن الديانات الإلحادية كالبوذية، والأحادية كالهندوسية تلجأ إلى قانون الكارما× للتغلب على الشر وإنجاح الخير. أي أنها لا تملك السكوت عن الشرور.

ربما أن أيوب هو أكثر من تأثر بقضية العدل لما تميز به من إخلاص عميق في علاقته بالله. فالكتاب يخبرنا أنه فقد أسرته وثروته وصحته. وأخيرًا يأتي أصدقاؤه الثلاثة ليمطروه بكلمات يمكن تلخيصها في جملة واحدة، ألا وهي "إنك تنال ما تستحق من جزاء يا أيوب". ولكن أيوب حاول مرارًا أن يثبت براءته من هذا الاتهام. وإن كان سفر أيوب والغرض منه وما يقدمه من تعليم أعمقَ كثيرًا من ذلك، إلا أنه من الضروري أن نلاحظ أنه في لحظة معينة صرخ أيوب متسائلاً "إن مات رجل أفيحيا؟" ويبدو أن أيوب شعر أن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال وثيقة الصلة بالعدل ويمكن أن تخفف من معاناته.

وإن لم يكن المرء مهتمًا بانقطاع العلاقات الحميمة، ولا يسيئه اختلال ميزان العدل، إذَن يبقى ما وصفه سليمان وصفًا رائعًا في هذه الآية:

× تعنى كلمة "كارما" في اللغة السنسكريتية "الأفعال"، وتؤمن البوذية والهندوسية أنه إن كانت أفعال الإنسان صالحة، فهذا يضمن له السعادة في المستقبل أو في حياته القادمة، وفقًا لإيمان هذه الديانات بتناسخ الأرواح أي أن الروح تحيا مرة أخرى في جسد آخر. ولكن إن كانت أعمال المرء شريرة، فهذا يعني أن حياته القادمة ستكون تعيسة ويجب عليه أن يحاول إصلاح ما اقترف في حياته الماضية. (المترجمة)

صنع الكل حسنًا في وقته وأيضًا جعل الأبدية في قلبهم التي بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى النهاية.

(جا ٣: ١١)

يقول سليمان إن سبب التوتر هو أن الله وضع الأبدية في قلوبنا. أي أننا لن ندرك الحكمة من وراء كل ما يفعله الله في هذا الزمان إلا عندما نصل للأبدية. وهذا هو الصراع القديم بين القلب والعقل. فالبشر يتوقون في قلوبهم إلى الأبدية أو يشعرون على الأقل باحتياج لمعرفة أبدية لا يقيدها الموت. ولكن عقولنا لا تستطيع أن تستوعب ذلك. إلا أن هذا التوق أصيل ومتجذر فينا لدرجة أن الموت حتى في نظر الأطفال يُعتبر عنصرًا دخيلاً لابد له من تفسير. فالطفل لا يمكنه أن يفهم أن الحياة تُختزل إلى مجرد ذكرى، وكأن الأبدية المتأصلة في قلبه تحارب النهاية التي يراها في خبرته الواقعية.

وهناك على الأقل سبب آخر يجعل للموت هذه الظلال السوداء التي يلقي بها على كل إنسان. وهذا السبب هو الشعور العميق بأن الموت قد لا يكون النهاية وأن الدينونة حقيقة. وتمثل هذه الفكرة للبعض خوفًا يستحوذ على كل تفكيرهم، بينما تكون عند الآخرين مجرد هاجس يمر بخاطرهم بين الحين والآخر. وكل ديانة في العالم تحاول مساعدة أتباعها على تجنب هذه الدينونة بمراسم وشعائر دقيقة وطقوس خاصة تمارَس عند دفن الميت.

إن الأسئلة المتعلقة بالموت تتطلب إجابات، ولكن الإلحاد لا يملك أيًا منها لأنه ليس فيه سماء نفوز بها ولا جحيم نهرب منه. والحياة تنتهي مع آخر نبضة في القلب: كل العلاقات تنقطع، كل المساعي تتوقف، ذراع الحق تَقْصُر، والأبدية في قلب الإنسان تُبتلع في النهاية التي يختبرها المرء في واقعه. لا شيء نخشاه، ولا شيء نتطلع إليه، ولا إله نلتقي به، ولا أمل نرقبه: كل شيء انتهى تمامًا.

فقدان الأمل:

بعد أن قتل الملحد الله، تُرك في هذه الحياة بلا غرض للوجود، وبلا أخلاق يتبناها، وبلا معنى للحياة، وبلا أمل بعد القبر. والملفت للنظر أن غياب الأمل في



المستقبل يتمتع بقدرة مذهلة على التأثير في الحاضر وتقويض بنية الحياة كما ينخر النمل الأبيض أساس مبنى خشبي ضخم. فالأمل هو العنصر الذي بدونه يصبح الحاضر عديم الأهمية. ولذلك، يجتهد الرياضي على أمل الفوز. والباحث يُجِد في عمله على أمل إحرازِ سبق علمي. لكل عمل إنساني أمل، وإن لم يكن للحياة نفسها أمل، يفقد كل عمل أهميته وتتبدد اللحظة الحاضرة في غياب أي مكاسب مستقبلية.

بعد أن قتل الملحد الله، ترك في هذه الحياة بلا غرض للوجود، وبلا أخلاق يتبناها، وبلا معنى للحياة، وبلا أمل بعد القبر.

وبعد مئة سنة من وفاة "نيتشه" يعاني العالم حالة من الاغتراب التام. وقد كانت فلسفته المليئة باليأس والتشاؤم هي ما دفعت الكثير من شبابنا إلى البحث عن واقع آخر. فمن يفقد الأمل يحاول أن يدفن يأسه باللجوء إلى المخدرات أو الكحول أو غيرهما من الأشياء التي يظن أنها ستحرره من قبضة اللامعنى. وهكذا تصبح العبثية والهزلية علامات مميزة لمجتمع خالٍ من أي أمل وحبيس في اليأس. فلماذا اتجه الملايين من شبابنا للمخدرات، ولماذا يسعون لحالات أخرى من الوعي؟ بسبب ما يواجهونه من فراغ لا يطاق في ظل فلسفة حياتية لا تقدم أملاً ولا إجابات.

بعد أن ألّف "ألدوس هكسلي" كتاب "عالَم جديد جريء" Brave New World أنفق سنواته الأخيرة يبحث عن واقع آخر في المخدرات، وهو مَن قال على لسان بطل إحدى رواياته بعنوان "الجزيرة" Island: "كم هو مريح أن تمكث في مكان ثبت فيه زيف عقيدة السقوط". فبعد أن انتزعنا الماضي من يدي الله الخالق، أصبحنا نضحي بالحاضر انطلاقًا من قناعتنا أنه لا أمل في المستقبل. يذكر الموسيقار الشامل "چون كيج" John Cage محاضرة أجاب فيها الرسام "ويلم دي كونينج" Willem de Kooning على أحد السائلين قائلاً: "الماضي لا يؤثر فيَّ. ولكن أنا مَن أؤثر فيه". فعندما أعدنا كتابة الماضي، غيَّرنا تأثيره علينا. ولم يعد لجيلنا شيء يتطلع إليه سوى التلاشي والعدم. وتداعيات هذا التوجه مريعة تتجلى في مظاهر عديدة منها

الاستنساخ، والمخدرات، والإيدز، والانتحار، والقتل الرحيم، وإدمان الكحول، والتفكك الأسري، والجريمة، واستغلال الأطفال في إنتاج المواد الإباحية، والإرهاب، وغيرها من المشكلات التي تكسر القلب. والمسافة قصيرة بين عقائد الماضي "الزائفة" وانهيار الأمل في المستقبل.

وقد أصاب أحد الكُتاب عندما قال:

> في الخمسينات من القرن العشرين فقد الطفل براءته. فقد تحرر من والديه بالوظائف المجزية، والسيارات، والأغاني والموسيقى التي خلقت مصطلح "الفجوة بين الأجيال".
>
> وفي الستينات فقد الطفل السلطة المرجعية. فقد كانت الستينات عقد الاحتجاج. فاستُدعيَت الكنيسة، والدولة، والوالدين للمساءلة ووجدوا ناقصين. ورُفضَت سلطتهم، ولكن لم يحل مكانها أي بديل فظل مقعد السلطة خاويًا.
>
> وفي السبعينات فقد الطفل الحب. فقد كان عقد "الذات" الذي سادت فيه الكلمات المركبة التي تنتهي بكلمة "ذات" أو مشتقاتها: الصورة الذاتية، تقدير الذات، توكيد الذات. فأصبح العالم وحيدًا. عرف الطفل كل شيء عن الجنس ولكنه نسي كل شيء عن الحب، ولم يملك أحد الشجاعة الكافية ليُعرفه بالفرق بينهما.
>
> وفي الثمانينات فقد الطفل الأمل. فبعد أن تجرد هذا الجيل من البراءة والسلطة والحب وحلَّ به رعب الكابوس النووي، أصبحت أعداد غفيرة منه لا تؤمن بالمستقبل.[٧]

وأضيف أننا في التسعينات فقدنا قدرتنا على التفكير المنطقي. وانتقلت القدرة على التفكير النقدي من الاستقراء إلى الاستنباط[×] وأصبح القادرون على التفكير السليم أقلية. وقد ذكرْتُ مرارًا أن التحدي أمام مَن يعلن الحق في يومنا هذا هو أن يصل إلى جيل يسمع بعينيه ويفكر بمشاعره.

× الاستقراء هو استنتاج القانون العام من الجزئيات، أما الاستنباط فهو الوصول إلى النتائج النهائية عن طريق الكليات. (المترجمة)

فشبابنا اليوم يعيشون في مخاوف متأصلة بسبب كل ما يرونه حولهم ويشعرون به في أعماقهم. أحد الشبان، وهو صديق لشخص أعرفه، يتوق إلى بصيص من الأمل، إلى حلم يتشبث به، فيعلو به فوق أغلال هذا العالم، ولكنه لم يجد إجابة في عالم قتل الله. فبدأ يلهث وراء أشكال أخرى من الواقع قيدته بأنواع من العبودية أكثر قسوة. ويأسه يمثل نموذجًا لمرض كل شبابنا الذين يصرخون باحثين عن أمل ولكنهم لا يجدونه في العالَم النيتشاوي. وأخيرًا بعد أن امتلأ قلبه بمشاعر الأسى والألم قرر أن ينهي كل شيء:

ضائع في عالم الظلماتِ
بلا ضياء يهدي خطواتي
أبحث عن صديق لنجاتي
في صراعي وبلوائي
ولكنكم يا كل الصالحين
تمرون بي مرور الكرامِ
وتتركونني خاويًا
ولكن هذا الوحيد لا يبغي سوى المماتِ
في مكان ما في عالم الوحدة والحزن والويلاتِ
يوجد مكان لمماتي
ولكن لا أعلم أين
فأينما ذهبت لن أجد مفرًا
لا من يدي الشيطان التي تطولني وتقبضني
ولا من شراب العنب المخمرِّ
وربما يرى صبي حائر
حزني وكآبتي

بعد أن أترك عالَمي

فيبني لنفسه حياة قوية صالحة حرة

قال "المجنون" (في مثل "نيتشه" الذي يحمل نفس الاسم) إن وقته ربما لم يحن بعد. ولكني عندما أنظر إلى الأسى الذي يمزق شبابنا، يمكنني أن أحكم أن وقته قد حان، وقد وصل المجنون. فالإلحاد أنجب هذا النسل، وهذا هو ابنه الشرعي، بلا عقل يرجع إليه ليكشف له أصله، ولا قانون يسترشد به، ولا معنى للحياة يتمسك به، ولا أمل في المستقبل.

هذا هو وجه الإلحاد المتهشم. الموت يطل من عينيه وهو يحدق في صحراء الفراغ واليأس الجرداء. وهكذا فإن تعليم "نيتشه" الذي بزغ بتحطم السراج على الأرض، ينتهي الآن في ظلمة القبر.

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- اشرح ما قصده "ألبير كامو" بقوله إن الموت هو مشكلة الفلسفة الوحيدة. هل في العبارة تهوين من حجم القضية؟

٢- اقرأ النص المقتبس من قصيدة "في ذكرى آرثر هنري هالـَم" للشاعر "ألفرد لورد تنيسون" مرة أخرى. (ويمكنك قراءة القصيدة كاملة حيث يُعبر "تنيسون"، وهو مسيحي، عن صراعه مع أفكار كثيرة. يمكنك أن تجدها في عدة إصدارات لمجموعاته الشعرية أو على الإنترنت على http://tennysonpoetry.home.att.net/index.htm حيث تجد أيضًا الكثير من أعماله الأخرى). صف رد فعلك لهذه القصيدة. هل تظن أن رد فعل الملحد سيختلف عن رد فعل المؤمن تجاه هذه القصيدة أم لا؟

٣- يلخص الكاتب النقاط الأربع الرئيسية التي يطرحها عن الإلحاد (أصل الحياة، والأخلاق، والمعنى، والمصير) في هذه العبارة: "بعد أن قتل الملحد الله، تُرك في هذه الحياة بلا غرض للوجود، وبلا أخلاق يتبناها، وبلا معنى للحياة، وبلا أمل بعد القبر". ما هو تعليقك على هذه النقاط الجوهرية ومعالجة الإلحاد لها؟

الجزء الثاني



مبتغى الحياة

السعي إلى الكامل هو سعي نحو العذوبة والنور.

"ماثيو ارنولد"



٦

النسلق في الضباب

الحق بطبيعة الحال لابد أن يكون أغرب من الخيال لأننا صنعنا الخيال على النحو الذي يتناسب معنا.

"جيلبرت كيث تشسترتون"

إن مناقشة المسألة قبل حسمها أفضل كثيرًا من حسمها قبل مناقشتها. وحتى لو كان هذا النهج لا يضمن دائمًا الوصول لنتائج صحيحة، إلا أنه غالبًا ما يحمينا من عمل عدد لا نهائي من القفزات من جهل إلى جهل. ولا شك أن خطورة القضايا المتعلقة بالحياة والمصير تتطلب إجابة متماسكة بنيويًا ولها معنى وجوديًا. وفي مثل هذه القضايا الجوهرية ليس أهم من الحق، وليس أخطر من المعرفة الكاذبة.

ولهذا السبب بعينه يعاني الكثير ممن يفكرون في الأمور بعمق من صراعات شخصية رهيبة لأنهم يعلمون أن عليهم أن يختاروا فيما بين خليط الأصوات النشاز القبيحة التي تغريهم من الخارج والدوافع المتباينة التي تلح عليهم من الداخل. وغالبًا ما تعزف تلك الأصوات لحنًا نشازًا يشوه تناغم اللحن الأصلي بسبب ما تنطوي عليه من أحكام مسبقة ومفاهيم مغلوطة.

فالمسيحية مثلاً عانت كثيرًا على أيدي منتقديها الذين صوروها على أنها مادة حمقاء تكرس الإيمان الأعمى. وقد كثرت التشوهات والادعاءات عندما أقحم بعض الأساتذةِ الكتابَ المقدسَ في تصريحات لم يدعيها الكتاب المقدس إطلاقًا ولا تمت له بصلة ولا يعنيه ذكرها، ومنها مثلاً تحديد عمر الأرض. وبعد أن يبنوا حجة واهية يهدمونها بكل سهولة. فمن بين ما أعلنه هؤلاء الأساتذة الأكاديميون أن مهمتهم هي

تطهير النص الكتابي مما أطلقوا عليه الأساطير. ولكن بعضهم كان شغوفًا بتدمير الكتاب المقدس حتى إنه حيثما لم توجد "أساطير" فرضوا أساطير من وحي خيالهم على النص واستخلصوا منها استنتاجات لم يقصدها النص الكتابي مطلقًا. وبذلك نجحوا في لَيّ النص بحيث يتناسب مع استنتاجاتهم المسبقة.

ولكني لا أود أن ألقي باللوم كله على منتقدي الكتاب المقدس، لأن المأساة الكبرى وقعت على أيدي مَن يُفترض فيهم الدفاع عن الإيمان المسيحي. فبدءًا بالأساقفة المعتبرين الرسميين الذين أنكروا الميلاد العذراوي، وانتهاءً بالنسخة التجارية للمسيحية التي تقدم للمتبرعين دُمى مقابل تبرعاتهم أصبح الباحث المخلص لا يعرف ما إذا كان يضحك أو يبكي. ولم يعد سوق الأفكار كالمحل التجاري حيث يختار المشتري ما يقايض به على نفسه، بل صار أقرب إلى المزاد حيث يزايد المرء على أقل البضائع غرابة حتى يعود لبيته دون أن يشعر أن البائع غرَّر به. ففي وسط هذه الحيرة بين العديد من المعتقدات، والخيارات الدينية، يصاب المرء بحالة من الذهول، بل الرعب، إذ يكتشف أنه في أحسن الأحوال لن يتمكن إلا من اختيار الأقل سخفًا. إلا أن الخطر الكبير في هذه النظرة السوداوية هو الانتهاء إلى استنتاج خاطئ ألا وهو أنه يستحيل الوصول للحق في قضية الله.

ولكن على كلٍّ منا وهو يعيش في هذا الكون الذي لا يكف عن الدوران أن يحسم مسألة وجود الله ومعنى الحياة الذي يترتب عليها ويتناسب معها. ومن حسن الحظ أننا أثناء صعودنا في الضباب لسنا متروكين بلا لافتات إرشادية. فقد قال الشاعر "روبرت براونينج" Robert Browning في القرن التاسع عشر:

هذا العالم ليس بقعة مظلمة أمامنا

ولا فارغة، ولكنه يحمل معنى عميقًا، ومعناه صالح

والوصول إلى معناه هو مأكلي ومشربي

لقد حاولت أن أبين، كما فعل "سي. إس. لويس"، أنه إن أراد الملحدون أن يصلوا إلى أي نقطة ينبغي عليهم أن يضفوا معنى على المسبب الأولي العشوائي، ويشجبوا ما هو مرفوض أخلاقيًا لأنه لاأخلاقي، ويعبروا عن اللامعنى بطريقة لها معنى، ويجدوا الأمان في اليأس. وهو مطلب غير معقول حتى لخبراء اللعب

بالكلام. وعندما دخل "لويس" في معركة البحث عن المعنى قرر أن يستسلم ويعترف بسيادة الله. وفي خضم صراعه الفلسفي لم يتمكن من إضفاء معنى على الحياة عندما حاول أن يجرد المسيحية من قدرتها على تقديم الحق. ووجد نفسه في متاهة مليئة بالاختيارات. ورغم أنه كان ملحدًا أصيلاً، فإن قدرة المسيح على الإقناع ورسالته تمكنتا أخيرًا من غزو عقل هذا المفكر اللامع. وقد أثر بدوره بعدئذٍ في ملايين الأطفال وأساتذة الجامعات على حد سواء بكتاباته. وإن كان شخص "سي. إس. لويس" نفسه مجرد موضوع عارض في الطرح الذي أقدمه، إلا أن ما قاله يمثل جزءًا أصيلاً منه. فهو يجسد صراع الكثيرين في عبورهم من الإلحاد إلى المسيحية. وقد صَوَّر قبوله للإيمان المسيحي تصويرًا رائعًا لا يُنسى في سيرته الذاتية التي نشرها بعنوان "مندهش من الفرح" Surprised by Joy:

> إن أراد الملحد أن يصل إلى أي نقطة عليه أن يضفي معنى على مسبب أولي عشوائي، ويشجب ما هو مرفوض أخلاقيًا لأنه لاأخلاقي، ويُعبر عن اللامعنى بطريقة لها معنى، ويجد الأمان في اليأس. كان أهم شيء عندي "ألا يتدخل شيء في حياتي". أردت أن أكون "مالك نفسي". وكان حرصي على تجنب الألم أقوى من اهتمامي بتحصيل البهجة. وكنت دائمًا ما أحاول الاحتفاظ بقدر محدود من المسئولية. ... وأرجو أن تتخيلني وحيدًا في تلك الغرفة في جامعة "مجدلين" Magdalen، ليلة تلو الأخرى وأنا أشعر بذلك الشخص الذي لم أرغب في لقائه أبدًا يدنو مني في ثبات وإصرار كلما أخذ ذهني راحة من العمل ولو ثانية واحدة. فما كنت أخافه أشد الخوف حلَّ بي أخيرًا. وفي الفصل الدراسي الأخير من سنة ١٩٢٩ استسلمت واعترفت أن الله هو الله وركعت مصليًا، وربما كنت في تلك الليلة أكثر التائبين يأسًا وترددًا في انجلترا كلها. لم أرَ آنذاك أكثر الأمور وضوحًا ولمعانًا: التنازل الإلهي الذي يقبل تائبًا بهذه المواصفات. فالابن الضال عاد إلى البيت بنفسه. ولكن أي حب هذا الذي يفتح أبواب السماء لضال يؤتى به كارهًا معاندًا يركل برجليه ويجول بعينيه في كل صوب متحينًا فرصة للهروب؟ لقد أساء الأشرار استخدام عبارة "ألزِمهم بالدخول" حتى أصبحنا نرتعب منها، ولكننا إن

> فهمناها فهمًا صحيحًا، نجدها تسبر أغوار الرحمة الإلهية. إن شدة الله أرقُّ من لين الإنسان، وفي إلزامه تحرير لنا.[١]

وعبارة "معاندًا يركل برجليه" تُعبر عما أظهره "لويس" من مقاومة بسبب اعتقاده أن المسيحية خطر يجب أن يدفعه بعيدًا عنه. وقال إنه كان "كارهًا" لأنه قاومها فلسفيًا بقوة غير عادية، ولم يكن من السهل عليه أن يعترف بأن حجته قد انهزمت. إلا أنه "اندهش من الفرح" لأن الحياة اتخذت مكانتها الحقيقية لأول مرة عندما تنفس نسيم الواقع الروحي العليل.

كيف ينتقل الإنسان من الإلحاد إلى المسيح؟ إنها رحلة تسلق عسيرة حيث كل خطوة لها أهميتها لأن زلة قدم تعني سقوطًا أكيدًا. لاحظ مثلاً الفرق بين موقف "سي. إس. لويس" وموقف "يوچين أونيل" Eugene O'Neill الكاتب المسرحي الأمريكي الشهير الذي لا يختلف اثنان على أن مسرحياته من أفضل الأعمال المسرحية في عصرنا. فقد قال أحد أصدقائه بعد أن لاحظ أن كل موضوعاته تنطوي على هم واحد بعينه: "إن سعي "أونيل" كان دائمًا نحو الله". ولكن إن كانت مسرحية "رحلة طويلة في ظلام الليل" Long Day's Journey into Night تُصور قصة حياته، فيمكنني أن أجزم أنه لم يجد الله لأن ندمه واضح في الخلاصة الحزينة التي يختتم بها المسرحية في كلمات الأم وهي تواجه الأحداث الكارثية التي تحل بها وبالآخرين.

> ليس بيننا من يستطيع أن يمنع ما فعلته الحياة بنا. فهذه الأحداث تتم قبل أن تعي بها، وما أن تقع حتى تدفعك لفعل أشياء أخرى إلى أن تجد في طريقك ملايين العوائق التي تمنعك أن تكون ما تريد، وهكذا تفقد ذاتك الحقيقية للأبد.

وقد قال "أونيل" على لسان شخصية الابن، وربما كان يتحدث عن نفسه إنه لم يستشعر "فرحةالشعور بحالة من الإشباع تتجاوز مخاوف البشر وآمالهم وأحلامهم البشعة الجشعة المثيرة للشفقة" إلا فيما ندر وهو في البحر.

وأيًا كان ما تثيره كلمات "أونيل" في أذهاننا، فلا يمكننا أن نخطئ الاختلاف الواضح بين عنوان كل من القصتين: "مندهش من الفرح"، "رحلة طويلة في

ظلام الليل". هذا هو الفرق الذي يصنعه الله.

فكيف يمكن للمرء إذَن أن يرتقي إلى النقطة التي تحفظ له هذا الوضع؟ فكما قال "ماو تسي تونج" Mao Tse Tung الذي لم يكن من مؤيدي الإيمان بالله على الإطلاق: "طريق الألف ميل يبدأ بخطوة".

الطرق المتاحة:

قبل أن نبدأ رحلتنا لابد أن نفهم العملية التي نستخدمها لنتأكد من صدق أحد المعتقدات أو زيفه. فكيف يمكن للفرد، الذي يمثل موضوع الصراع في هذا العالم، أن يتعامل مع الموضوعات المحيطة به ويتوصل إلى فهم صحيح للواقع؟ لقد شغلت هذه القضية الفلاسفة من بداية الدهر وهي أولى الخطوات الحاسمة على طريق المعرفة وأي خطأ فيها يتفاقم مع كل خطوة على الطريق أيًا كان موضوع البحث، كما هو الحال في قاعدة بيانات الكمبيوتر التي يمكن لخطأ صغير فيها أن يسبب مشكلة كبيرة. وهذه هي نقطة الانطلاق التي إن أخطأنا فيها، نُفسد الرحلة إلى الحق بالكامل.

بدأ البروفسور "كولن جنتون" Colin Gunton كتابه الرائع "التنوير والاغتراب" Enlightenment and Alienation بالسؤال التالي: "ماذا يحدث عندما ندرك ما يحيط بنا في العالم من مناظر وأصوات وملمس ونكهات وروائح، أو نظن أننا ندركه؟ إجابة هذا السؤال تتوقف عليها إجابات جميع الأسئلة بمختلف أنواعها".[٢]

إن رحلة البحث عن الحق ليست بالسهولة التي تبدو عليها للوهلة الأولى لأنها تواجهنا بعناصر هامة تمثل جزءًا أساسيًا من عملية صنع القرار، وهذه العناصر هي طبيعة الواقع (التي تتغير خارجيًا)، وأنواع الواقع (العالَم المادي، عالم الأفكار ... إلخ)، ووسائل المعرفة (الحواس أو العقل)، مما يؤدي باختصار إلى ازدياد كثافة الضباب. وعندئذٍ ما أسهل أن ننحرف في طرق نائية وندخل معركة فلسفية قاسية مع ممثلي المدارس الفكرية المختلفة. ففيما بين طرفي النقيض: العقلانية (السعي نحو اليقين العقلاني الذي لا يحتمل الشك) والإيمانية (التي تؤسس كل المعرفة على الإيمان) تواجهنا سيول عارمة من المذاهب الأخرى التي يزعم كل

منها، على طريقته الخاصة، أنه وصل للحق. ومنها اللاأدرية، والتجريبية، والمذهب القائم على الإثبات بالأدلة، والبراجماتية×، والجامعة Combinationalism. وسأناقش المذهب الأخير لاحقًا.[٣]

كان اليقين العقلاني دائمًا القبة البراقة على صرح الفلسفة الشامخ، سواء أكان هذا وهمًا أم حقيقة. فأبو اليقين العقلاني في العصر الحديث هو "رينيه ديكارت" René Descartes. وقد وجد نقطة انطلاقه في الشعار الذي أطلقه "أنا أفكر إذَن أنا موجود". ثم اختزل "داڤيد هيوم" David Hume العبارة وقال إننا لابد أن نحذف كلمة "أنا" ونتوصل إلى خلاصة أكثر تأكيدًا: "أنا أفكر إذَن التفكير موجود". ولكن "هانس دريش" Hans Driesch عالِم الأحياء الدنماركي ذهب خطوة أبعد وقال: "أنا شيء (لا يمكنني أن أعرف ماهيته أو مصدره على وجه اليقين) في هذه اللحظة عينها التي أطرح فيها هذا السؤال".[٤] وكل هذا يذكرني بطالب في جامعة نيويورك طرح هذا السؤال بشكل أخافَ أستاذه: "سيدي، كيف أعرف أني موجود؟" سبقَت إجابة الأستاذ فترة صمت طويلة. ثم خفض نظارته، وطل من فوق إطارها وثبَّت عينيه على الطالب. وأخيرًا جاءت إجابته بسيطة: "ومَن الذي يسأل إذَن؟" لحسن الحظ أو لسوئه، أن بعض الأمور في الحياة يستحيل إنكارها.

لقد وثق "ديكارت" ثقة عمياء في قوة العقل البشري وحده دون أي وسائل مساعدة. واستخدم أسلوب الشك والرياضيات التطبيقية ليرسم صورة لعلم طبيعي أساسي مكتمل يمكن إثباته باليقين الرياضي. وكان العقل عنده مثل صندوق يحتوي الحقيقة ويَحُدُّها. لقد بحث "ديكارت" عن أساس متين للمعرفة يقوم على قدرة العقل على الشك. وأراد أن يبني على هذا الأساس قوالب من الكلمات الواضحة والأفكار الجلية والمفاهيم ذات المعاني المحددة. إلا أن تطرف هذا الموقف الديكارتي أدى به لدفع ثمن باهظ في محاولته للعبور من وادي الشك الضبابي إلى جبل المعرفة الصافية.[٥] وكان ذلك الثمن ضَعف الثقة في الحواس أو انهيارها. ومن هنا جاء ظهور

× موقف فلسفي يؤمن بأن قيمة الأفكار تتحدد وفقًا لعواقبها العملية فقط. (المترجمة)

التجريبيين البريطانيين في المشهد باعتباره رد فعل لهذا الموقف بإعطائهم الأولوية للتجربة الحسية.

إن السعي لليقين العقلاني عمل عظيم، وحتى إن تضمن هذا النموذج بعض أوجه القصور، إلا أنها يجب ألا تلغي ما به من نقاط قوة. فللعقل دور محوري ولا يمكن أن نفقده باعتباره أحد العناصر المهمة في تكوين الفلسفة الحياتية للمرء. إلا أنني الآن أود أن أشير إلى الجانب الآخر من هذا المنهج وألفت الانتباه إلى تحذير مهم. فعندما نتناول الواقع بأكمله، يستحيل أن نفرض اليقين الرياضي على كل محك نختبر به الحق. فالحياة لا تعاش بهذه الطريقة والحقيقة أن العلم ينهار إن كان يؤمن بذلك باستمرار مع كل خطوة يخطوها. حتى إن أينشتاين نفسه تحدى هذا اليقين الوهمي في الرياضيات بقوله: "إن الفرضيات الرياضية ليست يقينية من حيث ارتباطها بالحقيقة، وحيثما تكون يقينية فهي لا تشير إلى الحقيقة".[٦] لذا يجدر بنا أن نصِف بحثنا على أنه محاولة للوصول إلى درجة عالية من اليقين، أو اليقين الذي له معنى، أي أن الوصول إلى درجة عالية من يقين له معنى أسهل وأوقع من اليقين الرياضي.

ولابد أن نعي أن المرء لا يصل إلى الحقيقة عن طريق عنصر وحيد من عناصر اختبار الحق، بل عن طريق إطار متعدد الوجوه متكامل العناصر. فكل شخص حياته عبارة عن مزيج من عقلانية الفكر، والمعرفة الصادرة عن الحواس، وتأثير الخيال، ومحددات الإرادة. والمعضلة هي أين ومتى يجب أن يعمل كل عنصر من هذه العناصر؟ إن اختزال عملية المعرفة عند الإنسان إلى هذه المكونات وكأنها تعمل بالاستقلال بعضها عن بعض يعني تشويه الإنسان كشخص وتدمير طبيعة الحقيقة. فإن كان اليقين العقلاني هو السبيل الوحيد وكل معرفة للحقيقة لا يمكن تأكيدها إلا على أساس ما يقوم به العقل من تحليل نقدي، فهذا يعني أن الطفل يستحيل أن يعرف الله أو يختبره. أوَليست هذه إحدى القفزات الانتحارية في عقيدة وحدة الوجود pantheism[×] حيث صار الدين من التعقيد والغموض حتى أصبحت معرفة هوية الإنسان حكرًا على الصفوة من المتخصصين؟ وهكذا غالبًا ما تخلط الكثير

× يُعَرف "قاموس أكسفورد" وحدة الوجود بأنها الاعتقاد الذي ينظر لله والكون باعتبارهما وحدة واحدة، أو يعتبر الكون تجليًا لله. (المترجمة)



من الفلسفات الشرقية المصطلحات والمفاهيم التي تستعصي على الإدراك في محاولتها لفهم معنى "الذات".

فعندما نتناول الواقع بأكمله، يستحيل أن نفرض اليقين الرياضي على كل محك نختبر به الحق.

وأؤكد مجددًا أن دور العقل أساسي ولا غنى عن عمله للوصول إلى فلسفة حياتية متينة تصمد أمام النقد والهجوم.ولكن العقل نفسه يخبرنا أن البشر كائنات مركبة من عناصر عديدة، وأي محاولة للإخلال بوضعنا هذا أو اختزالنا تسيئ إلى هذا المبدأ. إلا أن العقلاني المتصلب يمكن أن ينتهي به الأمر إلى الوقوع في غرام حقيقة واحدة صغيرة. والتطرف في الاحتكام لليقين باعتباره الفيصل الوحيد في الحكم على الحقيقة يقلل من شأن الفرد. ولذلك كان طبيعيًا أن تسود حالة من الاغتراب عقب انتشار فكر التنوير× Enlightenment. فعندما صار اليقين العقلي هو السيد وأصبحت قوة العقل وحدها هي المسيطرة على الحق شعر العامة بالاغتراب عن العالم الحقيقي، لأن الشخص العادي لا يناقش "كانط" Kant ولا "ديكارت" وهو يتناول عشاءه. فمع عظمة ما قدماه وقيمته، إلا أنهما شيدا حائطًا شاهقًا عريضًا لن ينجح الشخص العادي في تسلقه أبدًا. وقد كان شعور الإنسان بأنه غريب عن عالمه ومستبعد منه هو ما مهد الطريق لمولد الوجودية (قدرة الإرادة على قهر اليأس). فهل ننسى فترة الستينات من القرن العشرين عندما كان طلاب الجامعات يجلسون مع أشهر الأساتذة آنذاك على العشب الأخضر في أفنية الجامعات ويدخنون الحشيش متحدين كل السلطات والمرجعيات؟! لقد فشل طريق العقل المطلق.

ورغم كل ما ذكرته، يجب على من يسعى لمعرفة الحق ويتعامل مع الحياة انطلاقًا من الإدراك الحسي المحض أن ينتبه للمحاذير نفسها التي تناولناها آنفًا. فإن كان التلسكوب يساعدنا، فهو يحذرنا أيضًا من خطورة الاعتماد على

× حركة فكرية نشأت في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر تؤكد قيمة العقل والفردية في مقابل التقليد. (المترجمة)

الإدراك الحسي وحده لما قد ينتج عنه من افتراضات خاطئة لأنه لا يُظهر دائمًا الأشياء كما هي.

الاحتفاظ بحالة التوازن:

إن كانت الحقيقة تؤثر علينا بالعديد من الطرق المختلفة كما رأينا، فنحن نحتاج لنموذج أو فلسفة حياتية تقدم شرحًا منطقيًا لحقائق هذا العالَم التي خضعت للاختبار وثبت أنها حق، بحيث يمكن بعد ذلك دمجها معًا لتجعل من الحياة وحدة كلية مركبة.

وأود هنا أن أستعير تصويرًا من "فرانسيس شيفر" Francis Schaeffer لتوضيح حاجتنا إلى هذا النهج. هب أنك تركت في الغرفة كوبين على المنضدة، الكوب (أ)، والكوب (ب). الكوب (أ) به ٦٠سم٣ من الماء، والكوب (ب) فارغ. وعندما عدت للغرفة في نهاية اليوم وجدت أن الكوب (ب) يحتوي على كمية من الماء، والكوب (أ) فارغ. فافترضت أن شخصًا أفرغ الماء من الكوب (أ) وصبه في الكوب (ب). ولكن هذا الافتراض لا يشرح الموقف بالكامل لأنك لاحظت أن الكوب (ب) يحتوي على ١٢٠سم٣، في حين أنك عندما خرجت من الغرفة في الصباح لم يكن في الكوب (أ) سوى ٦٠سم٣.

فأنت الآن تواجه مشكلة لن تجد لها في أحسن الأحوال إلا تفسيرًا جزئيًا. لأن احتمال صب الماء من الكوب (أ) إلى الكوب (ب) أمر قابل للمناقشة، ولكن ما يخرج عن نطاق المناقشة هو أنه يستحيل أن يكون الكوب (أ) هو مصدر كل كمية الماء الموجودة في الكوب (ب). فالكمية الإضافية لابد أنها أتت من مكان آخر.

لقد وضع الله في العالم ما يكفي لجعل الإيمان به خيارًا منطقيًا للغاية، وأخفى ما يكفي لأن يجعل الحياة بمقتضى العقل وحده أو الملاحظة الحسية وحدها أمرًا مستحيلاً. فالعلم قد يمكنه أن يفسر الستين سنتيمتر مكعب في الكوب (ب)، ولكن لا يمكنه تفسير المئة والعشرين.

لقد وضع الله في العالم ما يكفي لجعل الإيمان به خيارًا منطقيًا للغاية، وأخفى ما يكفي لأن يجعل الحياة بمقتضى العقل وحده أو الملاحظة الحسية وحدها أمرًا مستحيلاً.

والنظرة المسيحية المؤسسة على الكتاب المقدس تقدم تفسيرًا قويًا فريدًا لهذه "الكمية الإضافية". وقد أظهر المدافعون المعاصرون بقدرة فائقة على الإقناع أن النموذج الإيماني أكثر مصداقية وقدرة من النموذج الإلحادي في معالجة ما تطرحه الفلسفة من أسئلة حقيقية.[٧] وهذا هو الأساس الصلب الذي تقيم عليه الفلسفة الحياتية المسيحية بناء فكريًا يضاهيه في صلابته. وأيًا كانت نقطة البدء التي ننطلق منها، سواء الفلسفة متبوعة بالكتاب المقدس أو الكتاب فقط الذي يجده الكثيرون كافيًا لهم، تأتي الإجابات في منتهى المنطقية والإقناع. فكمية الماء الأصلية والكمية الإضافية تجدان أفضل تفسير لهما في النموذج الإيماني. وتتراوح الحجج بين البسيط والمعقد وفقًا للسؤال وللسياق الذي يوضع فيه.

لقد جمع يسوع في خدمته الأرضية بين طرفي النقيض على نحو مذهل، بما أحدثه من توازن في الحق وما شرحه من تفاصيله، حتى إنه أبهر الناموسيين، والأطباء، ورجال الدين بما كان له من سلطان وحجج لا تُهزم. وقيل عنه إنه أدهش أساتذة هذا العصر. ولكن المدهش أيضًا أنه جذب حتى العامة، "وكان الجمع الكثير يسمعه بسرور". فبولس المعلم اليهودي، ولوقا الطبيب، وبطرس الصياد وصلوا جميعًا إلى نوع من إدراك للحقيقة لم يتمتعوا به قبل أن فتح الرب يسوع عقولهم وقلوبهم للحق.

وهذا هو مكمن التحدي لأن مَن يجيب عن السؤال دائمًا ما يجد نفسه حائرًا بين الوفاء بمتطلبات الموضوع المطروح وقدرة السائل على استيعاب المفاهيم المقدَّمة في الإجابة. فأستاذ كامبريدچ الشهير "ستيڤن هوكينج" مثلاً معروف بموهبته في استخدام خبرته الفنية لشرح طبيعة الكون بأسلوب يفهمه الشخص العادي غير المتخصص. إلا أن القارئ سرعان ما يكتشف أنه كلما ازداد السؤال عمقًا، جاءت إجابات "هوكينج" مشتّتة حتى لأفضل المتعلمين والمتخصصين.



تذكر الهدف:

على المرء أن يواصل التسلق حتى يبلغ ارتفاع يختفي فيه الضباب، إلا أنه يجب ألا يفرط في التسلق لئلا يصل إلى ارتفاع يصعب عليه التنفس فيه. فكيف نعرف أننا وصلنا إلى تلك النقطة المناسبة التي توفر لنا رؤية واضحة للأمور؟ إن تمكنًا من تحديد هدفنا بوضوح، سنتمكن من الإجابة عن هذا السؤال. وأعتقد أن أفضل تعريف للهدف هو: إخضاع معرفتنا بالواقع لاختبارات دقيقة تحدد مصداقيتها حتى يمكننا بلوغ فلسفة حياتية تجيب عن الأسئلة المتعلقة بأصل الإنسان، ووضعه الأخلاقي، وخلاصه، ومصيره. ويمكن تعريف الفلسفة الحياتية worldview بأنها النظارة الفلسفية التي يرتديها المرء ليرى عالم الأفكار والخبرات والأغراض. وتمثل الفلسفة الحياتية إطارًا مفاهيميًا شارحًا يفسر "رؤيتنا" للعالم وأفعالنا.[٨]

ولكل إنسان فلسفة حياتية سواءً أكانت قد تكونت عن قصد أو عن غير قصد. لذلك، فالحيادية وهم. وما أقوله يتضمن عاملين لا مفر منهما. الأول: أنه حتى تتمكن الفلسفة الحياتية من الصمود أمام الفحص الذي يختبر مصداقيتها لابد أن تشتمل على مجموعة من المكونات. والثاني: أن الفشل في العامل الأول يُنتج فلسفة حياتية معيبة تترتب عليها عواقب يتناسب حجمها مع حجم العيوب التي تشتمل عليها هذه الفلسفة. (يقدم الملحق الثاني شرحًا وافيًا لعملية تأسيس فلسفة حياتية تتمتع بالمصداقية وكيفية الدفاع عنها).

وأثناء تسلقنا وسط الضباب بقدراتنا المحدودة وقابليتنا للخطأ، وبينما نحاول أن نصل إلى قمة جبل المعرفة الصافية، يؤكد لنا الكتاب المقدس بكل يقين أن معرفة الحق متاحة لنا. فقد كلمَنا الله بطرقٍ كثيرة. ولم يترك نفسه بلا شاهد. بل إن الكتاب المقدس يقول إن الدلائل التي تؤكد تواصل الله وطريقته في التواصل يجعلان الجميع بلا عذر. إلا أن الشرط الأساسي لبلوغ الحق هو صدق النية. فالعقل الذي يميل لكبت الحق أو عرقلته لن يجد في النهاية إلا الكذب الذي كان يسعى إليه. وقد عبَّر الكاتب الاسكتلندي "چورچ ماكدونالد" George MacDonald عن هذه الفكرة بإيجاز ووضوح: "إن شرح الحق لمن لا يحبه يقدم له مزيدًا من المواد

ليسيء تفسيرها".[٩] وأكد "ريتشارد ويڤَر" Richard Weaver أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة شيكاغو سابقًا الفكرة ذاتها:

> لطالما رأينا أنه لا فائدة من أي جهد لو كانت الإرادة خاطئة. فالعقل وحده عاجز عن تبرير نفسه. ... والتوجه الخاطئ يجعل العقل أكثر إيذاءً. ولكن إن كان التوجه سليمًا، فالعقل يطلب الخير ويدعمه.[١٠]

وقد أكد المسيح أيضًا أهمية الموقف الصحيح من الحق عندما أقام ولدًا صغيرًا في الوسط ليشرح فكرة ملكوت السموات. ولكنه لم يقصد أن نكون كالأطفال من حيث صفاتهم الصبيانية وكثرة أخطائهم، بل من حيث صدقهم وقابليتهم للتعلم ببراءة.

ولكن يجب ألا ننظر إلى الأساليب العلمية أو الفلسفية، وإلى الإيمان بالله باعتبارهما منهجين متعارضين في الوصول إلى الحقيقة، لأن هذا الافتراض يعكس سوء فهم لطبيعة كل منهما. فليس من قبيل المصادفة أن البيئة المسيحية هي التي وفرت التربة الخصبة لازدهار الفكر والعلم. ومحبة الله تستثير محبة لمعرفة العالم الذي خلقه. وهكذا فإن مقاصد الله نفسها لا تعيق البحث عن المعرفة والحق، بل توجهه وترشده. وقد قال "ج. ك. تشسترتون": "الله مثل الشمس. لا تستطيع أن تنظر إليها، ولكنك بدونها لا تستطيع أن ترى شيئًا".

فكيف لله أن يُقنع الإنسان متعدد الملَكات بأن يُقبل إلى الحق؟ أدعوك قارئي العزيز أن نصعد لنرى من فوق الضباب ونخترقَ كثافته بعيني الله.

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- يقول الكاتب إنه عند الانتقال من الإلحاد إلى الإيمان "قبل أن نبدأ رحلتنا لابد أن نفهم العملية التي نستخدمها لنتأكد من صدق أحد المعتقدات أو زيفه". (للاطلاع على معالجة تفصيلية لهذه العملية، انظر الملحق الأول). كيف يمكنك أن تبدأ رحلة البحث عن الحق المتعلق بالإيمان؟ وهل اليقين العقلي هدف مرغوب أو قابل للتحقيق في هذه القضية؟

٢- ناقش هذه العبارة: "لقد وضع الله في العالم ما يكفي لجعل الإيمان به خيارًا منطقيًا للغاية، وأخفى ما يكفي لأن يجعل الحياة بمقتضى العقل وحده أو الملاحظة الحسية وحدها أمرًا مستحيلاً". ما الذي تفهمه من هذه العبارة عن الإنسان باعتباره كائنًا متعدد الملكات (أي أنه كائن عاقل، علاقاتي ... إلخ) وعن كيفية وصوله إلى معرفة الله؟

٣- اشرح ما قصده "تشسترتون" بقوله: "الله مثل الشمس. لا تستطيع أن تنظر إليها، ولكنك بدونها لا تستطيع أن ترى شيئًا". ما هي تداعيات الفلسفة الحياتية الإلحادية في ضوء الخلاصة التي توصل إليها "تشسترتون"؟

٧



عيون أكبر

ليست مشكلة المسيحية أنها جرُبَت ووُجدَت ناقصة، بل أنها وُجدَت صعبة فلم تجرَّب.

"ج. ك. تشسترتون"

حضرْتُ محاضرة للدكتور "ستيڤن هوكينج" بعنوان: "الحتمية: هل الإنسان عبد القَدر أم سيده"؟ ومَن قرأ كتاب "تاريخ مختصر للزمن" للدكتور "هوكينج" لابد أن يكون قد رأى صورته على الغلاف الخلفي وهو يجلس على كرسي متحرك، لأن المسكين مريض بداء التصلب العصبي الجانبي الذي يسبب ضمور الجهاز العصبي، حتى أصبح حبيس هذا الكرسي المتحرك وكل ما تبقى عنده مِن نشاط تقريبًا هو في عقله بعد أن تآكلت كل قدراته الجسدية والحركية. وأنا أذكر هذا الكلام حتى أثير سؤالاً واحدًا: كيف يمكن لشخص بلا صوت أن يلقي محاضرة؟

وهذا هو الشيء المدهش، فقد وُضع أمامه وهو في كرسيه المتحرك جهاز يجسد عبقرية التكنولوجيا الحديثة. فهذا الجهاز ببرامجه ومكوناته يساعده على اختيار الكلمات وتكوين الجمل التي تتحول إلى مادة مسموعة عن طريق مُجَمِّع للكلام ابتكرته إحدى كليات كاليفورنيا المرموقة، ويبدأ بمقدمة لطيفة للدكتور "هوكينج" يعتذر فيها لجمهوره الإنجليزي عن لهجته الأمريكية.

والأغرب أن الدكتور "هوكينج" يدير هذه العملية كلها بحركة ضئيلة من إصبع واحد فقط لا تبلغ سوى واحد ملليمتر. وإن توقفَت هذه الحركة الضئيلة، فما زالت لديه قدرة أخرى، إذ يرسل الجهاز أشعة تحت الحمراء لعينه تنقطع بطرفة



العين، مما يمكّنه من اختيار الحروف والكلمات التي يريد استخدامها. وهكذا يتمكن واحد من أشهر علماء العالم أن يحول فكره إلى كلام مسموع باستخدام هذه الآلة سواء بطرفة عين أو حركة إصبع . ولولا هذه الأداة الاستثنائية التي تمده بقدرات صوتية رغم توقف وظائف جسمه وعضلاته، لأصبحت كل مادته العلمية عديمة الفائدة.

ولكن من أكثر ما استرعى انتباهي في هذه المحاضرة أن أشاهد هذه العملية وأستمع لهذا المفكر الأسطوري وهو يناقش ما إذا كنا نتاجًا للصدفة العشوائية. ومن ثم، فنحن لسنا أحرارًا. أم أن الله صمم هذه القوانين التي نمارس حريتنا في حدودها. وتساءلتُ ما إذا كان أي من الحاضرين سيغادر هذه القاعة المكتظة متسائلاً عما إذا كان هذا الجهاز العجيب الذي يستخدمه الدكتور "هوكينج" نتج من تصميم معين، أم بالصدفة! إنه جهاز تطلّب تصميمه أرقى القدرات البشرية.

١. في البدء - الله:

يستحيل على أي شخص سليم العقل أن يصدق أن القاموس تكوَّن بفعل انفجار حدث في إحدى المطابع ، لأن كل منتَج له تصميم في الخبرة البشرية يشير إلى مصمم. والحجة قديمة قِدم الجبال حرفيًا ومجازيًا. لذلك، مهما رفع المجتمع الفكري صوته قائلاً "صدفة" فهذا لا يهم، لأنهم لم يتمكنوا من غزو الفراغ المريع الذي خلقته الحتمية وينتهي بهم الأمر إلى تقديم حجج لها تصميم ليدحضوا فكرة التصميم.

والعلم يفقد قدرته على الإقناع عندما يحاول أن يؤسس لفكرة خروج الشخصية من اللاشخصية، وهو لا يعرف كيف يتعامل مع تنوع الأثر إنٍ كان المسبب الأولي يتسم بالوحدة وليس بالتنوع. فالجانب الجنسي مثلاً عند الإنسان لا يمكن شرحه شرحًا مُرضيًا مقنعًا بفكرة التطور العشوائي. والمشاعر البشرية بكل ما فيها من تعقيد وعمق تجعل من فكرة العشوائية حجة واهية حمقاء.

الإنسان يدلي بشهادته:

الحجة التي تحتكم إلى التصميم argument from design هي المنهج الذي استخدمه الله مع أيوب عندما أنهكته آلامه وبدأ يبحث عن تفسير مُنْصِف لها. والفكرة التي كانت تنطوي عليها تساؤلات أيوب باستمرار أنه "يعرف" الكثير والكثير، والآن هو يريد أن "يعرف" لماذا يعاني رجل بريء. وتُبين أحداث القصة أن أيوب يمطر أصدقاءه الفلاسفة بوابل من الأسئلة وهم يبذلون قصارى جهدهم للإجابة عنها. إلا أنهم فشلوا فشلاً محققًا في إصابة الهدف. وأخيرًا خرج الله من صمته متحديًا فرضيات أيوب ومذكرًا إياه أن هناك ملايين الأشياء التي لا يعرفها ولكنه يقبلها ويصدقها بناء على الأدلة المنطقية التي تشير إليها. ولنلاحظ الجمال والتفاصيل فيما يطرحه الله على أيوب عن دقة هذا الكون. وكأن الله يقول: "حسنًا يا أيوب. ما دمت لا تقبل إلا ما يحيط به فهمك، دعني ألقي عليك بعض الأسئلة".

فأجاب الرّبُّ أيُّوب من العاصفة وقال:

من هذا الّذي يُظلِمُ القضاء بكلامٍ بلا معرفةٍ؟

اُشدُد الآن حقويك كرجُلٍ فإنّي أسألُك فتُعلّمُني.

أين كُنت حين أسّستُ الأرض؟ أخبر إن كان عندك فهمٌ.

من وضع قياسها؟ لأنّك تعلمُ! أو من مدّ عليها مطمارًا؟

على أيّ شيءٍ قرّت قواعدُها أو من وضع حجر زاويتها...

ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرّحم.

إذ جعلتُ السّحاب لباسهُ والضّباب قماطهُ

وجزمتُ عليه حدّي وأقمتُ لهُ مغاليق ومصاريع

وقُلتُ: إلى هُنا تأتي ولا تتعدّى وهُنا تُتخمُ كبرياءُ لُججك؟...

هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو في مقصُورة الغمر تمشّيت؟

هل انكشفت لك أبوابُ الموت ...

أين الطّريقُ إلى حيثُ يسكُنُ النُّورُ والظُّلمةُ أين مقامُها

حتّى تأخُذها إلى تُخُومها ...

أدخلت إلى خزائن الثّلج أم أبصرت مخازن البرد

الّتي أبقيتها لوقت الضّرّ ليوم القتال والحرب؟

في أيّ طريقٍ يتوزّعُ النُّورُ وتتفرّقُ الرّيحُ الشّرقيّةُ على الأرض؟

من فرّع قنواتٍ للهطل وطريقاً للصّواعق

ليمطُر على أرضٍ حيثُ لا إنسان. على قفرٍ لا أحد فيه

ليُروي البلقع والخلاء ويُنبت مخرج العُشب؟

هل للمطر أبٌ ومن ولد مآجل الطّلّ؟

من بطن من خرج الجليدُ؟ صقيعُ السّماء من ولدهُ؟

كحجرٍ صارت المياهُ. اختبأت. وتلكّد وجهُ الغمر.

هل تربطُ أنت عُقد الثُّريّا أو تفُكُّ رُبُط الجبّار؟

أتُخرجُ المنازل في أوقاتها وتهدي النّعش مع بناته؟

هل عرفت سُنن السّماوات أو جعلت تسلُّطها على الأرض؟ ...

من وضع في الطّخاء حكمةً أو من أظهر في الشُّهُب فطنةً؟

من يُحصي الغُيُوم بالحكمة ومن يسكُبُ أزقاق السّماوات

إذ ينسبكُ التُّرابُ سبكاً ويتلاصقُ الطّينُ؟

أتصطادُ للّبوة فريسةً أم تُشبعُ نفس الأشبال

حين تربضُ في عرينها وتكمُنُ في غابتها للكُمُون؟

من يُهيّئُ للغُراب صيدهُ إذ تنعبُ فراخُهُ إلى الله وتتردّدُ لعدم القُوت؟...

وقال الرّبُّ لأيُّوب:

هل يُخاصمُ القدير مُوبّخُهُ أم المُحاجُّ الله يُجاوبُهُ؟.

أيوب ٣٨: ١- ٤٠: ٢

طرح الله على أيوب أربعة وستين سؤالاً حيث عرض عليه الأسرار العظمى لهذا الكون المتقن الذي يتميز بقابليته للفهم وبغموضه في الوقت نفسه. وعندئذٍ دُهش أيوب عندما رأى هذا البهاء بعينيه. فبعد أن أصبح مستعدًا لرؤية غرض الحياة كلها بعيني الله أدرك أن المصمم الذي صمم هذا العالم يستطيع أيضًا أن يُخرج من معاناته تصميمًا له معنى.

والقصة التالية توضح أننا نحن البشر محدودي البصر عندما نرى بدرجة ٦ / ٦ يتغير إدراكنا للأمور تمامًا.

> كنت في القطار متجهًا إلى شيكاغو وجلست خلف رجل وابنه الصغير الذي بدا مشدوهًا بالمناظر التي يمر بها القطار وكان يصف لأبيه كل ما يراه. فأخبره عن أطفال يلعبون في فناء مدرسة.
>
> وحدثه عن صخور في جدول ماء صغير ووصف له انعكاس أشعة الشمس على صفحة الماء. وعندما توقف القطار أثناء مرور قطار بضاعة، حاول الصبي أن يخمن ما تحويه كل عربة. وعندما اقتربنا من المدينة عبر عن إعجابه بأمواج بحيرة ميتشيجن وأخبره عن المراكب الكثيرة في مراسيها. وفي نهاية الرحلة مِلت إلى الأب وقلت له: "ما أبهج أن تستمتع بالعالم بعيني طفل!" فابتسم وأجابني: "نعم. وخاصة



إن كانت هذه وسيلتك الوحيدة لرؤيته". كان الرجل كفيفًا.

إن الملحد يفتقد للرؤية بعيني أكبر من عينيه. وهو يواجه في حياته كونًا مفهومًا وغامضًا في آن. ولكنه في ظل خضوعه المطلق لفلسفته الطبيعية يحاول أن يلغي البعد الغامض، فتبوء محاولاته بالفشل، ويقضي على البعد المفهوم في الكون. فرفض الملحد للمعجزات يحرمه مما يميز العالـَم نفسه من طبيعة معجزية. وفي الوقت نفسه، إنكاره للمعجزات لا يحل معضلة أصل الحياة لأن المعجزة حتى لو كانت بطيئة تتمتع بما تتمتع به المعجزة السريعة من إبهار.[١]

يُحكى أن رجلاً كان يصطاد، وكلما أمسك سمكة كبيرة ألقاها بعيدًا، وكلما أمسك سمكة صغيرة احتفظ بها. وكان رجل آخر يشاهده فاشتد غيظه من هذا الأسلوب الغريب في اختيار الأسماك وسأله مندهشًا عن سبب تصرفه. فأجاب الرجل بكل بساطة قائلاً: "ليس عندي إلا مقلاة قطرها ٢٠ سم، فالأسماك الأكبر لا تناسبني".

إنكاره للمعجزات لا يحل معضلة أصل الحياة لأن المعجزة حتى لو كانت بطيئة تتمتع بما تتمتع به المعجزة السريعة من إبهار.

وهذه القصة عبارة عن نسخة فكاهية من الأسطورة الإغريقية القديمة التي تحكي عن صاحب الفندق الذي كان عنده سرير صغير جدًا. فكلما أتاه ضيف طويل جدًا كان ينشر أطرافه لتناسب طول السرير.

وهكذا كلما عجز صاحب المذهب الطبيعي عن تفسير حدث ما لجأ إلى تغيير حجمه بحيث يناسب رؤيته الشخصية. ومن ثم، فدعاة المذهب الطبيعي يفضلون أن يصدقوا أن الحياة بدأت في هذا العالم بفعل بكتريا انطلقت إليه بصاروخ موجَّه.

ولكن داود يُذكرنا في مزمور ١٩ أن بهاء الكون هو صنعة يدي الله وتعبير عنه:

> السموات تحدث بمجد الله. والفلك يخبر بعمل يديه. يوم إلى
> يوم يذيع كلامًا وليل إلى ليل يبدي علمًا. لا قول ولا كلام.

لا يسمع صوتهم. في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى
المسكونة كلماتهم.

والرسول بولس عبَّر عن الموضوع نفسه ليؤكد أن قدرة الله السرمدية تتجلى في الخليقة تمامًا كما تتجلى في العقل البشري (رو ١: ٢٠). أي أن الله تكلم من الخارج ومن الداخل، ولكن البشر في إصرارهم على الانغماس في ملذاتهم يحجزون الحق ويَغفلون عن ملاحظة بصمة الله الواضحة.

وبذلك تصبح مأساة الملحد مزدوجة. فمن ناحية، جهوده تعجز عن أن تُنتج المعرفة الكاملة التي يسعى إليها. ولكنه من ناحية أخرى، نظرًا لجوعه الشديد للمعرفة، يستمر في محاولة اقتحام المناطق الخفية الغامضة في الكون معتقدًا أنه يمكنه الإحاطة بها بعقله، فيفقد الشعور بالإعجاب والمهابة وبهجة الرضا التي يتمتع بها المؤمن.

الانفلات من سجن الحتمية:

المسيحي يتعامل مع المعرفة من منظور مختلف تمامًا. فهو يرى أن الله خلق البشر في وضع فريد جدًا يتعاملون به مع العالم. وأفضل وصف يُعبر عن هذا الوضع هو أنه "حالة وسط تجمع بين تجاوز الكون المادي والتقيد به" "semitranscendence" وهذا هو المنظور الذي يرى الإنسان به نفسه وعالمه. والوحيد الذي يمكنه أن يفسر هذه القدرة الضرورية هو الله الخالق، هذا إن أراد الإنسان أن يُكون افتراضات سليمة موثوقًا بها عن نفسه وعن العالم. وقد شرح هذا المنظور الراحلُ "كولين جنَتون" وهو من أبرز اللاهوتيين البريطانيين:

> نحن لا نقف في موضع أعلى من العالم الطبيعي مثل الله، كما تزعم عقلانية التنوير، ولا نحن تحت رحمة شيء غريب جدًا وغير مفهوم كما ترجح بعض أشكال الوجودية باعتبارها رد فعل مضاد للعقلانية. بل إننا قادرون على معرفة العالم، وإن كانت معرفتنا مشوبة بالنقص والخطأ ولا تهدف إلى بلوغ العلم المطلق. وذلك، لأننا جزء منه وقادرون على تجاوزه في الوقت نفسه بفضل قدراتنا الشخصية على الإدراك، والتخيل، والتفكير

> المنطقي. ... فالإنسان ليس الله، فلا هو كلي القدرة ولا كلي المعرفة، ولكنه أحد المخلوقات. إلا أن هذا المخلوق يتمتع بقدرة محدودة على تجاوز هذا العالم، حيث إنه مخلوق "على صورة الله وشبهه" ليحكم الأرض، لا وفقًا لنموذج الحكم التكنوقراطي الحديث الذي يعتمد على ذوي التخصصات المهنية والأكاديمية بل كالبستاني المسئول عن حديقته، وهو دائمًا ما يفعل ذلك تحت سلطان الله.[٢]

وفيلسوف العلوم "مايكل پولاني" Michael Polanyi يطرح هذه الفكرة عن الحالة الوسط بين التسامي عن الكون المادي والتقيد به في واحد من كتبه الذي ترك آثارًا عميقة بعنوان "المعرفة الشخصية" Personal Knowledge. فقد بيَّن أنه ما دام العالم متاحًا لمعرفتنا الشخصية، فهذا يشير إلى حقيقة وجود الله. ومن ثم، فالمسيحي حر من الحتمية من ناحية، وحر من التسامي التام من ناحية أخرى. أما الملحد فهو حبيس هذا أو ذاك.

قال أحدهم: "إن أردت أن تسمع الله يضحك، أخبره بخططك". ويمكنني أن أضيف: "إن أردت أن تسمعه يضحك بصوت أعلى أخبره بما تعرف". وفي ضوء هذه الفكرة، أظن أن ملاحظة "روبرت چاسترو" Robert Jastrow الثاقبة في كتابه "الله وعلماء الفلك" God and the Astronomers أبرزت هذه الضحكة الأخيرة بوضوح. فهذا العالِم ذو المؤهلات الرفيعة الذي شغل منصب مدير "معهد جودارد لدراسات الفضاء التابع لناسا" NASA's Goddard Institute for Space Studies قال:

> التفاصيل تختلف ولكن العناصر الأساسية في الشروحات الفلكية والكتابية لسفر التكوين واحدة. ...
>
> وهذا الإنجاز في منتهى الغرابة وهو مفاجئ للجميع ما عدا اللاهوتيين الذين طالما آمنوا بكلام الكتاب. ولكننا نحن العلماء لم نتوقع أن نجد أدلة على حدوث بداية مفاجئة لأننا حتى وقت قريب كنا نحقق إنجازات باهرة في تتبع سلسلة السبب والأثر بالرجوع في الزمن من الحاضر إلى الماضي. ...

> ولكن الآن يبدو وكأن العلم لن يتمكن أبدًا من رفع الستار عن غموض عملية الخلق. وهو ما يجعل القصة تنتهي كحلم مزعج بالنسبة للعالِم الذي عاش على الإيمان بقوة العقل. فقد تسلق جبال الجهل وكان على وشك أن يغزو أعلى قممها، ولكنه قبيل وصوله إلى آخر صخرة يصادف مجموعة من اللاهوتيين يُحيونه من على القمة، والمفاجأة أنهم سبقوه إلى هناك منذ قرون.[٣]

إن اعتراف المسيحي بالله باعتباره الخالق ينطوي على حق في غاية الأهمية ومن شأنه أن يُحدث تغييرًا جوهريًا في الحياة. فالكتاب يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الله خلقنا في محبته. أي أن الحياة لم تسبق المحبة، بل المحبة هي التي سبقت الحياة. ومحبة الله هي ما منحتنا حياة في الخلق، مثل محبة الأم التي تُمكن الجنين من الحياة في الإنجاب. وأي محاولة لنفي محبة الله تنفي تصميمه وتُحدث خللاً في الحياة لأنها ترفض الدافع وراء خلق الحياة.

ويمكن للمرء أن يكتشف بكل سهولة أن الفشل في تفعيل دور المحبة جعل المجتمع الحديث أكثر المجتمعات إجهاضًا للحياة على مر التاريخ. والأنانية عكس المحبة، وهكذا فإن حقوق الأم التي تَحْمِل الطفل قتلت المحبة اللازمة لإعطاء الحياة. فقد انتقلنا من شعار "عش ودع الآخرين يعيشون" إلى شعار "عش وليمُت الآخرون". إن الحب هو أول قوانين الخلق، وإن كان الحب يسبق الحياة فلابد للحياة حتى تعقبه أن تعيش داخل حدود هذا الحب.

٢. سيادة الخير:

المبدأ الثاني في المبادئ الجوهرية للإيمان بالله الذي تؤكده الخبرة البشرية بكل قوة هو ما يميز الكون من طبيعة أخلاقية أصيلة. فإن كان الحب هو أول قوانين الخلق، فلابد أن نرسم حدوده بكل دقة، وهذا هو القانون الأخلاقي. وبالتالي فإن عدم فهمنا لطبيعة الحب أفقدنا القدرة على إدراك الإطار الأخلاقي، مما شوَّه إدراكنا لمضامين الحب فأخذنا نتمرغ في أوحال اللذة الحسية. وهو فهم مغلوط للحب يمثل تهديدًا مضاعفًا لخبرة المرء. وذلك، لأن تشويه نقاء الحب يُفقد المرء حريته الحقيقية.



وبدلاً من أن ينعم بالحرية الحقيقية يتشبث ببدائل واهية تستعبده برغبات محمومة لا تَشبع أبدًا. فعندما رفض الإنسان شروط المحبة الشرعية، تكوَّنت حوله قشرة صلبة لا تستطيع الأخلاق اختراقها. وعندما رذل المحبة الحقيقية محا من خبرته الفضائل اللازمة للبقاء.

المبدأ الثاني في المبادئ الجوهرية للإيمان بالله الذي تؤكده الخبرة البشرية بكل قوة هو ما يميز الكون من طبيعة أخلاقية أصيلة.

وقد عبَّر "تشسترتون" عن هذه الفكرة تعبيرًا دقيقًا:

> اخترعوا عبارة جديدة، عبارة من كلمتين تحمل تناقضًا صارخًا كالأبيض والأسود: "حب حر"، وكأن المحب كان يومًا ما، أو يمكنه أبدًا أن يكون، حرًا. إن طبيعة الحب أن يقيد نفسه. والهدية التي قدمتها مؤسسة الزواج للإنسان العادي أنها علمته أن يلتزم بكلمته.[٤]

حدد "تشسترتون" الافتراضات الأساسية اللازمة في أي علاقة محترمة: الفضيلة، والثقة، والالتزام. ودون هذه الشروط يستحيل حدوث أي تفاعل إنساني ذي قيمة. ولكننا في العصر الحاضر اعتقدنا أن العقل وحده قادر على صياغة قانون أخلاقي، وهو ما أثبت خطأه بكل وضوح، فأصبحنا نعيش في مدن تدمر نفسها وبيوت تنهار بمعدلات هائلة. وباسم الحرية أصبحنا مقيدين بالخوف وشتى أنواع العبودية اللاأخلاقية. ولذلك، إن لم نتعامل مع هذه المسألة نكون قد حكمنا على أنفسنا بالموت.

فلا شك أن طبيعة الأخلاقِ جوهرية في الحياة نفسها حتى إن الكتاب المقدس يساوي بين الحياة والبر الأخلاقي وبين الموت وغياب الحس الأخلاقي. ولذلك، كان أول حوار سجله الكتاب المقدس بين الله والإنسان عقب الخلق يدور حول طبيعة الخير والشر. ويمكننا أن نرى مدى ابتعادنا عن النموذج الأصلي الذي رسمه الله عندما ننظر إلى ما يحدث اليوم من تجريد الأخلاق من شرعيتها. فقد أقنع

أساتذتنا أنفسهم بأن الحياة التي لا تخضع للفحص يمكن أن تكون حياة فاضلة، ومدرسونا يتلقون تعليمات مشددة بتجنب التعليم الأخلاقي ورفضه.

الجرح الموجع:

عندما ندرس هذا الارتباك الأخلاقي من أي نقطة في التاريخ، ولاسيما في المجتمعات التي تؤمن بأن الحرية تُكتسب، لا يصعب علينا أن نستشعر مواطن التوتر التي يُعتبر فهمنا لها عاملاً أساسيًا في فهم المشكلة. وما أن ندرك المشكلة حتى نتمكن من رؤية المنظور المسيحي بوضوح.

إن الملحد يستشعر وخزات المطالب الأخلاقية فيما لا يقل عن ثلاثة مجالات. أول هذه المجالات وأهمها هو القانون. فليس من يشعر بالصراع الأخلاقي الذي نواجهه أكثر من المشرعين سواء أكانوا ملحدين أم مؤمنين. وهم يجدون أنفسهم عن غير قصد يلعبون دور الله في مجتمع يريد كل شيء ولكن دون أي إلزام أخلاقي تجاه أي شخص، إلا فيما عدا ما يمليه ضمير المرء عليه. وليس من الصعب تحديد المأزق الذي نواجهه، بل الصعوبة تكمن في إيجاد الحل الذي يبدو حلمًا بعيد المنال. فالناس يجدون أنفسهم أفرادًا في مجتمع وعليهم أن يعيشوا في انسجام مع غيرهم من الأفراد. وهنا ينشأ الصراع الحتمي بين الحقوق الفردية والمسئولية المجتمعية، وتنشأ حالة من التوتر في التعامل مع هذه المشكلة، مثل الحمار المعروف في المثل السائر الذي ظل متحيرًا بين كومتي التبن. فالشخص يخشى أن يتجاهل أيًا من الطرفين لئلا يخرق القواعد، وبالتالي يلجأ إلى صياغة مبدأ يبدو لطيفًا راقيًا، ويظن أنه يطرد المشكلة:

> حبُ الحرية، الحرية للجميع دون تمييز على أساس الطبقة أو العقيدة أو البلد والإصرار على تفضيل مصالح المجموع على أي مصلحة أخرى ذات نطاق أضيق أيًا كانت.[٥]

وهذان المبدآن اللذان يُقران الحرية الفردية وخير المجموع يمثلان الأساس للكثير من النظم التشريعية المعاصرة. ولكن ما أن نضع المبادئ أمام أعيننا حتى تتضح التناقضات. فحرية الفرد المطلقة لا يمكن حمايتها في متاهة مصالح المجتمع

العامة. ولا شك أن هناك حرية بالفعل ولكنها حرية يعاد تعريفها باستمرار بما يتلاءم مع الظروف.

لاحظ أيضًا أنه قبل ظهور مشكلة التناقضات هناك افتراض أخلاقي يقضي بأن الحرية والعدل ضروريان أخلاقيًا. ولكن الملحد يفوته أن الانتخاب الطبيعي ينطوي على استبعاد طبيعي، وتحديد مَن سيتم استبعاده. لذلك فإني أتساءل: من أين أتى الملحد بكل هذه الشعارات القديمة المستهلكة عن النبل والتسامح؟ فنحن نرى العدالة على هيئة امرأة معصوبة العينين تمسك بميزان في يدها. ولكن التحدي الذي يواجه الملحد هنا هو إثبات أهمية ضبط ميزان العدل من الأساس. فهو يعاني من قلق مستمر ويتمنى أن العِصابة تحمي القاضي من استبداد العين، ولكنه لا يمكنه الهروب مما في عقله من افتراضات أخلاقية. ومن ثم، فأول مواطن التوتر هو حرية الفرد مقابل المجتمع.

أما ثاني مواطن التوتر يتعلق بالتداخل بين الحياة الخاصة والحياة العامة. فالملحد يؤمن أن المعتقدات الأخلاقية للشخص هي مسألة خاصة ولا يجب أن تؤثر على سلوكه العام أو تظهر في تصريحاته العامة. فالأخلاق كلمة بغيضة عندما تقال على الملأ، واللاأخلاق ليس لها تأثير سلبي إن ظلت في نطاق الحياة الشخصية.

لقد أقنع الملحد نفسه أن الممارسات الخاصة والسلوكيات العامة منفصلان أخلاقيًا ولا يربط بينهما أي رابط حتى إن الفرد يمكنه رسم حدود واضحة بينهما والعبور من واحد للآخر دون أن تلصق أي أتربة بقدميه. لقد وُضعَت الأخلاق تحت الحَجْر وحُماة مذهب حرية الإرادة libertarianism× يوقفون حراسهم في مواضعهم المناسبة للتأكد أنك تخرج من بيتك بدون الأخلاق. ورغم أن هذا الموقف مليء بالمشكلات المستعصية، فسأكتفي بإبراز اثنتين منها.

أليس الافتراض بإمكانية وجود انفصال بين حياتي العامة وحياتي الخاصة هو افتراض أخلاقي؟ علاوة على ذلك، هذا الطريق عينه هو المؤدي إلى تدمير الذات، وهو ما دفع أرسطو لإثارة هذا السؤال: "هل السلوك الديمقراطي هو سلوك تحبه

× فلسفة سياسية تتيح أقصى قدر ممكن من الحرية وتدعو لتقليص تدخل الدولة في حياة المواطنين لأقصى درجة ممكنة. (المترجمة)

البلدان الديمقراطية أم أنه سلوك يحمي البلد الديمقراطي من الدمار؟"

وعندما يجد المذهب الطبيعي نفسه حائرًا بين توتر الحرية الفردية مقابل المسئولية المجتمعية وتوتر الممارسة الخاصة مقابل الوضع العام، فهذا يؤدي به إلى المعضلة الثالثة التي تعكس السعي المستمر نحو بلوغ نظرية أخلاقية جامعة. وقد عبَّر "إي. إل. ماسكول" E. L. Mascall في كتابه "أهمية الإنسانية" The Importance of Being Human عن هذا المأزق بالكلمات التالية:

> العيش مثل الغوريللا شيء ممتاز إن كنت غوريللا، والعيش مثل الملاك شيء ممتاز إن كنت ملاكًا. ولا يجد أي من هذين الكائنين صعوبة كبيرة في هذه المهمة. ولكنك إن كنت كائنًا بشريًا، لا يمكنك أن تبلغ السعادة الحقيقية إلا بأن تعيش إنسانًا، وهي مهمة أصعب كثيرًا.

وهنا تكمن المشكلة: "إن كنت كائنًا بشريًا، لا يمكنك أن تبلغ السعادة الحقيقية إلا بأن تعيش إنسانًا.." ولكننا في ظل الافتراضات المسبقة التي يطرحها الإلحاد لا نعرف كنه الإنسان. فكيف لنا أن نعرف ما هو صالح له؟ فالقول بوجود ذرات مفكرة تناقش الأخلاق هو نكتة سخيفة. ومن ثم، تتضارب كل الحلول بدءًا من قدرة العقل المنفردة التي طرحها "إيمانيول كانط" Immanuel Kant وانتهاءً بأخلاق الموقف[×] situational ethics التي طرحها "چوزيف فلتشر" Joseph Fletcher. والتناقض الرهيب بين الموقفين يُعبر عنه "فلتشر" نفسه تعبيرًا دقيقًا في عبارة اقتبسها من كتاب "في القوانين" de Legibus لشيشرون:

> لا يمكن إلا لمجنون أن يقول بأن الفرق بين الشريف والدنيء، بين الفضيلة والرذيلة هو مسألة رأي وليس مسألة طبيعة. [تعليق "فلتشر"] إلا أن هذا هو ما تعنيه أخلاق الموقف على وجه الدقة والتحديد".[٦]

ما كان جنونًا عند شيشرون أصبح أكثر المبادئ عقلاً عند "فلتشر". إن محاولة الموازنة بين الفضيلة والرذيلة هزت حضارتنا هزة عنيفة حتى أصبحنا كالسكران الذي يتطوح من حائط لآخر، ومع كل ارتطام يسقط مغشيًا عليه. ولابد أن ننتبه إلى

× منحى أخلاقي يقيِّم أخلاقية الفعل وفقًا للظروف التي وقع فيها، بدلاً من الحكم عليه بالاعتماد على معايير أخلاقية مطلقة. (المترجمة)



أن أخلاق من يتبع المذهب الطبيعي ليست موضوعية. فكلمات مثل: "الحقيقة"، "الإنسان"، "الحرية"، "العدالة" ليست مجردة من القيم المتغيرة. والأخلاق اختـُزلـَت إلى مجرد مذهب إرشادي[×] prescriptivism متطرف، أو تفضيل وجودي. وهكذا فإنه حيثما يتبنى المرء نظرة المذهب الطبيعي، فهو يعترف بأنه لا يعلم نقطة بدء للحياة، وبالتالي لا يعلم نقطة بدء للأخلاق.

حيثما يتبنى المرء نظرة المذهب الطبيعي، فهو يعترف بأنه لا يعلم نقطة بدء للحياة، وبالتالي لا يعلم نقطة بدء للأخلاق.

تشخيص دقيق:

تمثل الإجابة المسيحية منظورًا مضادًا للمذهب الطبيعي لأنه يتحدى ادعاء البشر بأنهم يتمتعون باستقلالية مطلقة، كما أشار "تشسترتون": "لا نريد دينًا يكون على صواب عندما نكون نحن على صواب. ولكننا نريد دينًا يكون على صواب عندما نكون مخطئين".

والملحد يرتكب خطأين فادحين جدًا في نقطة البدء التي ينطلق منها في تناوله لمسألة الأخلاق: الأول هو ماهية الأخلاق. والثاني هو الغرض الذي تؤديه الأخلاق. فهو يؤكد أنه قادر على التوصل إلى طبيعة الأخلاق وإلى قانون أخلاقي مُرضٍ بقوة العقل وحده. ولذلك، يقول "كانط" في كتاب "الأساس في الأخلاق" Groundwork on Ethics إن قدرة العقل طبيعية جدًا حتى إن الشخص يمكنه أن يستغني عن اللقاء المباشر مع المسيح ويمكنه أن يصل بعقله للاستنتاجات الصحيحة بالاستقلال عن تأثير المسيح. وقد قدمت "أيريس مردوك" Iris Murdoch في كتاب "سيادة الخير" The Sovereignty of Good ردًا رائعًا على هذا المعتقد الكانطي:

ما أسهل التعرف على الإنسان الذي يصوره "كانط" في "الأساس"

× نظرية أخلاقية تزعم أن العبارات الأخلاقية لا تقيَّم باعتبارها صوابًا أو خطأ ولكن دورها هو مجرد دور إرشادي، وهي تُعبر عن قناعة قائلها. (المترجمة)

Groundwork تصويرًا جميلاً. فهو نموذج مألوف جدًا. وهو ذلك الإنسان الذي التقى مع المسيح شخصيًا، ولكنه قرر أن يبتعد عنه ويعتمد حكم ضميره ويستمع لصوت عقله. ... ما زال هذا الإنسان معنا، حرًا، مستقلاً، لطيفًا، قويًا، عقلانيًا، مسئولاً، شجاعًا، بطل العديد من الروايات والكتب التي تتناول فلسفة الأخلاق. وليس من الصعب اكتشاف سبب وجود هذا المخلوق الجذاب المضلل. فهو وليد عصر العلم، وهو يثق في عقلانيته ثقة عمياء. ومع ذلك فهو يزداد وعيًا باغترابه عن الكون المادي الذي تسفر عنه اكتشافاته ... واغترابه عديم الشفاء ...والفارق ليس كبيرًا بين "كانط" و "نيتشه" والوجودية، والتعاليم الأخلاقية الأنجلو ساكسونية×، فكلها شديدة الشبه بعضها ببعض... فالحقيقة أن إنسان "كانط" "تجسّد بكل عظمة قبل "كانط" بما يناهز قرنًا من الزمان في عمل "ميلتون" Milton: واسمه الصحيح هو زهرة بنت الصبح.[٧]

وللدقة، هذا الإنسان ليس إنسان ما بعد العلم ولم يتجسد لأول مرة في عمل "ميلتون". بل الواقع أننا نلتقي به في جنة عدن حيث ادعى لنفسه سمة إلهية، ألا وهي تحديد الخير والشر، وفعل ذلك بالانفصال عن الله. وهذه الحقيقة تقع في صميم الحجة الأخلاقية في المسيحية. فهي من ناحية تؤكد الشعور الحتمي بالاغتراب في ظل أي عقيدة تعتبر الإنسان مقياس كل شيء، ومن ناحية أخرى تقدم تعريفًا لمعنى للأخلاق. والكلمة التي تصف هذه الحالة هي "الكبرياء"، أو "العجرفة"، وهي حكم المرء لذاته بهدف الاستقلال عن الله. والمعرفة والتعليم بين يدي شخص لا يعترف بسلطةٍ أو جهةِ محاسبةٍ أعلى من فرديته هما قوة في يدي أحمق. وقد قال الشاعر الإنجليزي "اسكندر پوپ" Alexander Pope:

من بين كل الأسباب التي تتآمر لتعمي

حكم الإنسان المعيب، وتضلل عقله

× نسبة إلى القبائل الجرمانية التي استوطنت انجلترا منذ القرن الخامس وحتى الغزو النورماندي لانجلترا سنة ١٠٦٦ (المترجمة)

وتجعله ضعيف العقل يحكم بتحيز شديد

هو الكبرياء؛ رذيلة الحمقى التي لا تخيب أبدًا[٨]

كان الأرستقراطي الفرنسي "ألكسي دي توكڤيل" Alexis de Tocqueville (١٨٠٥- ١٨٥٩) مصيبًا في جزء مما قاله أثناء رحلته إلى انجلترا وأيرلندا:

> الفرنسيون لا يريدون أحدًا يفوقهم. والإنجليز يريدون أناسًا أدنى منهم. فالفرنسي دائمًا ما يرفع عينيه عاليًا في قلق. والإنجليزي يخفضهما في رضا. وكلا الحالتين كبرياء ولكن كل منهما يفهمه بطريقة مختلفة.[٩]

ولكن المشكلة ليست في الفرنسي ولا في الإنجليزي، بل في الجنس البشري كله. فليس منا من يحب السلطة. وقد بدأت القصة كلها في الأيام الأولى للخلق عندما رفض الرجل الأول والمرأة الأولى أن يتركا الألوهة لله، وأرادا أن يكونا هما أنفسهما الله. وهكذا دخلت الخطية إلى العالم برفض الله واختيار الحكم الذاتي والإرادة الذاتية. وأصبح الإنسان مُشَرِّع قانونه الأخلاقي، وظهرت جريمة القتل في أول أسرة، وتلاها سؤال: "أحارس أنا لأخي؟" كان السقوط حقيقة، ولم يزل. وكل الحجج الصاخبة التي يرددها "هكسلي" وغيره لن تطفئ أبدًا نيران التمرد المستعرة في قلب البشرية. وقد قال "مالكوم مجريدچ" في ملاحظة ذكية إن فساد الإنسان هو العقيدة التي تلقى أكبر قدر من الرفض، ولكنها أكثر عقيدة ثبتت تجريبيًا. لقد أنكر الجنس البشري الله وأعلن تمرده عليه، ومن هنا بدأت رحلة ضياعنا. فالتهديد الذي يواجه الأفراد يفوق في خطورته ذلك الذي يواجه المجتمعات.

الضحية الحقيقية:

أود أن أستخلص استنتاجين أساسيين مما تقدم. أولهما، أن كل فعل خاطئ، عامًا كان أم شخصيًا، لابد وأن يكون له ضحايا. وضحيته هو فاعله. علاوة على أن هذا الفعل يعيد تشكيل المرء. فمثلاً "كونوي" Konoye رئيس وزراء اليابان وأحد المتورطين في جرائم الحرب البشعة التي ارتكبتها اليابان في الحرب العالمية الثانية ترك بجوار فراشه قبل موته نسخة من رسالةِ "من الأعماق" De Profundis لكاتبها

"أوسكار وايلد" Oscar Wilde وكان قد وضع خطوطًا عريضة تحت هذه الكلمات: "رغم بشاعة ما فعله العالم بي، فما فعلته بنفسي أبشع".[١٠]

أذكر رجل أعمال شاركني بذكرياته عما عاشه من تشوه أخلاقي في حياته. فقد قال لي: "بدأ الأمر بالخيال، والخيال عزز بعض الرغبات الخاطئة. وبعد أن اخترت اختيارات كان من الواضح أنها خاطئة، أقنعت نفسي بعد تكرار الأخطاء أن ما انغمست فيه من ملذات هو ما أحتاجه. وعندما زادت قناعتي باحتياجي له، أعدت تعريف نفسي كشخص. والآن، عندما أنظر إلى ما صرت إليه، لا يمكنني أن أعيش مع نفسي لأني أكرهها. إنني أجري وجدانيًا ولكني لا أعرف إلى أين".

إن معرفتنا لهويتنا ولاحتياجنا هي نقطة البدء التي تحدد ما سنصير إليه. ولكن تعريفاتنا الأخلاقية لن تستقيم إلا عندما ندرك ما يعنيه الكتاب المقدس بكلمة "خطية". فالكلمات والشعارات المستهلكة لا تملك في ذاتها أي قدرة على التغيير. وعلينا ألا ننسى أبدًا أن الرجال الذين استمتعوا بالاستماع لموسيقى "ڤاجنر" Wagner هم أنفسهم الذين بنوا معسكرات اعتقال "أوشڤيتس" و"بيركنو" Birkenau النازية. فالمشكلة لا تكمن في غياب التعليم أو الثقافة، بل في وجود الخطية.

وقد قال الكاتب المسرحي "برنارد شو" (المعروف شعبيًا بكاتب مسرحية "بيجماليون" Pygmalion):

> أول سجن رأيته نقشت على جداره آية "كفوا عن فعل الشر تعلموا فعل الخير". ولكن النقش كان في الخارج فلم يره السجناء. أي أن الرسالة كانت موجهة للمارة الطلقاء، الأبرار في عيون أنفسهم، بل إني أظن أنها يجب أن تكون: "إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله".[١١]

وهذه هي بالتحديد نقطة البدء التي يحددها الكتاب المقدس لبلوغ البر الأخلاقي، ألا وهي الاعتراف بأن قلب كل إنسان هو قلب خاطئ وأن هذا المأزق هو مأزق روحي، كما يتضح في إصرار الإنسان على الاستقلالية المطلقة.

أما الاستنتاج الثاني الذي أود أن أستخلصه من تمردنا على الله أن البشر دائمًا ما يعجزون عن فهم معنى الخطية. فهم يسخرون من الفكرة ويهاجمونها باعتبارها

فكرة بالية من عصور ما قبل العلم. وفي أحسن الأحوال لا يعترفون بها إلا في جرائم الحرب أو المظالم الاجتماعية، ولكنهم يفشلون في تفسيرها في حياتهم الشخصية. والقصة التالية تقدم أفضل تصوير لعجز الإنسان عن إدراك البعد الشخصي للخطية. ورغم أن القصة مضحكة في تفاصيلها ولكن المؤلم أنها تعبر عن واقعنا الروحي.

تحكي القصة عن شقيقين اشتهرا بانحرافهما الأخلاقي، حتى صارا مرادفين لكل الرذائل التي سيطرت على المدينة. وعندما مات أحدهما فجأة، ذهب شقيقه إلى قس الكنيسة وطلب منه إجراء مراسم الدفن. وعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال مقابل أن يمدح شقيقه ويعدد فضائله ويظهره بمظهر القديس. وبعد تفكير طويل، وافق القس. وقرب نهاية خدمة الجنازة (وهو مستغرق في الحديث عن الأخ الراحل) قال: ''إن الرجل الذي أتينا لنودعه كان لصًا. والحقيقة أنه يستحق كل ما يخطر على البال من أوصاف مقززة. فقد كان فاسدًا، عديم الخُلُق، منحرفًا، شهوانيًا، بذيئًا، مبغِضًا للآخرين، سيء السلوك، دنيئًا. ولكنه كان قديسًا مقارنة بأخيه''.

ربما أن القس لم يأخذ المبلغ الموعود، ولكن ما لا شك فيه أنه لمس نقطة حيوية. فأكثر الجوانب خداعًا في طبيعتنا الخاطئة هو ميلنا الشديد لتبرير أنفسنا مقارنة بشخص آخر. ونحن نُكون نسقًا هرميًا اعتباطيًا للرذائل ونبرئ أنفسنا بناءً على مدى ارتفاعنا عن قاعدة الهرم. ولكن من يدرك طبيعة الخطية يعرف أن ما يجعل الإنسان خاطئًا ليس ميزان الشر البشري بل طبيعة الله نفسها وشخصيته الأدبية. فالمقياس الحقيقي الذي نقف أمامه هو نقاء الله، وليس قانونًا أخلاقيًا متذبذبًا يختلف من مجتمع لآخر. وعندما نفهم الخطية يمكننا أن نبدأ مناقشة الأخلاق لأن كلاً منا مسئول أمام الله. وعندما تكون المساءلة بهذا المستوى الرفيع يصبح أي قانون أخلاقي لأي أمة في مرتبة أدنى من قانون الأخلاق الإلهي. وهكذا نتبع الصدق والفضيلة لأن دافعنا هو أن نكرم الله وليس أن نبدو أبرارًا أمام الآخرين وحسب.

وقد أدرك أحد الأساتذة هذا المبدأ إدراكًا جيدًا فسأل طلابه أن يترك كل منهم مقعدًا بينه وبين زميله أثناء الامتحان حتى يتجنبوا كل شبه شر ''كما يقول الكتاب المقدس". فسأله أحد الطلاب: ''وماذا لو كنا لا نؤمن بالكتاب المقدس؟'' فأجاب الأستاذ: ''إذَن فلتضع مقعدين بينك وبين زميلك''.

ومن أبرز الأمثلة على هذه المساءلة العليا ما نراه في حياة يوسف أحد آباء العهد القديم. فلعلك تذكر أنه عندما حاولت امرأة فوطيفار إغواءه مرارًا، أجابها: "لا يمكنني أن أفعل ذلك لأن فيه خيانة لثقة زوجك وكسرًا للقانون الإلهي" (انظر تك ٣٩: ٨- ١٠). وبهذه الإجابة حمى يوسف نفسه منها لأنها لو أجابته بأن هذا لن يضايق زوجها، فما زال هناك القانون الإلهي الذي يريد كسره. وهكذا رأى يوسف الأخلاق بعيني الله.

عقَد الصحفي الإنجليزي "ستيف ترنر" Steve Turner مقارنة بين هذه النظرة للأخلاق ونظرة دعاة المذهب الطبيعي:

إن كانت الصدفة

أبًا لكل ذي جسد

إذَن فالكوارث هي قوس قزحه الذي يطل من السماء

وعندما تسمع:

"حالة طوارئ"

"قناص يقتل عشرة"

"حالة غضب بين الجنود"

"الشباب يقومون بأعمال تخريب"

"قنبلة تقصف مدرسة"

فكل هذا ليس سوى صوت الإنسان

يعبد صانعه

وعلى العكس من ذلك، احترام القانون الأخلاقي بصفته تعبيرًا عن محبة الإنسان تجاوبًا مع محبة الله هو صوت المسيحي عابدًا لصانعه. ومن ثم، لا يُرى القانون الأخلاقي باعتباره شيئًا مفروضًا على المسيحي من خارجه، بل التزامًا يتولد من الشعور بالعرفان لله الذي اختبر الإنسان محبته. وهذه العلاقة التي تتخذ من المحبة أساسًا ودافعًا لها في ظل إدراك طبيعة الله هي التي تشكل أساس الصواب والخطأ.

الشفاء من الداخل:

والآن يمكننا أن ندرك الغرض الذي تؤديه الأخلاق في حياة المسيحي. فالسلوك الأخلاقي للفرد في المجتمع هو نتاج إدراك روحي لطبيعة الله ولكيفية المثول أمامه ووضع الإنسان في نظره. ولذلك، فالأخلاق الاجتماعية تُعتبر ثانوية مقارنة بالتقوى الشخصية وتنبع منها.

أما الملحد يبدأ من الأخلاق الاجتماعية ولا يتمكن أبدًا من تأسيس الأخلاق أو الغرض منها على أي شيء. وهي نقطة انطلاق تتناقض كلية مع الفهم الكتابي لأنه عندما يفقد الإنسان مكانه الصحيح روحيًا يصبح عقله مغتربًا عن مصدر النور ويصاب بحالة من التخريف الباطل. وانعدام مخافة الله يسبق انعدام الأخلاق. فكما أوضح "سي. إس. لويس" في تشبيهه الذي ذكرْتُه آنفًا، المسيحي يحدد أولاً سبب وجود السفن في البحر مما يساعده على تحديد السبيل إلى حفظها من عدم الارتطام بالسفن الأخرى. ويُبرز "راينهولد نيبور" Reinhold Niebuhr هذين الدورين الأولي والثانوي اللذين لابد أن يأتيا بهذا الترتيب في كتابه "الإنسان الأخلاقي والمجتمع اللاأخلاقي" Moral Man and Immoral Society:

> لا تنشغل المثالية الدينية الخالصة بالمسألة الاجتماعية. ولا توهم نفسها بأنه يمكن الحصول على الميزات المادية والدنيوية بالامتناع عن المطالبة بها. ... فيسوع لم ينصح تلاميذه بأن يغفروا إلى سبعين مرة سبع مرات ليربحوا أعداءهم للمسيح أو يحسّنوا موقف الأعداء منهم. ولكنه نصحهم بذلك باعتبارها محاولة للاقتراب من الكمال الأخلاقي التام، كمال الله نفسه. وهو لم يطلب من أتباعه أن يسيروا الميل الثاني على أمل أن من سخرهم للعمل القسري يرِّق لهم ويطلقهم. ولم يقل إنه علينا أن نحب العدو حتى يرجع عن عداوته لنا. فالمسيح لم يتحدث كثيرًا عن عواقب هذه الأفعال الأخلاقية **لأنه رآها من منظور داخلي متجاوز حدود الكون المادي** [الفونت العريض إضافة من مؤلف هذا الكتاب]

... والتناقض الظاهري الذي تنطوي عليه الحياة الأخلاقية يكمن في أن بلوغ أسمى درجات العلاقة المتبادلة يتحقق عندما لا يسعى الطرفان عن قصد للحصول على فوائد متبادلة باعتبارها ثمرة للمحبة. لأن المحبة تظهر في أنقى صورها عندما لا تنتظر المقابل، وهذه المحبة الأنقى هي أقوى أشكال المحبة. ومن ثم، فالتبادلية الكاملة بما فيها من مميزات لطرفي العلاقة تتحقق في أكمل صورها عندما لا يتعمد الطرفان خلقها، بل عندما تنسكب المحبة بينهما دون أن تتوقع المقابل. وهكذا يصبح جنون الأخلاق الدينية هو الحكمة التي تحقق نتائج اجتماعية صحية بتجاوزها لما هو اجتماعي. ولهذا السبب عينه، على هذه الأخلاق التي تتميز بهذا القدر من الحكمة ألا تتوقع أفضل رد فعل من الطرف الآخر، بل تقنع بما هو أقل من الأفضل."[١٢]

ولكن بالرغم من أن العواقب الاجتماعية لا تُعتبر الغرض الأولي للأخلاق، فإن إنكار العواقب المفيدة التي تنشأ عن الأخلاق الكتابية يُعد نوعًا من قصر النظر. فالقوة الروحية قد تختلف عن القوة الوحشية، ولكن لا شك أن لها طريقتها في الغزو. وللتوضيح، أذكر أن الناقد الاجتماعي المعروف "دينيس ﭘراجر" Dennis Prager أثار هذا السؤال الشائك في مناظرة له مع "ﭼوناثان جلوڤر" Jonathan Glover أحد الفلاسفة الملحدين في أكسفورد:

"بروفسور "جلوڤر"، هب أنك بمفردك في أحد شوارع "لوس أنجلوس" الموحشة في منتصف الليل، وهب أنك خرجت من سيارتك خائفًا مرتعدًا وسمعت فجأة وقع أقدام ثقيلة خلفك، وإذا بعشرة رجال ضخام الجثة مفتولي العضلات خارجين من أحد البيوت يتجهون نحوك. فلو عرفت أنهم كانوا في اجتماع لدرس الكتاب المقدس، هل يُحدثُ ذلك أي فارق في رد فعلك؟""[١٣]

وبين ضحكات الجمهور المجلجلة، اعترف "جلوڤر" أن هذه المعلومة تُحدث فرقًا. بالطبع لابد أن تُحدث فرقًا نظرًا للارتباط المنطقي بين الكتاب المقدس والأخلاق.

٣. بوادر المعنى:

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف يمكن لشخص مغترب روحيًا أن يجد معنى في الحياة باعترافه بخالق محب وبقانون أخلاقي؟ وهذا السؤال يحير المتشككين الصادقين لأنهم يتوقون إلى إجابة. وقد كُتِبَت عشرات الكتب في موضوع المعنى. إلا أن العالـم الأكاديمي غالبًا ما يبدو عاجزًا عن إدراك الحقيقة دون أن يكسيها ثيابًا نظرية معقدة. فاللغة الأكاديمية الغريبة بمنهجها الجاف الممل يمكن أن تقتل بساطة وسمو أثمن ما في الحياة من بوادر ومؤشرات. وذلك، لأن حقائق الحياة تظهر أيضًا في ثياب غير أكاديمية غالبًا ما يفهمها الأمي بينما تستعصي على الأكاديمي. وهذا لأن هذه المؤشرات لا تأتي دائمًا عبر أقلام أحدث العباقرة المبدعين. بل على العكس، لأننا غالبًا ما نتعلم أعمق الحقائق من أبسط الخبرات.

مؤشر ثمين:

تلقيت أحد هذه المؤشرات المؤثرة في حياتي الشخصية منذ سنوات قبل أن تكمل ابنتي عامها الأول. عدت إلى البيت بعد رحلة سفر لعدة أسابيع. وفي دخولي للمطبخ رأيت ابنتي الصغيرة واقفة في مشايتها عند الحائط المقابل، وقد ثبتت النظر عليَّ في انتباه شديد. وبخجل طفولي غامر، عبَّرت عما في قلبها من اشتياق ولكنها لم تدري ماذا تعمل. فانطلقت تهرول نحوي ورفعت ذراعيها في الهواء حتى أحملها. فرفعتها من مشايتها، ولفَّت ذراعيها حولي وأراحت رأسها على كتفي وظلت هكذا دون حراك عدة دقائق.

وفي هذه اللحظات القلائل كان شعوري بالإشباع العميق يتجاوز كل ما تصفه الكلمات، ولكنه شعور يفهمه الآباء والأمهات جيدًا، سواء أكانوا متعلمين أم غير متعلمين. ولم أكن بحاجة لما بلغه "برتراند رَسِل" من معرفة معقدة ولا لتشاؤميته حتى أستمتع بهذا الشعور وأُقِرُّه أو أنكره وأنفيه.

دفء القلب يمكنه أن يذيب

أكثر مناطق العقل المتجمد برودةً

وكرجل غاضب انتفض القلب واقفًا
وأجاب قائلاً: ''لقد شعرت'' [١٤]

وفي موقف ابنتي لم يتولد الدفء في قلبي من الشعور بالغضب طبعًا، بل من شعور بالانتماء وبالتزام الحب. لقد كانت لمسة الحقيقة التي استشعرتها في روحي.

وهنا يكمن مؤشر قيِّم للباحثين عن المعنى، فالمعنى يوجد في العلاقات. وهذا الاحتياج المدهش والتعبير عنه لدى البشر يؤكد نفسه مرارًا وتكرارًا. وفحصنا لمواقف الحياة المختلفة يعيدنا مرارًا للشوق العميق لعلاقات ملؤها الحب والإخلاص. فقد حظيت بشرف زيارة عدد من السجون والتحدث إلى السجناء المحتجزين خلف القضبان بسبب جرائم متنوعة، حيث تكررت على مسامعي جملة واحدة نطق بها أصحابها دون خجل: ''من فضلك اتصل بأمي (أو زوجتي، أو أخي، أو أختي) وأخبرها أني أفتقدها''. وفي زياراتي للمستشفيات أو السجون العسكرية في البلدان التي مزقتها الحروب، أسمع الرسالة نفسها: ''أخبر أسرتي أني أحبهم''.

وأنا لا أحاول إثبات الفكرة بمواقف عاطفية، ولكن ما أقوله يصف الحياة نفسها. وقد سطَّر "لي أياكوكا" Lee Iacocca في كتابه "كلام صريح" Talking Straight كلمات مؤلمة جدًا:

> والآن إذ تبدأ شمس حياتي في المغيب، ما زلت أحاول أن أنظر للوراء وأتدبر كنه هذه الحياة. فأجد أني لست متأكدًا من قيمة الحظ السعيد والنجاح، وتزداد ثقتي بأن الشهرة والقوة تطيران وتتبخران. وعندئذ ينتبه المرء لحياته فجأة. وعندئذٍ أرى أبنائي، وأكتشف مدى حبي لهم. [١٥]

إن بهجة العلاقات تجعل الحياة كلها تعبيرًا ذا قيمة. فالبشر يمكنهم التعامل مع العالم المادي ومع عالم المعرفة والماكينات إلى حد معين. وإن لم نعلو فوق هذا الحد، ينحط كل ارتباط في حياتنا إلى ذلك المستوى ويصبح شيئًا يخدم أغراضنا. وعندئذٍ ينقلب الوضع إلى أسوأ ما يكون. ففي المشروع الإلهي، يُفترض أن نحب الناس ونستعمل الأشياء، ولكن المذهب الطبيعي يعكس هذا النموذج، فيحب الأشياء ويستعمل الناس.

وقد كشف "ليو تولستوي" Leo Tolstoy في مقال "اعترافي" My Confession أن السارق المتبجح الذي سطا على حياته كان حبه للكتابة وإعجاب البشر، مما سلبه العلاقات الثمينة التي تنشئ معنى.

وإن كانت العلاقات تضفي على الحياة معنى، عندئذ تكون أقصى سخرية في الحياة هو ما يصيب كل العلاقات من تفكك بفعل الخطية أو انقطاع بسبب الموت. فكل منا يتوق إلى علاقة لا تقع ضحية الخطية ولا يحطمها الموت. وتلك العلاقة لا توجد إلا مع الله. وما أن تتأسس تلك العلاقة حتى تشكل نموذجًا لكل العلاقات الأخرى، تبث فيها قوة المحبة الصادقة وتدفع عنها سرطان الأنانية.

وإن كانت العلاقات تضفي على الحياة معنى، عندئذ تكون أقصى سخرية في الحياة هو ما يصيب العلاقات من تفكك بفعل الخطية أو انقطاع بسبب الموت.

غرض موحد:

ولنتعمق في المسألة أكثر. فلا يكفي أن نتعامل مع مفهوم المعنى في إطار واحد فقط. لذا، سأحاول أن أكشف تدريجيًا عن مضامين ذلك المفهوم من منظور مسيحي. إن معنى الحياة عند المسيحي يضفي عليها حالة من التماسك ويحميها من الانقسام، وهو ما يتضح في ثلاثة جوانب: الفرد وذاته، الفرد مع مجتمعه، الفرد والتاريخ. وعندما تُفهم هذه المجالات جيدًا وتظل في حالة اتزان داخليًا وخارجيًا وفي علاقتها بالزمن، تصبح الحياة كلها ذات معنى.

ولنتناول الجانب الأول الذي يتعلق بالتكامل الداخلي، وهو الفرد وذاته. إن المسيحي لا يذعن لملَكة واحدة دون سواها. فهو لا يرى الحياة البشرية عقلاً خالصًا ولا مشاعر خالصة. ولكنه يرى أنه مُنح صورة الله، وأنه يتمتع بتكامل بين مختلف قدراته. وهذا يعني أن فردية الإنسان تخلق إشباعًا كاملاً عن طريق تعبيرات متنوعة تندمج معًا في الغرض من خلق الإنسان، وذلك عندما يمارس هذه الفردية في إطار الحدود الأخلاقية لعلاقة المحبة مع الله. وبذلك فإن الجانب العقلاني،

والجانب الجمالي، والجانب الوجداني، والجانب العملي تعمل جميعًا لتحقيق الخير. وعندما يُخضع الإنسان حياته للفحص، تكتسب قيمة تجعلها تستحق أن تعاش بالفعل. فضمير الفرد يتجاوب مع قداسة الله، وعقله يتغذى وينتعش بحق الله، وخياله يتسع ويتنقى بجمال الله، وقلبه أو نبضاته تتجاوب مع محبة الله، وإرادته تخضع لقصد الله.

ولهذا السبب بعينه قال يسوع: "إن أراد أحدٌ أن يأتي ورائي، فليُنكِر نفسهُ ويحمِل صليبهُ كُلّ يوم، ويتبعني". (لو ٩: ٢٣). والنقطة الجوهرية في هذا التحدي أن يموت الفرد عن مطالبه الشخصية التي تدور حول ذاته وأن يبني حياته برمتها بحيث تكون كرامة الله هي دافعها الأساسي.

ولكن هل في هذا قهر للفرد؟ بالتأكيد لا. وهذا هو بالتحديد ما قصده "سي. إس. لويس" بتعبير "في إلزامه حريتنا". ويقدم "رودلف بلتمان" Rudolph Bultmann أستاذ العهد الجديد بجامعة "ماربورج" Marburg University من ١٩٢١- ١٩٥١ تعريفًا قاطعًا لهذه الحرية:

> الحرية الأصيلة ليست اعتباطًا ذاتيًا خاليًا من الموضوعية، ولكنها تحرر من دافعية اللحظة الحاضرة وإلحاحها. ... الحرية هي طاعة لقانون يعترف المرء بصلاحيته ويقبلها، ويعتبره الإنسان قانون كينونته.[١٦]

أما الملحد الذي لا يعترف بقانون لكينونته سوى قانون البقاء يجد نفسه عبدًا للَّحظة، مما قد يؤدي به إلى الانحدار لمزيد من العبودية وتشويه الذات، حتى يصبح في النهاية رقمًا مسجونًا في رغبات الآخرين الأنانية.

إن العقيدة المسيحية تفي بكل متطلبات تعريف "بلتمان" للحرية. فالمسيحي ليس عبدًا للقيم المؤقتة التي يطبق منها المرء ما يحلو له، ولكنه يطيع قانونًا يدرك أنه قانون كينونته. وقد نجا من كل من البراجماتية قصيرة النظر والاغتراب الذي يفضي إلى اليأس. وهو لا يرى الحياة باعتبارها مجرد أجزاء منفصلة، بل يراها وحدة واحدة متماسكة ولها غرض. وهذا التماسك الداخلي الذي ينشئه الله يخلق حالة من السلامة النفسية. فالروحانية الحقة بمفهومها الصحيح ليست وسواسًا ولا هروبًا، كما زعم "سيجموند فرويد"، ولكنها تنقذنا من الوساوس التي تستحوذ على حياتنا

دون أن تشبعنا، وتجبرنا بدورها على الهروب من واقعنا بالمخدرات أو غيرها.[١٧]

إن المنظور المسيحي يسد الفجوة بين النظرية والتطبيق. وذلك، لأن خضوع الحياة بالكامل لقانون أعلى ينعكس على كل ما يتخذه المرء من قرارات، دون تسرع ولا تردد لأنه يتصرف وفقًا لغرض محدد مسبقًا. واستمتاع المسيحي بهذه الحرية التي يمنحه الله إياها يخلق حالة من الوحدة والاتصال، بحيث يستحيل عليه أن يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة، لأن هذا الفصل يدمر غرض الحياة. فلا يمكنه أن يفعل في الخفاء ما يُفسد غرض حياته. لذا، فحرية المسيحي ليست في أن يعمل ما يشاء، بل في أن يستمد من الله القوة على أن يفعل ما يجب أن يفعله.

وقد قال يسوع: "السّارق لايأتي إلاّ ليسرق ويذبح ويُهلك وأمّا أنا فقد أتيتُ لتكون لهُم حياةٌ وليكون لهم أفضل". (يوحنا ١٠: ١٠). وما قاله يسوع هو عكس الصورة الشائعة عن المسيحية تمامًا. فمهاجموه يرون أنه سارق الإنجاز البشري ومعكر صفو المسرات والمباهج، وهو ما أتعب "فرانسيس طومسون" Francis Thompson في قصيدته "الصياد السماوي"[×] "The Hound of Heaven":

هربتُ منه في ظلام الليل وفي وضح النهار
هربتُ منه في غياهب السنين
هربتُ منه في متاهات فكري
في ضباب دموعي
وهربت منه في جنون ضحكاتي
(ورغم أني عرفت أن محبته هي المطارد
كنت أخشاها
لئلا يعني قبولي لها الاستغناء عما عداها)[١٨]

× الترجمة الحرفية للعنوان يمكن أن تكون "كلب الصيد السماوي" وهو عنوان صادم قد يعتبره القارئ متبجحًا. ولكن "طومسون" استخدمه كناية عن الله الذي يطارد النفوس بمحبته لأنه كان يقصد بهذه القصيدة أن ينير ظلام أولئك الذين يحاولون الهروب من الله. (المترجمة)

إلا أن الحرية الحقيقية لا يمكن بلوغها إلا بالخضوع له، على عكس ما يظن الكثيرون. ولكن "طومسون" كانت حياته ملطخة ومسلوبة بالأفيون قبل أن يرى هذه الحقيقة التي كانت عكس ما يخشاه. وقد خلُص إلى أن حل مشكلة الحياة العظمى، ألا وهي الوحدة والتنوع، يكمن في المسيح. فكان هو نفسه يحتاج أن يتوحد من الداخل، ولم يتمكن من بلوغ هذه الوحدة بعيدًا عن المسيح.

والحرية التي يمنحها هذا العمل الداخلي الذي يقوم به المسيح تجعل الوصف الوحيد المناسب له هو الميلاد الجديد، حتى إن كاتب الترنيمة يقول:

السماء من فوق أزّق زرقةً

الأرض من حولي أجمل خضرةً

كل لون ينبض حياةً

العيون المحرومة من المسيح لم ترَ يومًا[١٩]

إن هذا التغير الذي يطرأ على رؤية الإنسان الذي يشبه سرًا باطنيًا غامضًا هو عمل المسيح في قلوب البشر. وهذه هي الولادة الروحية التي يتحدث عنها المسيح التي تفتح عيني الإنسان فيرى هذا العالم كما يراه الله ويفهم نفسه لأول مرة. وعمل المسيح في تجديد القلب البشري هو بداية المعنى والفهم. وإن لم يبدأ المرء من هذه النقطة، يبقى تائهًا.

لن نتوقف عن الاستكشاف

وفي نهاية كل استكشافاتنا

سنصل إلى حيث بدأنا

ونعرف المكان لأول مرة[٢٠]

وقد عِبَّر "مالكوم مجريدچ" عن هذا النصر المجيد الذي يتحقق بالخضوع لله عندما أدرك ما حدث بداخله. وهو رجل جاب أنحاء البسيطة في عمله كصحفي متجول وتعامل مع مشاهير العالم ممن جذبوا اهتمام الصحافة في أيامه. ولكنه خلص إلى أن كل الأخبار هي أخبار قديمة تحدُث لأناس جدد. وكان أجمل خبر

عنده هو خبر الإنجيل السار الذي ينبئ بالميلاد الجديد لقلب قديم فقد الكثير في أكثر سني حياته حيوية ونشاطًا. وقد قال في كتابه "يسوع يُكتشف من جديد" Jesus Rediscovered (الذي قال عنه أحدهم أن العنوان الأنسب له هو "مجريدچ يُكتشف من جديد"):

> أظن أنه يمكنني أن أعتبر نفسي رجلاً ناجحًا نسبيًا. فالناس في الشوارع أحيانًا ما يحدقون فيَّ، تلك هي الشهرة. ودخلي يؤهلني للشرائح العليا من دافعي الضرائب في مكتب ضريبة الدخل الأمريكي، ذلك هو النجاح. والإنسان عندما يمتلك المال وقليلاً من الشهرة، حتى لو كان كبير السن، قد يصيب حظًا من السلوكيات المنحرفة المنتشرة، إن أراد، وتلك هي اللذة. ومن آن لآخر حظي بعض ما كتبت أو قلت باهتمام يكفي لأن أقنع نفسي أنه ترك بصمة حقيقية على عصرنا، وذلك هو تحقيق الذات. ولكني أقول لك، وأتوسل إليك أن تصدقني، ضاعِف هذه الانتصارات الصغيرة بالملايين، واجمعها كلها معًا، ستجد الحصيلة صفرًا– وأقل من صفر، فكلها مجرد معوقات، حتى وإن كانت إيجابية– مقارنةً بقطرة واحدة من ذلك الماء الحي الذي يقدمه المسيح للعطاش روحيًا، بصرف النظر عن هويتهم أو خلفيتهم.[٢١]

المسيح يجلب المعنى بما يُحدْثه من وخزات خفيفة في عمق كياننا، وينقذنا مما نعانيه من انقسام داخلي. وقد لخص "توماس مرتون" Thomas Merton حقائق لاهوتية عظمى في عبارة واحدة: "الإنسان يفتقد السلام مع أخيه الإنسان لأنه يفتقد السلام مع نفسه، وهو يفتقد السلام مع نفسه لأنه يفتقد السلام مع الله".[٢٢]

قيمة شخصية:

البعد الثاني في المعنى الذي يخلقه المسيح يتمثل في حفظ قيمة الفرد دون فقدان قيمة المجتمع ككل. والتوتر القائم بين الحرية الفردية ومصلحة المجتمع يُرى من منظور مختلف. فالكتاب المقدس يقول: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية". (يوحنا

٣: ١٦). إن الآية تصور محبة الله للعالم، ولكنها تبين أيضًا أن تطبيقها فردي. فالله لا ينفق محبته في عموميات الإقبال الجماهيري بل في خصوصيات كل فرد.

والتاريخ يُذكرنا بأحد الساسة الذين أخذوا على عاتقهم قضية إحدى الأقليات. وقد غرق بكليته في الدفاع عن حقوق هذه الفئة المظلومة لدرجة أن كل ما قام به من جهود كان يهدف لتحقيق هذا الهدف، بدءًا من الشعارات وانتهاءً بالخُطب والقوانين. وهكذا استحوذ هذا الولع على حياته كلها. ويومًا ما قبل أن يلقي خطبةً مهمة في الموضوع، أتى إليه مراهق من هذه الأقلية يطلب دقيقة من وقته. وبدلاً من أن يلبي هذا الطلب، نظر إلى مساعده وقال: "أخبر ذلك الشاب أني ما دمت قد توليت قضيته، لم يعد عندي وقت للفرد". فصمت المساعد برهة وقال: "هذا غريب، سيدي! إن الله نفسه لم يصل إلى تلك المرحلة بعد".

وسط مطالب الحياة غالبًا ما نجد أن قيمتنا تتضاءل أو تنحط، هذا إن لم تُمحَ تمامًا في مجابهة المجتمع برمته. ولكن الله وحده هو من يشبع الاشتياق للقيمة والرغبة في الاحتفاظ بأهمية الحياة على المستوى الشخصي حتى لا تغرق في بحر القضايا المجتمعية.

وهذا التوازن عينه هو ما نراه في حياة يسوع مرارًا وتكرارًا. فقد كان يتحنن على الجموع: كان مهتمًا بالجمع الذين لم يكن معهم طعام، واستشاط غضبًا على ما يرتكبه القائمون على الهيكل من استغلال للناس باسم الدين، وبروح النبوة بكى على المدينة التي كسرت قلبه، لأنه رأى أهلها كخراف لا راعي لها. ومع ذلك فقد بيَّن قيمة كل فرد للمدينة عينها التي قال لها: "يا أورشليم كم مرة أردت أن أجمعكِ". ولم يغفل عن صرخة شحاذ، ولا عن توسل أعرج يستوقفه، ولا عما يعانيه رجل غني أو فريسي متعلم من شعور بالفراغ. وقد قال مثل الراعي الذي ترك الخراف التسعة والتسعين ليبحث عن الخروف الذي مضى وضل الطريق. ومثلا الدرهم المفقود والابن الضال يؤكدان أنه أتى ليطلب ويخلص الضالين، وأن الجميع أخطأوا وعجزوا عن بلوغ المستوى الذي يطلبه الله.

لعب ابني ذات مرة لعبة "تي بول" Tee Ball التي يلعبها الأطفال تمهيدًا للتدرب على "البيسبول". وكان الصِبية في الفريق صغارًا جدًا والخُوذ التي يرتدونها كبيرة

جدًا، حتى إنهم إن أرادوا أن يروا أي شيء رفعوا رؤوسهم قليلاً لأعلى كما لو كانوا يبحثون عن شيء في السماء. ولم تكن هناك خوذ مناسبة لأن أحجامهم كانت ضئيلة جدًا. ولحسن الحظ أن الكرة كانت موضوعة على عمود بحيث يمكنهم ثني أجسامهم بطريقة معينة حتى يروها. وتَمكن كل لاعب، ولو بعد عدة محاولات، من ضرب الكرة بمساعدة الخيارات المتاحة له. ولكني لاحظت شيئًا. كلما ضرب ابني الكرة وأحرز هدفًا كان أول ما يفعله أن ينظر تجاهي ليتأكد أني رأيته. صحيح أنهم كانوا جميعًا يلعبون للجمهور كله، وصحيح أن المباراة جهد جماعي. ولكن وسط صيحات المتفرجين وتربيت الزملاء، كأنه كان دائمًا يحتاج أن يسأل: "بابا، أرأيتني وأنا أحرز الهدف؟"

إن الاحتياج الشخصي الأعمق لا يمكن أن يُفقد أو يُستبدل وسط تجريد المجموع الذي لا شكل له ولا اسم. فالمعنى يتحقق عند المسيحي باحترام قيمة الفرد وعدم ذوبانه في فئة "عموم الناس". إلا أن هذا لا يجعل من المجتمع شيئًا هلاميًا غير محدد المعالم بحيث تستبعد احتياجات الفرد احتياجات المجتمع. فخطة الله في تغيير المجتمع دائمًا ما تتم بتغيير قلوب البشر من الداخل، وليس بتحصيل مكاسب قصيرة الأجل بِسَنّ تشريعات خارجية. ولكن المسيحي في المجتمع كالملح في الماء، فالمجتمع لا يمكنه أن يمتصه دون أن يتأثر به.

خطة الله في تغيير المجتمع دائمًا ما تتم بتغيير قلوب البشر من الداخل، وليس بتحصيل مكاسب قصيرة الأجل بِسَنّ تشريعات خارجية.

إن الرسالة المسيحية تضخ المعنى في الحياة بدءًا بدمج الأجزاء المتنوعة المكونة للفرد في وحدة واحدة داخليًا وانتهاءً بقيمة الفرد المتميزة في المجتمع.

دافع يتجاوز حدود الزمن:

يأتي بي هذا الحديث إلى الدور المحوري الذي يلعبه الفرد في علاقته بالزمن بوجه عام والتاريخ بوجه خاص. والإيمان المسيحي يتميز بموقف فريد في هذا

المضمار لأنه يتعامل مع مجرى التاريخ من خلال نبض حياة الأفراد. ولفهم هذه الفكرة، لابد أن نتناول موقف الفلسفات المغايرة للمسيحية من هذه العلاقة.

من المنظور المسيحي نحن نرى إصبع الله في التاريخ كله، والمسيح هو الشخصية المحورية فيه. فالمسيحي يفسر التاريخ بعيني الله السرمدي.

على النقيض من ذلك، ترى أن التقليدي يعيش من أجل الماضي، والوجودي يعيش من أجل الآن، والمستقبلي أو من يؤمن بالمدينة الفاضلة يعيش من أجل المستقبل.

ولكن لاحظ كلمات يسوع المسيح وهو يكسر الخبز مع التلاميذ: "فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس [تشديد على الحاضر] تخبرون بموت الرب [نظرة على الماضي] إلى أن يجيء. تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء [توقع المستقبل]". (١كو ١١: ٢٦). فالمسيحي يرى الحاضر واقفًا على كتفي الماضي مستشرفًا المستقبل وهو يضخ المعنى والقيمة في كل لحظة، فيصبح لكل شيء أهمية، حتى بعد مليون سنة. ولا شيء يفلت من تحت عباءة الأهمية والحقيقة.

لقد عرض فيلم "المركبات النارية" حياة الاسكتلندي "إريك ليدل" Eric Liddell الذي كان مسيحيًا تقيًا ورياضيًا بارعًا في تضاد واضح مع حياة "هارولد أبرامز" الذي بلغ فراغه درجة قصوى حتى إنه وجد الفوز أمرًا تافهًا محبطًا، كما نذكر مما سبق. أما حياة "ليدل" وكفاحه من أجل التفوق كانا تعبيرًا عن محبته لله، فاكتسب كل شيء معنى لأن حياته كانت مِلكًا للمسيح. وأكثر جُمل الفيلم تعبيرًا عن هذا المعنى قيلت على فم "ليدل" لأخته: ""جني"، لقد صنعني الله لغرض، وهو الصين، ولكنه أيضًا منحني القدرة على الجري السريع، وعندما أجري أشعر به مسرورًا".

فاز "ليدل" بالميدالية الذهبية لسباق ٤٠٠ متر في أوليمبياد ١٩٢٤ ثم أصبح مرسلاً في الصين وظل فيها حتى وفاته. وكان استمتاعه بالله في كل ما قام به من جهود وخدمات من أجل المسيح تذكِرة قوية بأن المسيحي لا ينظر إلى أي شيء باعتباره دنيويًا أو غير روحي في جوهره. فالشيء لا يصبح دنيويًا عالميًا إلا باستبعاد الله منه أو إذا كان لا يتوافق مع طبيعة الله.

٤. الحياة هي المصير:

والآن أصبحت الأمور واضحة. فمؤيد المذهب الطبيعي لا يعترف بمسبب ذكي ينظر إليه، ولا قانون أخلاقي يرجع إليه، ولا معنى جوهري يتمسك به، وأخيرًا يفتقر للرجاء الذي يتطلع به إلى مصيره.

أما المسيحي تمثل له قيامة المسيح من الأموات العمل الخارق الذي يؤسس عليه دفاعياته ويضمن له مصيره. فالقيامة هي ما يدعم حجتنا في الدفاع عن الإيمان المسيحي. وهي تواجه أقسى آلام الحياة، ألا وهو مأساة الموت الذي يقهرنا جميعًا ويقمع كل ما فينا من أشواق للمعرفة المطلقة.

وموضوع الحياة بعد الموت هو عنصر أساسي في عصب قصة الإنجيل ونخاعها حتى إن التلاميذ نسوا فجأة تعاليم المسيح وحياته بكل ما فيهما من قوة ووقعوا فريسة الحيرة والارتباك الشديد عقب الصلب. فهؤلاء التلاميذ الذين تركوا كل شيء وتبعوه أخذوا بعد موته يترنحون بين الشعور بشدة الأسى والشعور بالخيانة.

فقد وضعوا كل آمالهم وطموحاتهم فيما أعلنه يسوع عن أنه ابن الله وأنه سيحقق كل توقعاتهم المسيانية. ولكن الحلم تبدد. ويمكن تلخيص ردود أفعالهم بالكامل في هذه الكلمات: ”كنا نرجو ...“.

إلا أن اللقاء مع المسيح المقام هو ما أحدث تغييرًا جوهريًا في هؤلاء التلاميذ. فخرجوا من مخبئهم خلف الأبواب المغلقة وتحرروا من سطوة السخافات الفكرية التي سيطرت عليهم بعد الصلب، وأصبحوا الأكثر تأثيرًا في عصرهم، حتى غزت الرسالة المسيحية العالم كله بما فيه روما بكل قوتها وغطرستها. وكل محاولة للقضاء على هذه الرسالة بدءًا من التهديد بالاضطهاد وانتهاءً بالقتل باءت بالفشل.

وكما قال "تشسترتون": ”لقد ماتت المسيحية مرارًا وقامت، لأن لها إلهًا يعرف طريق الخروج من القبر“.

ورسالة المسيح المؤسسة على القيامة تفسر ما قاله مؤرخ القرن العشرين "ويل ديورانت": ”التقى قيصر مع المسيح في ميدان المعركة، وكان النصر للمسيح“.[٢٣]

الرجاء الوحيد:

لا شك أن القبر المهزوم هو ما أعطى الرسالة قوتها. وشاول الطرسوسي المعروف للعالم باسم الرسول بولس يُعَد أروع مثال على هذا التغيير الجذري. فقد كان هذا الشاب عبراني المولد، تعلَّم عند رجلي غمالائيل. وكان من مُواطني روما، عاصمة الإمبراطورية العظيمة التي تؤدي إليها كل الطرق، ومركز الثقافة الوثنية. ونشأ في مدينة طرسوس اليونانية التي حجب ضياء جامعتها إشعاع جامعة أثينا. وهكذا أهلته هذه الخلفية أن يكون أفضل مَنْ يتحدث إلى العالم. لأن العبرانيين منحوا العالم أنظمته الأخلاقية، واليونانيين منحوه أنظمته الفلسفية، والرومان منحوه أنظمته القانونية. وهذه الحقوق الشرعية التي اكتسبها الشاب شاول بالميلاد، والامتيازات التي حصل عليها بالعلم جعلت منه صخرًا ثابتًا يستحيل تحريكه قيد أنملة إلا إذا كان المحرك قوة لا تقاوم، وهي شخص يسوع المسيح الذي التقاه في هذا المشهد المهيب عقب القيامة على الطريق إلى دمشق.

ومن شدة تأثير هذا اللقاء وقوة إقناعه أصبح في نظر بولس يمثل أقوى إثبات لا يُدحض لهوية يسوع. فقد وقف مرارًا أمام السلطات تستجوبه لأنهم أدركوا قوة هذه الشهادة الناتجة عن خبرة مباشرة لرجل مثل هذا. وأمام المجمع اليهودي بدأ دفاعه بهذه الكلمات: "أيها الرجال الإخوة أنا فريسي ابن فريسي. على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم". وأنهى شهادته أمام الملك أغريباس وفستوس قائلاً: "أنطق بكلمات الصدق والصحو. إنه من جهة هذه الأمور عالِم الملك الذي أكلمه جهارًا إذ أنا لست أصدق أن يخفى عليه شيء من ذلك. لأن هذا لم يُفعل في زاوية". وأمام الجمع الغفير الذي احتشد في أريوس باغوس في أثينا، تَوَّج حديثَه الدفاعي عن الإيمان المسيحي بحقيقة القيامة.

يبدو الموضوع كله في غاية السذاجة، أليس كذلك؟ مجموعة من الرجال البسطاء عاشوا قبل عصر التقدم العلمي، مما يجعلهم فريسة سهلة لأوهام عصرهم وخرافاته. إلا أن كل الأدلة اجتمعت، بما فيها النبوات التي سبقت الحدث نفسه بمئات السنين، وما حدث من تغيير غير مفهوم في المؤمنين الأوائل أكسبهم شجاعة وثقة غير مسبوقتين. هذا بالإضافة إلى الأدلة التجريبية التي تدعم هذا كله. وهذه

الأدلة مجتمعة تؤكد بكل قوة حقيقة القيامة. ولو كانت السلطات اليهودية والرومانية قد أرادت أن تخمد هذه العقيدة وتثبت أنها مجرد قصة هزلية، ما كان عليها إلا أن تُظهر جسد المسيح، ولكنها لم تستطع . وبولس نفسه سلَّم بأنه لو لم يكن المسيح قد قام، فالمسيحيون أشقى جميع الناس.[٢٤]

لقد كان بولس صاحب عقلية جبارة، وما كان لَيبني حياته على أساس واهٍ بلا أدلة كافية. فقد رفض كل الاستنتاجات التي تقوم على فرضيات كاذبة. ولكن هذا المضطهِد الذي عذَّب الكنيسة الأولى ونادى بعقوبة الإعدام لمن وقعوا تحت "غواية" الرسالة المسيحية، وجد نفسه أول المدافعين عن قضية المسيح.

وما منح بولس رجاءً في الحياة هو معرفته واقتناعه بأن المسيح حطم قيود الموت حقًا وهزم القبر. وكانت هذه الحقيقة هي الدافع القوي الذي يحركه من الداخل والعنصر الجذاب والدائم في إعلانه المسيحي. فهو لم يخشَ إنسانًا ولا قوة لأنه عرف الشخص الذي معرفتُه هي الحياة الأبدية نفسها.لقد كان وضع بولس وضعًا فريدًا يختلف عن سائر التلاميذ. فكلهم عرفوا يسوع في الترتيب الزمني لميلاده، وحياته، وموته، وقيامته. أما بولس التقى به في التسلسل المنطقي لقيامته، وموته، وحياته، وميلاده . فكان يعرض حجته كمن ينظر من ثقب مفتاح القيامة رجوعًا في الزمن، لأنه من هذ المنظور رأى حقيقة رسالة المسيح، وفهم معنى موته، وحياته، وتحقُّق النبوات بميلاده . وهذه العناصر مجتمعة جعلت المسيح مركز التاريخ . فقد تكلم الله حقًا وتبرهن صدق رسالته بنصرته على الموت.

والآن انكشفت خريطة الحياة كلها أمام بولس وأصبح قادرًا على تفسيرها بعيني المسيح المقام. وأصبحت حقيقة القيامة ببراهينها التجريبية هي الوتد الذي علَّق عليه مصيره كله. فالقيامة كانت وما زالت الحقيقة التي تبث الأمل في القلوب والعقول عبر العصور.

فقد روى الدكتور "بيلي جراهام" Billy Graham أنه في حوار له مع المستشار الألماني "كونراد أدناوَر" Konrad Adenauer، سأله السيد "أدناوَر" قائلاً: ''هل تؤمن بقيامة يسوع المسيح من الأموات؟'' وعلى الفور أكد الدكتور "جراهام" أنه

يؤمن بذلك. وعندئذٍ صمت المستشار طويلاً ثم قال: "لا أعرف رجاء آخر للجنس البشري بعيدًا عن قيامة يسوع المسيح".

يا لها من عبارة خارقة عميقة المعنى نطق بها واحد من أعظم القادة السياسيين في القرن العشرين. ويكمن عمق معناها في أنها تحوي الكثير وأنها صدرت عن رجل كان عليه أن يجمع الحطام الذي خلّفه هتلر في العالم.

الأوضاع تتبدل:

يصور "سي. إس. لويس" بمنتهى البراعة هذا الحق الثابت تصويرًا قصصيًا رمزيًا يجذب جميع الأعمار في كتاب "الأسد والساحرة وخزانة الملابس" The Lion, the Witch and the Wardrobe. الأسد "أصلان" Aslan رمز للمسيح في قوته الجليلة الرقيقة. والساحرة الشريرة رمز للشيطان. والصغير "إدموند" استسلم للساحرة تحت إغراء الملبن الذي قدمته له. وترتب على خضوعه لهذا الإغواء أنه خان "أصلان" وأخاه وأخواته. وكان قراره هذا يتضمن اكتشافه للاستقلالية ورفض إرادة "أصلان" ومشورته باختياره. ولكن ما لم يعرفه "إدموند" أن عقوبة هذه الخيانة هي الموت، وفقًا لما تقتضيه قوانين "السحر العميق". ولكن "أصلان" قدم حياته ليموت عوضًا عنه ويحتمل عقوبته كاملة نظرًا لشدة حبه له وحزنه عليه. فتنتشي الساحرة فرحًا لأن نهاية "أصلان" كانت الحلم الذي ترجو تحقيقه لأن هذا يضمن لها أن تحكم "نارنيا" دون أن يعوقها نفوذ "أصلان". ويوضع "أصلان" مضروبًا مقيدًا على اللوح الحجري الطقسي. ويصاب الأطفال بمنتهى الأسى والإحباط وهم يشاهدون مذلة "أصلان" وموته، ويسود الأجواء صمت رهيب لا تقطعه سوى شهقات نحيبهم.

ولكنهم فجأة يسمعون اللوح الحجري يتكسر، وعندما يسرع الأطفال في حيرتهم إلى مكان اللوح يجدون "أصلان" يحييهم منتصرًا على الموت. وينتظر الأطفال شرحًا لهذا الحدث الذي يفوق قدرتهم على الفهم.

> قال "أصلان": "هذا يعني أنه رغم معرفة الساحرة بالسحر العميق، هناك سحر أعمق لا تعرفه. فمعرفتها لم تبدأ إلا مع بداية الزمن. ولكنها

لو تمكنت من أن تنظر إلى ما قبل الزمن لقرأت في الأزل السحيق نوعًا مختلفًا من التجسد. ولعرفتَ أنه عندما تُقتل ضحية بريئة بإرادتها نيابةً عن الخائن والمجرم الحقيقي، لابد للوح أن يتهشم ولابد للموت نفسه أن يعمل بطريقة عكسية". [٢٥]

لقد عبَّر "سي. إس. لويس" ببراعته في التصوير عن حقائقَ كتابية عميقة في هذه القصة البسيطة. وقدم لمحة لواقع الحياة من منظور رئيس الحياة الذي لم يتمكن الموت من احتوائه. إن تصدع اللوح والموت عندما ننظر له في اتجاه عكسي أي من النهاية للبداية هو تعبير رمزي ومجازي عما تكتسبه الحياة نفسها من تعريفات جديدة. وقد عبَّر "كيركيجارد" Kierkegaard عن الفكرة نفسها عندما تحدث عن تعريف الحياة من الآخر للأول وعيشِها من الأول للآخر: أي أنه بدأ بمصيره، وبناءً عليه أعاد تعريف رحلة حياته. وهذا المصير الذي يمكننا أن نعرفه يساعدنا أن نغير اتجاهنا في الحياة بالكامل. وهي فكرة منطقية، لأن كل رحلة لابد أن تبدأ بمعرفة نقطة الوصول. وقصيدة "نحن سبعة" المذكورة آنفًا لها قصة شيقة. فقد قال "وردزورث" أنه عندما كتب تلك القصيدة بمساعدة "كولريدج" بدأ الكتابة بالبيت الأخير. وهو ما يُعَلمنا مبدأً مهمًا عن الحياة نفسها، لأن المرء إن لم يعلم وجهته، فهل نتعجب إن ضل الطريق دون أن يدري؟

هذا هو منتهى التحول في النموذج الذي نعيش وفقًا له، فالحياة لم تعد تنتهي عند القبر. ولكن الجنس البشري يمكنه أن ينعم بالأمل عندما يرى الأمور بعيني ذاك الذي قهر الموت، وعندها تتغير تعريفاتنا لكل أساسيات الحياة. وقد عبَّر "تشسترتون" عن هذه الفكرة خير تعبير في القصيدة التي كتبها عن إقامة لعازر من الأموات. وقد وضع الكلمات على فم هذا الرجل تَوَّ خروجه من القبر:

بعد لحظة واحدة عندما أحنيت رأسي

وقد انقلب العالم كله عائدًا إلى وضعه الصحيح

خرجت حيث ضاء الطريق القديم بالنور الصريح

سرت في الطرقات وسمعت ما قاله الجميع ...

الحكماء يقدمون مئات الخرائط
التي ترسم كونهم الزاحف مثل شجرة
وهم يغربلون العقل بالكثير من الغرابيل
التي تحتفظ بالتراب وتسقط الذهب
وكل هذه الأشياء في نظري لا تساوي حتى التراب
لأن اسمي لعازر وأنا حي [٢٦]

هذا هو منتهى التحول في النموذج الذي نعيش وفقًا له، فالحياة لم تعد تنتهي عند القبر. ولكن الجنس البشري يمكنه أن ينعم بالأمل عندما يرى الأمور بعيني ذاك الذي قهر الموت، وعندها تتغير تعريفاتنا لكل أساسيات الحياة.

وقد كتب "پول و. هون Paul W. Hoon":

إن يسوع المسيح دائمًا ما يتناقض معنا في اختبارنا للحياة، ويجبرنا أن نعيد تعريفنا للحياة على نحو يختلف جذريًا عن تعريفاتنا القديمة. فهو يلتقي بنا كما التقى بتلاميذه في أحد القيامة. لقد كانوا هم الذين يعيشون الموت بالفعل. فمَن نجوا من موته كانوا هم "الأموات". أما "الميت" كان هو الحي الحقيقي.[٢٧]

وهنا يجد سؤال أيوب: "إن مات رجل أفيحيا؟" الإجابة القاطعة المدوية. فبعد أن أصبح مصيرنا مفهومًا، لابد أن تتغير نظرتنا للحياة.

الحق يتجلى:

عندما توفيت أمي، كانت الفكرة الوحيدة التي علقت بذهني تنحصر في كلمة

"ذهبَت". وكلما تأملتها، ازدادت حدة: "ذهبَت، ذهبَت، ذهبَت". ولكنني عندما أدركت وعد المسيح الذي قطعه لمَن اعترفوا به ربًا ومخلصًا، شعرت أن الفكرة تكتمل. فقد قال يسوع لمرثا عند قبر أخيها لعازر "أنا هو القيامة والحياة". وقال لتلاميذه في مناسبة أخرى: "إني أنا حيّ فأنتم ستحيون". إن أمي لم تذهب فحسب، ولكنها ذهبت إلى موطنها لتبقى مع ربها. لقد خدمته بقلبها وعقلها. والفرق بين "الذهاب" و"الذهاب للوطن" هو فرق الأبدية كلها.

وهذا هو الرجاء الذي تغنى به المؤلف المسيحي "دون ويرتزن Don Wyrtzen" في إحدى ترانيمه:

عندما يحيق رعب البحر الهائج بك
والأمواج المجهولة تتلاطم أمام عينيك
يقف الأبد في نهاية الخطر والشك
حتى وإن تمكن الخوف والصراع من نفسك
عندما يلِفُّك ظلام الليل الحالك
وتستشعر وحدة الموت الرهيبة
في نهاية هذا النفق الطويل شعاع من النور
لأن الموت ابتُلع إلى انتصار
فكرِّ فقط لحظة أن تطأ قدماك الشاطئ
فتكتشف أنك في السماء
فكرِّ لحظة أن تلمس يدًا فتكتشف أنها يد الله
لحظة أن تتنفس هواءً جديدًا فتكتشف أنه نسيم السماء
لحظة أن تستيقظ في مجد فتكتشف أنه البيت [٢٨]

إن هذه الأغنية تردد أصداء ما قاله بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس:

هوذا سر أقوله لكم: لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغير، في لحظة في طرفة

عين، عند البوق الأخير. فإنه سيبوق، فيقام الأموات عديمي فساد، ونحن نتغير. لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت. ومتى لبس هذا الفاسد عدم فساد، ولبس هذا المائت عدم موت، فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة: ابتلع الموت إلى غلبة. أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟

١كورنثوس ١٥: ٥١- ٥٥

إن إدراكنا لقوة المسيح وانتصاره على القبر يمكننا من أن نرى تصميمًا رائعًا، وأخلاقًا، ومعنى، ورجاءً في هذا الكون المحكم والمتقن الذي نعيش فيه.

التحليل النهائي:

لقد حاولت أن أبرز الأركان الأساسية في حياة المسيحي باستخدام منهج ثلاثي. (الملحق الأول يتناول طبيعة هذا المنهج وأهميته بالتفصيل). فطبيعة البشر المُركبة وطبيعة الحق المتماسكة تتطلب هذا المعيار الثلاثي. وبتطبيق هذه القاعدة على القيامة، رأينا الحجة التي قدمها التلاميذ وثبتت صحتها تجريبيًا، ورأينا التصوير الجميل الذي أبدعه "سي. إس. لويس" يخاطب به الخيال لشرح هذا الحق في قصة "الأسد والساحرة وخزانة الملابس"، ورأينا قوة هذه الحقائق عندما تطبَّق عند وفاة أحد الأعزاء. فالحجة، والتصوير، والتطبيق تقدم للعقل حكمةً، وللقلب رجاءً، وللحياة إرشادًا.

وعلى النقيض من ذلك، عندما يُستخدم هذا المنهج نفسه في فحص الإلحاد وتمحيصه يبين ضعف دفاعه وفداحة خسارته على نحو يفوق خيال "نيتشه" نفسه. وقد اكتفيت بتناول أربعة مواطن من هذه الهزيمة: القفزات الجاهلة إلى السبب الأولي، وفقدان الأخلاق، وغياب المعنى، وضياع الرجاء. وكلها تؤدي إلى تقسيم الحياة وتفكيكها مما يتيح الفرصة لظهور إجابات متناقضة في محاولة لشرح القضايا المتعلقة بأصل الإنسان، ووضعه الأخلاقي، وخلاصه، ومصيره.

ولكن خسائر الملحد لا تتوقف عند هذا الحد. وذلك، لأنه إن كان على خطأ، فلا

أمل له في استرداد ما فقَدَه. وهذه هي النقطة التي يتمحور حولها رهان "پاسكال":

> لا مفر من المراهنة. فالأمر ليس اختياريًا، لأنك جزء من اللعبة أصلاً. أيهما تختار إذَن؟ ما دُمتَ ستختار لا محالة، فلابد أن تعرف أنك إن خسرت ستفقد شيئين: الحق والخير، وستغامر بشيئين: عقلك وإرادتك، معرفتك وسعادتك، وطبيعتك لابد أن ترفض شيئين: الخطأ والتعاسة. وعقلك لن يعود يخشى من اختيار الواحد دون الآخر لأنك لابد أن تختار. فهذا موضوع محسوم. ولكن ماذا عن سعادتك؟ هل يمكن أن تضمن السعادة؟ على أي حال دعنا نتخيل أنك ستختار أن تراهن على أن الله موجود. ولنزن المكسب والخسارة في هذه الحالة. إن ربحت الرهان أي إن اتضح أن الله موجود فعلاً، ستكون قد ربحت كل شيء. وإن خسرت، لن تخسر شيئًا. إذَن فلتراهن على أنه موجود دون تردد.[٢٩]

إلا أن حجة "پاسكال" يجب ألا تقدَّم أبدًا باعتبارها برهانًا على وجود الله أو سببًا للإيمان به. فهذا ما لم يقصده "پاسكال" مطلقًا. وإلا أصبحت حجة معيبة لأنها تتخذ من الخبرة نقطة انطلاق لها، مما قد يؤدي بها إلى اعتناق إيمان هش يقوم على منطق أكثر هشاشة. ولكنها يجب أيضًا ألا تُرفض تمامًا باعتبارها قفزة قدرية طائشة يلجأ إليها المرء عندما يستسلم العقل. ولكن "پاسكال" حاول أن يواجه تحديًا واحدًا من تحديات الإلحاد، كما أوضح هو نفسه. وهذا التحدي هو اختبار تحقيق الذات الوجودي. ومن ثم، فالإلحاد لا يمكنه أن يقدم حجة مقبولة تُناقض خبرة "پاسكال"، طالما أن الخبرة هي كل ما يعنينا في هذا السياق. والحقيقة أن "پاسكال" قال إنه يمتلك ما هو أكثر من مجرد تحقيق الذات. فهو يتمتع بكل ما وعد به الإيمان المسيحي، بما في ذلك الرجاء الأعظم الذي يتجاوز القبر. ومع ذلك، فحتى لو كان الموت نهاية، فلن يخسر شيئًا، لأنه نَعِمَ بالرضا والسعادة في الحياة. وهذا هو كل ما قصده.

أما الملحد فرفْضه لله يجعله يتأرجح بين خيارات تمنحه شعورًا باللذة، ويظل السلام الداخلي دائمًا حلمًا بعيد المنال. وإن اكتشف بعد موته أن الله موجود،

فسوف يستحيل عليه أن يعوض خسارته بأي حال. وبذلك سيكون قد خسر الرضا والسلام في هذه الحياة، ويكون الموت قد فتح الباب للخسارة النهائية والضياع الأبدي. صحيح أن كل الأحكام والاختيارات تنطوي على هامش خطأ. ولكن لا يُفترض أبدًا في أي حُكم أن يحمل في ذاته احتمال وقوع خسارة يستحيل تعويضها للدرجة التي يصبح معها كل ربح بلا قيمة. وهذا هو تمامًا الحكم الذي يصدره الملحد. فهو يراهن على نفسه مراهنة الكل أو لا شيء ويلعب بها لعبة حظ خطيرة. ويعتنق إيمانًا لا يقبله العقل.

إن الملحد يخاطر بكل شيء في الحاضر والمستقبل على أساس الاعتقاد بأننا لم نسبَّب بفعل أي كائن ذكي. ولكننا وُجدنا بالصدفة. إن من لديه الاستعداد أن يبني حياته ومماته على مثل هذا الاعتقاد يدفع ثمنًا باهظًا جدًا في مجرد تخمين.

إن الملحد يخاطر بكل شيء في الحاضر والمستقبل على أساس الاعتقاد بأننا لم نسبَّب بفعل أي كائن ذكي. ولكننا وُجدنا بالصدفة. إن من لديه الاستعداد أن يبني حياته ومماته على مثل هذا الاعتقاد يدفع ثمنًا باهظًا جدًا في مجرد تخمين.

٥. امتياز الاختيار وخطورته:

يتضح الآن الفرق والاختيار: فإما أن يُخضع المرء قلبه وإرادته لحكم الله أو يختار أن يحتفظ باستقلالية تامة ويحكم نفسه بنفسه، بغض النظر عن العواقب. وقد أعلن الله عن نفسه في هذا العالم وفي كلمته. ونحن نرى معركة تدور داخلنا: ففي داخلنا نزعة نحو الاستقلالية تكشف ما بنا من فساد، ونزعة أخرى تتجه نحو الله الذي خلقنا على صورته. وعلى كل واحد منا أن يختار لأن العيش في حالة من التناقض يمزق المرء. وكلمات "پاسكال" ترسم صورة رائعة لهذه الفكرة:

> يا للإنسان من مخلوق غريب معقد مليء بالاختلافات! يا له من كائن عجيب، يا له من وحش، يا له من عالَم مضطرب، يا له من فريسة سهلة



بين برائن التناقض، يا له من عبقري ! يحكم في كل الأشياء، دودة ضعيفة في الأرض، مخزن الحق، بالوعة الشك والخطأ، مجد الكون وعاره.[٣٠]

إن الاختيار بين البدائل المتاحة يعني مخاطرة المرء بكرامته الجوهرية ومصيره النهائي. وفي الإلحاد يسعى المرء نحو تحقيق مجد يُشبع ملذاته وينتهي بالعار. أما المسيحي الذي يدرك عاره أمام الله، يتغير روحيًا فيرى المجد الذي خُلق له كل إنسان. وهنا تكمن النقطة التي يجب على كل ملحد أن يواجهها بمنتهى الصدق: إن الإنسان لا يبلغ الدهشة المفرحة في حياة يثريها الله أضعافًا إلا عندما يعترف بفقره الروحي.

وإننا لنجد في مراسم دفن الإمبراطورة "زيتا" Zita، آخر أباطرة "هاپسبرج" Hapsburg تصويرًا لا يُنسى يؤكد هذه الفكرة. اصطف الآلاف خلف النعش الذي تجره ستة خيول سوداء. وتوقف الموكب عند كنيسة "كاپوشين" Capuchin Church حيث أقيمت الطقوس وفقًا للتقليد القديم. ثم قرع أحد أعضاء مراسم الجنازة باب الكنيسة المغلق، فأتى صوت من الداخل يسأل: "من الطارق؟"

فقُرئَت الألقاب بصوت مسموع: "ملكة بوهيميا، ودالماسيا، وكرواتيا، وسلاڤونيا، وجاليسيا. ملكة أورشليم، والدوقة الكبرى لتوسكانا وكراكو".

فأتت الإجابة من داخل الكنيسة: "لا أعرفها".

فقُرع الباب ثانية، وسُئل السؤال: "من الطارق؟" وكانت الإجابة: ""زيتا" إمبراطورة النمسا وملكة المجر".

وجاءت الإجابة ثانية: "لا أعرفها".

وعندما سئل هذا السؤال الإجباري للمرة الثالثة، جاءت الإجابة ببساطة: ""زيتا"، إنسانة خاطئة فانية". فانفتحت الأبواب بطيئةً وأتى الصوت مُرحبًا: "تفضلي بالدخول".

وهنا يكمن أكبر صراع عند الملحد. فهو لا يرفض الله لما لديه من متطلبات فكرية لا تفي بها فكرة وجود الله ولا لقلة الأدلة، ولكنه يرفضه بسبب عناد أخلاقي يأبى الاعتراف باحتياجه لله. فالله يدعو كل إنسان أن يُقبل إليه باعتباره رئيس الحياة

وينال الخلاص المقدَّم بيسوع المسيح. ويسوع نفسه يُذكرنا أن الإنسان لا ينتفع شيئًا لو ربح العالم كله وخسر نفسه. ولكن مَن يضع ثقته فيه، يقدم له الحياة بكل ملئها. وقد قال يسوع:

> لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟ ... ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو! لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم: إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدًا في التنور، يلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدًا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟ فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم. لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم.
>
> متى ٦: ٢٥، ٢٨- ٣٣

إن مبتغانا الأول يجب أن يكون الله نفسه، وعندئذٍ تنتظم سائر المطالب والاحتياجات الثانوية جميعًا. فليسِ مصادفة أن نجد آخر فقرة من آخر أسفار الكتاب المقدس مرصعة بكلمة "تعالَ" وكلمة "فليأت". إنها دعوة من الله. "تعالَ. ومن يعطش فليأت. ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجانًا" (رؤ ٢٢: ١٧).

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- ما الحجة الدفاعية التي يستخدمها الله مع أيوب في الرد على اتهاماته؟ (انظر ص ١٣١- ١٣٣). لاحظ أن هذا المنهج لا يقتصر على الجانب العقلي المعرفي، وإن كانت هذه الحجة بالتحديد تصنَّف في فئة الأدلة العقلية، ولكن الله يتحدث إلى أعماق قلب أيوب ويفتح عينيه على الأسرار الغامضة. هل يجيب هذا المنهج عن بعض من أسئلتك العميقة؟ وكيف يمكنك أن تستفيد منه في حواراتك؟

٢- كيف يختلف تناول المسيحي للمعرفة عن تناول الملحد؟

٣- ما الذي يطلق عليه الكاتب "المبدأ الثاني في المبادئ الجوهرية للإيمان بالله؟" (انظر ص ١٣٧-١٣٨) ناقش كيف تؤكد الخبرة البشرية هذا المبدأ بكل قوة. وكيف يتناول الكتاب المقدس هذه القضية؟

٤- ما هي الجوانب الثلاثة التي يعطيها المنظور المسيحي معنى في حياة الفرد؟ (انظر ص ١٥٢). كيف ينطبق ذلك على حياتك الشخصية؟

٥- قال الفيلسوف "سورن كيركيجارد" Søren Kierkegaard إنه إن أراد المرء أن يحيا حياة من نوع جيد، عليه أن يُعَرِّف الحياة من آخرها لأولها؛ بحيث يكون المصير هو نقطة البدء. ناقش هذه الفكرة موضحًا كيف يمكنها أن تغير اتجاهك في الحياة. واشرح كيف يتعامل "سي. إس. لويس" (وخصوصًا في كتاب "الأسد والساحرة وخزانة الملابس") والفيلسوف "بليز پاسكال" مع هذه القضية من المنطلق نفسه؟

الملحق الأول

إصبع الحق وقبضة الواقع

إن جعلت الناس يظنون أنهم يفكرون، سيحبونك. ولكنك
إن جعلتهم يفكرون بالفعل، سيكرهونك.

"دون ماركويس" Don Marquis

أرسل أحدهم ذات مرة للكاتب الإنجليزي"تشسترتون" وسأله عن رأيه في الحضارة. فأجاب "تشسترتون" على الفور:"أظنها فكرة رائعة، لماذا لا يبدأ أحدهم بتنفيذها؟"

إن الإفلاس الأخلاقي الذي يسود عالمنا والفراغ الوجودي الذي نراه في شبابنا اليوم بكل وضوح بنفي أي اتهام لإجابة "تشسترتون" بأنها متشائمة. والاعتراف الأصعب هو أن نقر بالعلاقة بين الإلحاد وهذه الأزمة التي نعيشها حاليًا.

فقد تحاول أن تفند الادعاء القائل بأن الإلحاد هو الرحم الذي أنجب ما نعانيه من داء أخلاقي. ولكنك ما أن تبدأ بفحص افتراضاته واستنتاجاته حتى تكتشف أنه منظومة لا تقوى على الدفاع عن نفسها أمام تلك التهمة والكثير من التهم الأخرى. فهي تحوي في فلسفتها عدة عيوب قاتلة، مما يجعلها فلسفة مكلفة وخطيرة بحيث لا تصلح أساسًا للحياة ولا للمصير.

والخطوات الفلسفية التي اتبعتُها تشبه نوعًا ما المنهج ثلاثي الخطوات الذي يؤدي لتكوين الاستنتاجات في أي مجال. وخطواته هي الافتراضات، والحجج، والتطبيقات. وقد استلزم هذا المنهج الولوج إلى عالم المنطق، واختبار ما يتوصل إليه من نتائج بناءً على الخبرة، واستخدام التطبيقات بحيث توجه غيرها من



التطبيقات. وللتعبير عن هذا بشكل مختلف أقول إنني كان لابد أن أتناول الموضوع بدءًا مما هو مقنع منطقيًا (ما يمكن إثباته بالحجة) وانتهاءً بما تؤيده الخبرة (ما يمكن اختباره ورصده في الحياة). ولا يمكن إرساء القواعد وتطبيقها في الحياة إلا بعد هذه الخطوات. وعندما نُخضع الإلحاد للاختبار وفقًا لهذه المعايير، نكتشف ضعفه مقارنة بما يتميز به الإيمان من قوة وتماسك.

وكلمة "فلسفة" مرتبطة عند الكثيرين بالملل، هذا إن لم تكن مرتبطة بالكآبة. فالفلسفة لعقل الطالب كالسبانخ لمستقبلات التذوق عند الطفل؛ عقاب لابد منه ولكن ربما تكون له قيمة. ولكن النقيض الآخر لهذه النظرة هي أن تصبح الفلسفة للفيلسوف كالسبانخ لـ "پوپاي" Popeye[×]؛ الوسيلة الوحيدة والكافية لتقوية عضلات المخ. وفي هذه الحالة تُنَصِّب الفلسفة نفسها باعتبارها المرجع الأعلى للحقيقة والقادر على قهر أي عدو، وبالتالي تصبح لها القيمة العليا. ولكني حاولت أن أنقذ الحجج من الوقوع في أي من النقيضين، بحيث لا نقبل الادعاء بأن الفيلسوف هو مجرد بائع كلام فصيح، ولا نسمح له في الوقت نفسه أن يحمل على عاتقه مسئولية مفتش التذاكر على بوابة السماء. بل إن كل شخص له فلسفة في الحياة، والسؤال الوحيد هو ما إذا كانت فلسفته جيدة أم لا، كما أكد "سي. إس. لويس" عندما قال: "لابد من وجود الفلسفة الجيدة، وإن لم يكن من أسباب لأهميتها، فأقل ما يمكنها فعله أن ترد على الفلسفة الرديئة".[١]

كل شخص له فلسفة في الحياة، والسؤال الوحيد هو ما إذا كانت فلسفته جيدة أم لا.

باب العقل الأمامي:

الفلسفة في نظري تأتينا على ثلاثة مستويات. أولها الأساس، أي البنية التحتية النظرية التي يُبنى عليها ما نتوصل إليه من نتائج سواء بالاستقراء أو بالاستنباط. وللتبسيط أقول إن هذا المستوى يعتمد اعتمادًا كبيرًا على شكل الحجة وقوتها.

× شخصية كارتونية عبارة عن بحار يدخن الغليون وهو قوي جدًا لأنه يأكل الكثير من السبانخ. (المترجمة)



والوصول إلى النتائج وبناء الحجج هو عمل علم المنطق الذي لم يكن أبدًا شيئًا لطيفًا ولا مثيرًا عند معظم الناس. وقد عرَّفه "أمبروز بيرس" Ambrose Bierce الكاتب والصحفي الأمريكي بأنه "فن التفكير وإعمال العقل محكومًا بمحدودية الإدراك البشري وقصوره".[٢] فالمنطق للأسف يخضع لنفس النقد الذي وجهه "سَمَرَست موم" Somerset Maugham للكمال عندما قال: "الكمال ملل تافه".[٣] ومع ذلك، فرغم كل مقاومتنا له، لابد لنا من استخدامه لنختبر كل المزاعم ونتأكد ما إذا كانت حقًا أم زيفًا. وعلاوة على ذلك، يستحيل أن نهاجمه دون أن نستخدمه. وذلك، لأن الحق يؤثر تأثيرًا مباشرًا على الواقع، وقوانين المنطق تنطبق على كل جانب من جوانب حياتنا. والمثال الكلاسيكي يقول:

كل إنسان فانٍ

سقراط إنسان

سقراط فانٍ

ومن الصعب أن نقدم حجة مضادة لهذا، مهما كان يبدو مملاً.

فما دامت قوانين المنطق تنطبق على الواقع، فإن أردنا لأي حجة أن تصمد أمام الهجمات لابد أن نفهم هذه القوانين، وهو ما يمثل موضوعًا كبيرًا في حد ذاته، ولكن القوانين الأساسية لا غنى عنها لتوصيل الحق.

وقد قدم "بيتر كريفت" أستاذ الفلسفة في "بوسطن كوليج" عرضًا مختصرًا لأهمية المحاجة الصحيحة في كتاب "ثلاث فلسفات للحياة". وقد كتب ما يلي تحت عنوان "قواعد الرد" "Rules for Talking Back":

ثلاثة عناصر لابد أن تكون صحيحة في أي حجة:

(١) المصطلحات يجب ألا يشوبها أي غموض أو لبس.

(٢) الفرضيات يجب أن تكون صحيحة.

(٣) الحجة يجب أن تكون منطقية.

وعلى العكس، هناك ثلاثة أشياء يمكن أن تكون خاطئة في أي حجة:

(١) المصطلحات قد تكون غامضة أو ملتبسة.

(٢) الفرضيات قد تكون خاطئة.

(٣) الحجة قد تكون غير منطقية.[٤]

ولا يمكن التهاون في تطبيق هذه القواعد في أي حجة إن أردنا أن نحصل على نتيجة يمكن الدفاع عنها أو تفنيدها. فكل جملة تقريرية لابد أن تكون صحيحة، وكل استنتاج لابد أن يكون سليمًا ومبنيًا على حقائق وأدلة. فهذا المزيج الثنائي من الصحة والسلامة عنصر جوهري في أي حجة حتى تكون مقنعة، وإن كان أي منهما معيبًا تسقط الحجة.

والكثير من العقائد الشائعة عرضة لهذه الأخطاء. خذ مثلاً حجة غالبًا ما تُستخدم باعتبارها إثباتًا لعدم وجود الله.

(١) هناك شر في العالم.

(٢) لو كان هناك إله، لفعل شيئًا حيال هذا الشر.

(٣) لم يتم أي شيء حياله.

(٤) إذَن لا يوجد إله.

لاحظ أن الفرضية الثالثة ليست واضحة. ولكنها تحتاج لدليل يبرهن على صحتها. فهي مجرد استنتاج استنباطي في حد ذاتها يتطلب دعمًا استقرائيًا. وهكذا فإنها تفشل في اختبار الصحة والسلامة لأنها تكشف ما يعتنقه المرء من افتراض مسبق لم يُثبَت بعد. وهي لا تقول شيئًا عن وجود الله من عدمه، ولكن كل ما تقوله إنه لو كان موجودًا لأظهر نفسه بمزيد من الوضوح وفعل الأشياء "على طريقتي".

وعلى الرغم من ضعف الفرضية الثالثة، فهذا النوع من الحجج التي يقدمها الملحدون تمثل مأزقًا منطقيًا للمؤمنين. ولكن يمكن اتباع واحد من عدة مناهج باعتبارها مداخل للرد على هذه الحجة. ويجب أن يكون أول أهداف المؤمن في الرد أن ينزع مخالب السؤال ثم يقدم حججًا أقوى تبرهن على وجود الله.

لا شك أن قضية الشر تمثل واحدة من أهم الموضوعات المطروحة في المناظرات بين الإيمان والإلحاد. وسأكتفي بذكر منهجين يمكن للمؤمن استخدامهما باعتبارهما نقطة انطلاق للإجابة.

المنهج الأول:

١- نعم. في العالم شر.

٢- وإن كان في العالم شر، فهذا يعني وجود الخير (مشكلة يتعين على الملحد شرحها).

٣- إن كان هناك خير وشر، فهذا يستلزم وجود قانون أخلاقي نميز على أساسه بين الخير والشر.

٤- إن وُجد قانون أخلاقي، لابد من وجود مُشرع للقانون الأخلاقي.

٥- وهذا يشير إلى وجود الله من وجهة نظر المؤمن.

إذا اتخذ المؤمن من هذا المنهج نقطة انطلاق يمكنه أن يخفف من قوة الحجة المبنية على الشر ثم يتعامل مع ما يندرج تحتها من افتراضات. فيمكنه أن يبين أن بعض الافتراضات التي يقدمها الملحد تتناقض أصلاً مع فلسفة الإلحاد. ثم تأتي الخطوة الأخيرة حيث يقدم المؤمن الحجج التي تبرهن على وجود الله ويشرح ما قاله الله (وفعله) بشأن مشكلة الشر.

المنهج الثاني:

١- في العالم شر.

٢- لا تعارض بين الشر وحرية الإرادة في ظل خالق محب.

٣- والحقيقة أن مفاهيم المحبة والصلاح لا يمكن فهمها إلا إذا كان الله موجودًا.

٤- بما أن البشر يدركون المحبة والصلاح ويشعرون بهما، فهذا يؤيد حقيقة وجود الله.

٥- إذن الإيمان بوجود الله منطقي.



ومن هنا يبدأ المؤمن بتقديم حججه لإثبات وجود الله. وقد يتحدى الملحد بعض فرضياته، ولكن هذا هو أسلوب عرض الحجج والحجج المضادة.

وقد كُتبَت في هذا الموضوع كتب ممتازة. فمشكلة الشر متعددة الأوجه ويجب التعامل معها جميعًا: المشكلة الأخلاقية، المشكلة المادية الطبيعية، المشكلة الميتافيزيقة فيما وراء الطبيعة، وغيرها. ويدخل أيضًا ضمن المناقشة قضية "أفضل العوالم الممكنة"× "the best of all possible worlds". ومن الكتب التي تحتوي نماذج لأهم المناقشات المتعلقة بقضية الشر كتاب "مشكلة الألم" The Problem of Pain بقلم "سي. إس. لويس"، وكتاب "فلسفة الدين" Philosophy of Religion للكاتب "نورمان جايسلر" Norman Geisler. ويتعامل "لويس" مع المشكلة من الجانب الوجودي، بينما يتعامل معها "جايسلر" من الجانب الفلسفي.

وقد عرضتُ ما تقدم لأبين أهمية المنطق في أي مناقشة تتعلق بوجود الله. وعند نقطة معينة يستخدمه كل طرف إما ليتحدى وجود الله أو ليدافع عنه. ورغم أنه ليس الجميع يرغبون في الغوص في قوانين المنطق، فالجميع يستخدمون عملية التفكير المنطقية التي تُكون الحجة يوميًا حتى دون أن يدروا. ولكن المنطق يمثل أهمية كبرى في قضية بحجم قضية وجود الله. وهو ليس بالأمر الغريب لأنه حيثما أردنا أن نؤكد الحق، غالبًا ما تظهر في المقابل مزاعم كاذبة مضادة. وهو ما دعا "سي. إس. لويس" أن يقول بضرورة وجود فلسفة جيدة، وإن لم يكن من أي مبرر لوجودها، فأقل ما تفعله أن ترد على الفلسفة الرديئة. وعملية صنع الحجة على النحو الصحيح تُعتبر خطوة نحو قبول الحق ورفض الزيف.

ولذلك، إن لم تَثبت صحة الفرضيات في أي حجة، أو إذا تضمنت الحجة استنباطًا غير سليم، تَبطل الحجة. وهذا هو المستوى الأول في منهجنا الفلسفي؛ ذلك العالَم النظري الذي تطبَّق فيه قوانين المنطق علىالواقع. ولا جدوى من إنكارها أو عدم تطبيقها ومَن يتجاهلها يهدم حجته، وحتى اللغة تفقد معناها. لأن

× عبارة ابتكرها الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني "جوتفريد لايبنيتس" ويعني بها أن العالَم الفعلي هو أفضل العوالم الممكنة ويتخذها حجته الرئيسية في تفسير وجود الشر في العالم رغم وجود إله صالح. (المترجمة)

المرء لابد أن يستخدم المنطق إما لدعم الحجة أو لدحضها. وباختصار، المستوى الأول يتعامل مع السبب الذي يدعو المرء للإيمان بما هو مؤمن به، ويقوم على عملية التفكير المنطقي الذي يقودنا إلى الحق.

لا جدوى من إنكار قوانين المنطق ومن ينكرها يهدم حجته لأن المرء لابد أن يستخدم المنطق إما لدعم الحجة أو لدحضها.

الباب الخلفي للفنون:

أما المستوى الثاني في الفلسفة لا يتقيد بضوابط العقل ولا ينحصر في قيود المحاجة. ولكنه يجد ملاذه في الخيال والمشاعر. وطرق التفكير على هذا المستوى قد تدخل وعي المرء عن طريق مسرحية أو رواية، أو قد تتلامس مع خياله بالإعلام المرئي، فتستحوذ على عواطفه وتؤثر عليه بشكل قد يؤدي به لتغيير معتقداته. وهي وسيلة في منتهى الفاعلية، حتى إنه على مر التاريخ نجح الأدب، والمسرح، والموسيقى في تشكيل روح الأمم بشكل يفوق كثيرًا ما فعلته الكتب الدراسية التي سبرت أغوار اللغة والحق والمنطق. إن هذا المستوى الثاني هو مستوى وجودي وقد يَدعي خطأً أنه لا يحتاج أن يخضع لقوانين المنطق. وعندما تكون الغلبة لهذا المستوى الثاني، قد يزعم البعض أن علماء المنطق يتعاملون مع نظريات جافة، في حين يتعامل الوجوديون مع الحياة، والحس، والشعور.

إلا أن هذا المستوى أو المنهج الثاني يحمل في داخله نقاط ضعفه ونقاط قوته. وتكمن قوته في تسديد ما يشعر به المرء من احتياجات، بينما يكمن ضعفه في أن المشاعر تخلق مطلَقات. وللأسف أن الخيال في أيامنا هذه يتعرض لهجمات غير مسبوقة من جميع الاتجاهات لغزو ضمائرنا بصور مزعجة وأصوات مشوِّهة للواقع تنبذ ما هو بنَّاء وتمجد الغرابة والعنف. وبالتالي، فالعواطف تتعرض للابتزاز مما يخلق في الحياة لحنًا نشازًا بدلاً من اللحن المتناغم. وذلك، لأن الخيال قد يتحول إلى وهم، وعوضًا عن أن يخدم قضايا الجمال والخير، قد يصبح ساحة للقتال

والشر. وهنا تكمن الخطورة لأن انتهاك الخيال يُنتج انحرافات تناهض العقل وتتحداه. وعلى العكس، عندما يستثار الخيال بما هو نبيل وصحيح، يكتسب قدرة جبارة على تحسين وضع العالم.

ومنذ عدة سنوات غنَّت فتاة في التاسعة من عمرها أغنية تصور قوة هذا المستوى في الفلسفة حتى أصبحت أكثر الأغاني التي يطلبها المستمعون في أنحاء البلاد. وذلك، لأنها تناولت موضوعًا لا يحتاج علماء المنطق للدفاع عنه. فقد لمست الأغنية أعمق الأحاسيس عند الكبار والصغار في كافة شرائح المجتمع.

عزيزي يسوع، كان لابد أن أكتب لك
لأني شاهدت في الأخبار شيئًا سبب لي رعبًا رهيبًا
قصة عن طفلة صغيرة مضروبة والكدمات سوداء وزرقاء
يسوع، قلتُ لابد فورًا من إبلاغك...
من فضلك لا تتركهم يؤذون أطفالك
نحن نحتاج حبًا ومأوى من العواصف
من فضلك لا تتركهم يؤذون أطفالك
ألا تحفظنا سالمين دافئين؟ [٥]

والسر وراء فاعلية هذه الأغنية واضح ومفهوم. فالعنف ضد الأطفال جريمة بشعة حتى إن معظم المجرمين يمقتونها، لدرجة أن مرتكبيها غالبًا ما يُعزلون في السجون لحمايتهم من غضب زملائهم السجناء. فإن معتقدًا بهذا الشيوع بشأن إيذاء الأطفال لا يحتاج مساعدة من فيلسوف. وقوة الحق الذي لا يقبل المجادلة التي حملتها نغمات لحن بسيط وضاعف صوت الطفلة من قوة إقناعها يمكنها أن تثير خيال أمة بأكملها.

لماذا؟ تخيل نفسك في حوار على الغداء مع بعض أساتذة الجامعة تناقشون قضية العنف ضد الأطفال. تخيل رد فعلك لو وجدت أن بعضهم يؤيد القضية والبعض يعارضها. لا شك أن هذا الموقف سيستفز خيالك ليكتشف ما الذي يجعل شخصًا يدافع عن إيذاء الأطفال.

وقد اختبرتُ هذه النظرية مع بعض طلاب جامعة أكسفورد ممن يشكون في وجود الله ويبحثون عن حل لمسألة الشر. فقلتُ لهم: لو أخذت رضيعًا وقطّعته أمامكم إربًا، هل في هذا التصرف خطأ؟ وكانوا قبل أن أطرح عليهم هذا السؤال قد أنكروا وجود قيم أخلاقية موضوعية. ولكني عندما طرحت هذا السؤال، ساد الصمت الرهيب، ثم انبرى الطالب القيادي فيهم قائلاً: "لن يعجبني هذا التصرف، ولكن لا يمكنني أن أقول إنك ارتكبت أي خطأ". يا للهول! يا للحس المرهف. لن يعجبه! يا للهول! يا لغياب العقل والمنطق. لم يتمكن أن ينعت تصرفي بأنه خاطئ! ولم يكن عليَّ إلا أن أسأله أنه لو أنكرنا الشر، فما الذي يتبقى من سؤالك الأصلي؟

إن الفطرة السليمة هي وحدها التي تملي علينا المنطق من وراء حماية الأبرياء والضعفاء في المجتمع ورعايتهم. والفطرة السليمة أيضًا تكشف أن هذه الفلسفة التي تقول "لن يعجبني تصرفك ولكن لا يمكنني أن أقول إنك ارتكبت خطأ" لا تصمد لحظة رؤية المرء لسكين يطير نحوه. وهذا هو مربط الفرس: رغم أن الأغنية السابقة تخاطب الخيال، فهي وليدة المنطق والفطرة السليمة.

وقد عبَّر "صامويل تيلور كولريدج" عن هذه الفكرة بالتحديد عندما لجأ للخيال في حدود العقل ليلعب دورًا محوريًا في توصيل الحق سعيًا نحو الخير. واللاهوتي الإنجليزي الراحل "كولن جنتون" قال أيضًا:

> الخيال بهذا المفهوم ليس مجرد استجابة للمثيرات يأتي بها العقل دون أن يكون لها هدف ولا ضابط (على طريقة الاستجابة الشرطية كما في تجارب بافلوف×)، ولكنه الوسيلة التي تمكننا من اختراق فعل الخلق الإلهي وتكراره.[٦]

فعندما نفهم الخيال فهمًا سليمًا ونستخدمه استخدامًا بنّاء يساعد العقل على اختراق الواقع بنظرات فريدة من خلال العين الداخلية. ولكننا إن أسأنا فهمه واستخدمناه استخدامًا هدامًا، يمكنه أن يتحول إلى تربة خصبة لأفظع أنواع

× عالِم نفس روسي عُرف بنظرية الارتباط الشرطي التي توصل إليها بإجراء تجاربه على الكلاب حيث كان يدق جرسًا في لحظة تقديم الطعام للكلب، فيسيل لعاب الكلب، ومع تكرار التجربة كان الكلب يُسيل لعابه عند سماع الجرس حتى لو لم يقدَّم له الطعام. (المترجمة)



الشرور. ونقطة ضعف الخيال تكمن في ارتباطه الوثيق بالعواطف والأحاسيس التي يسهل أن تجمح وتشطح إلى الأوهام. والأحاسيس غير المنضبطة يمكن بدورها أن تخلق مجموعة جديدة من المطلقات إلى أن يرى المرء الواقع كما لو كان ماكينة بيع مصممة لتتكيف مع نزوات مشاعره المتقلبة. ويسقط الخيال فريسة سهلة لِما قاله الاقتصادي والكاتب الكوميدي الكندي "ستيفن ليكوك" Stephen Leacock: "الكثير من الرجال يقعون في حب الغمازة فيتزوجون الفتاة كلها".[٧]

فالواقع أن الكثير من الأفراد الذين يتخذون من عواطفهم نقطة الانطلاق في عملية تحديد الحق، يمسكون بإصبع المشاعر ويظنون أنهم أمسكوا قبضة الحق. وبما أنهم يقتصرون في تفكيرهم على هذا المستوى يزدادون انسحابًا نحو الداخل بشكل مطرد حتى يدور عالَمهم كله حول شعورهم الشخصي ويغوصون في أنفسهم بشكل خطير. وهم يعيدون تشكيل فلسفتهم الحياتية بحيث يمكن تلخيصها في هذه النظرة: "إنه شيء أشعر به ولكن لا يمكن التعبير عنه بالكلام". فإنٍ كان الشيء يبدو جيدًا، فلتفعله. أو كما تقول الأغنية: "كيف يمكن أن يكون خطأً رغم أنه يبدو لإحساسي صحيح جدًا؟"

يسهل علينا أن نتبين من تاريخ الثقافات الحديثة وتعبيراتها أن أمزجة الأمة وأهواءها تشكلت بتأثير مشاهير الكُتاب والكوميديين والموسيقيين. فمن يُكسبون الفنون قوتها يلعبون دورًا جوهريًا في تشكيل روح الأمة، ويؤثرون تأثيرًا عميقًا على طريقة تفكير الناس وسلوكهم. وكما أشار السياسي الاسكتلندي "أندرو فلتشر" Andrew Fletcher (١٦٥٥- ١٧١٦): "دعني أكتب أغاني أمة، وعندئذٍ لا يعنيني مَن يضع قوانينها".

هذا الجيل يسمع بعينيه ويفكر بمشاعره

إن التليفزيون والموسيقى يمثلان قوى جبارة لأنهما يحويان في طياتهما القدرة على اختراق الخيال مباشرةً دون المرور على العقل والتفكير. وبذلك يمكنهما أن يربطا ذلك القويِّ الذي يُدعى العقل، فيتمكنا من نهب أمتعته. وكما ذكرت آنفًا، هذا الجيل يسمع بعينيه ويفكر بمشاعره.

لقد كان الفلاسفة الوجوديون في الخمسينات والستينات من القرن العشرين على وعي تام بالخيال والفنون واستخدموا هذه القنوات لتصدير فلسفة التمرد. ومن هنا يجب أن نرى قدرة الفنانين والكُتاب على هذا التواصل العميق من حيث اتصالها بفلسفة الأخلاق. فهؤلاء الفنانون يوسعون الخيال الأكاديمي رغم أنهم بطبيعتهم يكرهون الخضوع للقواعد النظامية التي تحكم الفكر الأكاديمي. وبما أنهم يتناولون الواقع الذي يحدث هنا والآن، فهم يرفضون النظرية المجردة لأنهم يرون أنها تُمَوه ما تتسم به الحياة من قسوة وفوضى. فإن كانت الحياة نفسها بهذه الصعوبة والخشونة، فلماذا يجب أن نضع فلسفة للحياة تتسم بالتنظيم والاتساق؟ وعلاوة على ذلك، هم لا يرون أنهم يحولون النتيجة إلى سبب عندما ينظرون إلى الحياة باعتبارها سلسلة من المشاعر الجياشة التي تغزو فراغ الإنسان. وبذلك فإن خبرة الشعور بما هو حادث هنا والآن تتفوق على وجود الحق. وهم يحولون النتيجة إلى سبب أيضًا لأنهم يرون أن الخبرة تسبق الجوهر، والذاتي يتغلب على الموضوعي×، وهويتهم تتحدد بأفعالهم. وهذا التفكير المعكوس هو ما يُنتج أنَّات حافري القبور وتأوهاتهم وهم يدفنون الله. لأنه بدفن الله يُدفن كل شعور بالحياة. وإذ يواجهون هذا الهلع المرعب، يجدون أنفسهم مجبرين على إعادة تعريف كل شيء، ويضطر كل منهم لخلق واقعه الشخصي الخاص.

إن المستوى الثاني يتعامل مع الخيال ويبين السبب الذي يدفع الناس للعيش بطريقة معينة دون غيرها. وعندما يتزاوج مع العقل يمثل قوة جبارة تدعم قضية الخير. ولكن عندما يُطلق له العنان دون أن يحكمه لجام العقل فيستجيب للمثيرات استجابات طائشة منفلتة، ينتهي الأمر بالإنسان إلى تبرير أشنع الأفعال.

تمرير الآراء:

المستوى الثالث في الفلسفة هو ما أُطلق عليه "الخلاصات التي نتوصل إليها

× الموضوعية هي وجود الشيء مستقلاً عن الأفكار والآراء الشخصية وغير متأثر بها، وتشير في الفلسفة إلى الاعتقاد بأن الموجودات توجد مستقلة عن معرفة البشر بها أو إدراكهم لها. وضدها الذاتية وهي موقف يرى أن المعرفة تتوقف على وجود الذات المدرِكة وأنه ليس هناك حقيقة موضوعية خارجة عن نطاق الذات. (المترجمة)

على مائدة الطعام". فكم هو مدهش كمّ الاستنتاجات والقواعد الأخلاقية التي تسفر عنها الأحاديث اليومية العادية. وتتنوع الأوضاع فيما بين المقاهي حيث يتحاور الفلاسفة المحبَطون ويدلون بآرائهم في موضوعات عميقة، وموائد المطبخ حيث يتحاور الأطفال مع والديهم في مسائل جادة ومؤثرة. وقد ينشأ السؤال من آخرِ خبر يتردد في وسائل الإعلام، أو فضيحة الساعة، أو ربما يكون سؤالاً طُرح في الفصل من نوعية: ماذا تفعل لو كنت في مركب يغرق ومعك ثلاثة أقمصة نجاة وعلى سطح المركب أربعة ركاب؟ وهذا المستوى من التفلسف لا يترك الشحاذ ولا رئيس أعرق الجامعات لأن سؤال "لماذا" هو واحد من أقدم تعبيرات الحياة البشرية.

أذكر أني كنت ذات مرة أتحدث في إحدى الجامعات الأوروبية في ملتقى مفتوح كان يرأسه ويديره واحد من ألمع الأستاذة. ونظرًا لمعرفة الحضور بمؤهلاته الأكاديمية وقدرته الفلسفية انتبهوا انتباهًا شديدًا لما قاله في بعض الموضوعات الغريبة الغامضة. وكانوا في حالة من الانبهار والإعجاب به وإن كان الكثير مما قاله يفوق إدراك الكثيرين منهم.

وبعد هذا الملتقى بقليل ونحن في طريقنا إلى منزله دخل مع ابنته في مشادة كلامية حول البرنامج الذي أعدته لقضاء الأمسية لأنه لم يكن مقتنعًا بالحكمة من ورائها. وكم كان مؤسفًا أن أرى خلافًا كهذا بين أب وابنته لأن ما كان يتحلى به من وابل المؤهلات الأكاديمية منذ دقائق في قاعة المحاضرات لم يعد سوى أصداء باهتة مكتومة لحدث تافه.

فقد انكشف الفارق بين ما يؤمن به وما يعيشه، مما أتاح لابنته الفرصة لتتحدى الشعارات التي يفرضها عليها. وكان كل ما فعلته أنها منحت نفسها الحقوق التي ما كان له أن ينكرها بناء على منظومته العقائدية. وهو ما دق في أذني جرس الإنذار بأن كل ما أؤمن به عن الحياة لابد أن يُمتحن إن عاجلاً أو آجلاً على مائدة الطعام، أو في إحدى الغرف مع أسرتي حيث الشباب بارعون في امتحان والديهم واكتشاف ما إذا كانوا يسلكون وفقًا لمعتقداتهم أم أنهم يقولون ما لا يفعلون.

وهو ما دق في أذني جرس الإنذار بأن كل ما أؤمن به عن الحياة لابد أن يُمتحن إن عاجلاً أو آجلاً على مائدة الطعام، أو في إحدى الغرف مع أسرتي حيث الشباب بارعون في امتحان والديهم واكتشاف ما إذا كانوا يسلكون وفقًا لمعتقداتهم أم أنهم يقولون ما لا يفعلون.

وهذا هو المستوى الثالث عندما يدخل حيز التنفيذ، لأن التطبيق يحمل في داخله حقيقة لاذعة. إلا أن هذا النوع من التفلسف في حد ذاته يفتقر للأساس المرجعي ولا يتجاوز كونه رأيًا يجرؤ على أن يُعبر عما يجب فعله دون أن يتحمل عناء الدفاع عنه. فهو يُمرر خُلقًا دون أن يعزيه لأي مرجع أخلاقي.

وكل فرد يُصْدر أحكامًا أخلاقية في تفاعلاته اليومية مع الحياة. فهذه هي العملة التي نتعامل بها في حياتنا. ولكن إن لم يوجد معيار مقبول، تصير العملة بلا قيمة. فالمشكلة الأساسية في استخدام هذا المستوى الثالث بمفرده أن كل إدانة أو شجب ينطوي على عقيدة أخلاقية، وإن عجَزنا عن تقديم مبررات لهذه العقيدة الأخلاقية، فالإدانة تقوض الأساس الذي تقوم عليه. فضلاً عن أن الحقيقة تتطلب إجابة أفضل من مجرد التصريحات التي تقتصر على التطبيق العملي.

ومعظم برامج التليفزيون الحوارية تمثل نماذج لمناقشات المستوى الثالث حيث الآراء التي تُقذف جيئة وذهابًا تتعامل مع قضية البعد الجنسي كما تتعامل مع قضية محال الأيس كريم. وكل شيء في هذه الثقافة التي تعتنق النسبية يصبح مجرد مسألة ذوق أو تفضيل.

فقد كان أحد مقدمي هذه البرامج دائم التأييد للإجهاض بشكل متشدد ولم يُظهر أدنى تعاطف مع الموقف المؤيد للحياة. وقد كان شديد التطرف في موقفه حتى إنه كان يرفض استقبال مكالمات من الرجال بحجة أن هذا الموضوع لا علاقة له بالذكور. وكثيرًا ما كان يشن هجومًا مهينًا على من يعارض موقفه.

ولكنه أتى برد فعل مفاجئ على مقال صحفي يصف عملية إعداد بعض العدّاءات في أوروبا الشرقية قبل السباق. وقد شرح المقال أنه من بين الإجراءات اللازمة



لتقوية عضلات العدَّاءة أن تحبل قبل أي سباق مهم بشهرين أو ثلاثة. وذلك، لأن أول شهرين في فترة الحمل تزيد قوة العضلات زيادة كبيرة جدًا، وبذلك تجني ثمار الحمل ثم تجهض الجنين قبل السباق ببضعة أيام.

إلا أن هذا المقال أثار غضب مقدمِ البرنامج، حتى إنه لم يدخر وسعًا في إدانة هذه الممارسة باعتبارها إفراطًا وتفريطًا لا يُغتفر. ومع ذلك، فهو لم يشرح مطلقًا هذا التناقض في موقفه. لذا، يجب ألا تكون نقطة الانطلاق هي المذهب الإرشادي الذي يقتصر على تقديم آراء وقناعات شخصية تحدد السلوك الأخلاقي دون الاستناد على أي مرجع موضوعي. هذا بالإضافة إلى أن هذا المذهب عاجز عن تقديم مبررات لما يفرضه. فالمستوى الثالث يتعامل مع السبب الذي يدفع المرء لفرض توجيهات معينة بشأن ما يجب فعله.

الأسلوب السليم:

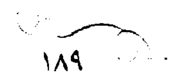
لتلخيص ما سبق أقول إن المستوى الأول يستند على المنطق، والمستوى الثاني يقوم على الشعور، والمستوى الثالث يتضمن كل ما يطبَّق على الواقع. أو يمكن التعبير عن الفكرة كالآتي: المستوى الأول يوضح ما يدفع المرء للإيمان بما يؤمن به. والمستوى الثاني يبين ما يدفعه للعيش بطريقة معينة. والمستوى الثالث يفسر ما يدفعه لأن يُشرع للآخرين قوانين أخلاقية بعينها.

وكل حياة عاقلة تتطلب إجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة.

أولاً: هل يمكنني أن أدافع عما أؤمن به دفاعًا يتوافق مع قوانين المنطق؟ أي هل ما أؤمن به قادر على الصمود أمام النقد؟

ثانيًا: لو اعتنق الجميع فلسفتي، هل سيتمتعون بحالة من الانسجام الوجودي في الحياة؟ أي هل هذه الفلسفة يمكن أن تعاش؟

ثالثًا: هل من حقي أن أصدر أحكامًا أخلاقية في مسائل الحياة اليومية؟ أي هل فلسفتي يمكن أن تصلح لآخرين؟



ولا يمكن أن يبقى أي من هذه المستويات بمعزل عن المستويين الآخرين. ولكنها لابد أن تتبع تسلسلاً معينًا. وإليك الترتيب: لابد أن تبدأ حجتك من المستوى الأول، ثم تقدم مثالاً يوضحها من المستوى الثاني، ثم تطبقها على المستوى الثالث. فالحياة لابد أن تسير من الحق إلى الخبرة ومنها إلى الإرشاد. وإن انتهك المؤمن أو الملحد هذا الترتيب، فهو لا يتعامل مع الواقع بل يخلق واقعًا خاصًا به.

وفهم هذه المستويات الثلاثة يكشف نقاط الضعف متعددة الأوجه التي تشوب الإلحاد. فعندما يكون الشعور أو الخبرة هو نقطة الانطلاق، تصبح الحياة غير قابلة للعيش لأنها ستواجه تناقضات على جميع الأصعدة. وإن كان التطبيق هو نقطة الانطلاق دون أن يكون هناك حق يؤيده، فهذا يشبه أيضًا الانطلاق من الشعور ولا يمكن تبريره. ولكن عندما يبدأ الفرد من الحق، يمكن إثباته من الخبرة ويمكن تقديمه للآخرين باعتباره الخيار الأخلاقي المقبول مدعمًا بالمبررات.

ولقد رأينا في دراستنا للإلحاد ما يحويه من تناقضات منطقية، وما يخلقه من جحيم وجودي، وما يقدمه من إرشادات وتصريحات حمقاء. وهذا الضعف متعدد الجوانب هو ما أثار هذا التعليق الساخر القاسي بأن الإلحاد أقدر على أن يشم البيض الفاسد من أن يبيض بيضًا جيدًا، أو أنه أقدر على مهاجمة منظومات أخرى من أن يدافع عن منظومته.

الملحق الثاني

تأسيس فلسفة حياتية

قلة من البشر يتبنون ما قد يشبْه ولو من بعيد فلسفةً واضحةً منظمةً اتخذوها، على أقل تقدير، من الشروح المبسطة والملخصة التي قدمها عظماء الفلاسفة. وأظن أن مجموعة أقل هي من تتبنى لاهوتًا دقيقًا محكمًا. ولكن الجميع لديهم فلسفة حياتية؛ نظارة يرون بها الحياة. ... والحقيقة أن القول بوجود فلسفة حياتية، مهما كانت بسيطة أو بدائية، هو ما يجعلنا قادرين على التفكير أصلاً.

"چيمز ساير" James Sire

ندخل هنا إلى ما يمكننا أن نطلق عليه شرعًا قلب الموضوع لأننا إن فشلنا في هذا الجزء، نفشل في كل شيء. والمكونات اللازمة لصنع الفلسفة الحياتية لا تُخلط معًا خلطًا عشوائيًا، ولا تُرَكَّب معًا عنوة حتى تتواءم مع الأحكام المسبقة عند صاحبها. ولكننا إن أردنا تأسيس فلسفة حياتية مبنية على الحق لابد أن ننطلق من أحكام مباشرة وغير مباشرة مثبتة بالأدلة. وعندما تتأسس هذه الفلسفة الحياتية، لابد أن تجتاز امتحانات معينة للتمييز بين المعرفة وبين ما هو مجرد رأي.

عدَّد "آرلي ج. هوڤر" Arlie J. Hoover في كتاب "الدفاع عن الإيمان بالله من منظور مسيحي" The Case for Christian Theism العناصر اللازمة لتأسيس فلسفة حياتية. وسأذكر منها خمسة، ثم أضيف بُعدًا آخر أراه مهمًا.

١- الفلسفة الحياتية السليمة شديدة التوافق مع الواقع، أي أن الحقائق تؤيد صحتها.

وهي ترفض كل ما هو زائف. ولابد أن تستوعب كل جوانب الواقع دون انتقاء أو تفضيل. لأن الفلسفة الحياتية إن نبذت الحقائق التي تتحدى أطروحتها أو جنَّبتها دون مبرر مقبول، فهذا يعني أنها تنطوي على أحكام واستنتاجات مسبقة، مما ينفي صحتها أصلاً.

٢- الفلسفة الحياتية السليمة يجب أن تتمتع بدرجة عالية من الاتساق أو الانسجام الداخلي. فأي نظام متناقض منطقيًا لا يمكن أن يكون صحيحًا. وإن كانت الفلسفة الحياتية متسقة داخليًا يستحيل أن تتوصل إلى استنتاجات متناقضة، حتى وإن أدى هذا التناقض إلى إشباع بعض "الاحتياجات" عند الفرد.

وسأوضح عنصري التوافق والاتساق بمثال. أتيحت لي الفرصة منذ عدة سنوات أن أحضر محاكمة جنائية في قضية اغتصاب طفل في محكمة "أولد بيلي" Old Bailey بلندن. وقد نظرت "أولد بيلي" في عدد من أشهر القضايا الجنائية في تاريخ لندن (حوكم فيها "أوسكار وايلد" سنة ١٨٩٥). وكان التوتر يسود الأجواء التي عجت بمشاعر الحاضرين من ألم، وغضب، وانفعال. وأصبح واضحًا جدًا أن المحامين يسعون لتحقيق شيئين. أولهما أن يؤكدوا صحة الادعاءات أو ينفوها بما يخدم مصلحة موكلهم. وثانيهما أن يبينوا الاتساق فيما بين الحقائق التي يقدمونها لهيئة المحكمة. وللوصول إلى بغيتهم أخذوا يسألون الشهود عن عناصر معينة كالمكان والزمان. ثم حاولوا، باستخدام حصيلة المعلومات هذه، أن يبينوا إما الاتساق أو التناقض.

وكان من المستحيل أن أستمع لهذه الإجراءات ولا أدرك أن الحق لا يمكن أن يُبنى على بيانات منفصلة؛ ولكنه لابد أن يتلاءم مع القصة المطروحة بوجه عام. وكان يستحيل أيضًا أن أهرب من حقيقة مؤكدة، ألا وهي أنه أيًا كان الحكم، فهو سيغير حياة الأطراف المعنية دون رجعة. وهذا السيناريو بكل ما يتضمنه لابد أن ينفَّذ عشرات المرات يوميًا في عالمنا. فالبحث عن التوافق مع الحقائق والاتساق الداخلي الذي يُنتجُ كلاً منسجمًا حتى في أدق المعتقدات لا يمكن الاستغناء عنه إن أردنا التوصل لاستنتاجات دقيقة. وهو ما ينطبق على المحاكمات وعلى كل جوانب الحياة.

٣- الفلسفة الحياتية السليمة تتمتع بقوة تفسيرية. فترتيب الحقائق ومقارنتها يؤدي إلى التوصل لمسلّمات مبدئية نبني عليها نظرياتنا وافتراضاتنا، وأخيرًا نحدد "القوانين" التي سنتبعها. أي أن الحقائق المتسقة والاستنتاجات المتكاملة تخلق منظومة. والحقائق في نهاية الأمر لا تقتصر على التعبير عن نفسها. ولكنها تساعد في بناء نظرية أو تزودنا بالعناصر الإرشادية، أي أنها تمثل النظارة التي نرى بها العالم.

٤- الفلسفة الحياتية السليمة تتجنب التطرف نحو أي من طرفي النقيض. وقد قال "هوڤر" إن هذا يعني أن الفلسفة الحياتية السليمة لا تتسم بشدة البساطة ولا بشدة التعقيد. وهو يستخدم "اختبار شفرة أوكام" "Occam's razor test" الشهير نسبةً إلى "ويليام الأوكامي" William of Occam (١٣٠٠- ١٣٤٩) الذي قال ما معناه: "لا تُضخم الكيانات دون داع"، وهو ما يعني أننا لابد أن نقاوم إغراء تقديم شروح شديدة التعقيد، وإن أصبح أحد الشروح شديد التعقيد، فشفرة "أوكام" تقطعه. ومن الجانب الآخر، لا يجب أن يكون الشرح شديد البساطة فيسقط في مغالطة الاختزال. فالنظر إلى الإنسان باعتباره كيانًا غير مفهوم هو تطرف نحو أحد النقيضين. واعتبار الإنسان مجرد كائن بيولوجي لا يختلف عن الحيوان يُعَد تقليلاً متطرفًا ينحاز لطرف النقيض الآخر. ومن ثم، فالفلسفة الحياتية السليمة لا تقدم تفسيرات شديدة التبسيط ولا شديدة التعقيد.

٥- الفلسفة الحياتية السليمة تستند إلى أكثر من دليل، ولا تعتمد على حجة واحدة وحيدة، بل على أدلة تراكمية تتجمع معًا من عدة مصادر للمعلومات. ويشرح "هوڤر" هذا المبدأ بتشبيه ممتاز إذ يصور الفيلسوف الميتافيزيقي بمدير المسرح الماهر الذي ينير الأضواء الموضوعة على زوايا مختلفة حول خشبة المسرح، واحدًا بعد الآخر. فتقع الإضاءة الصادرة عن كل المصابيح في وسط خشبة المسرح. وبعد أن تضاء كل المصابيح يمكنك أن ترى بؤرة الضوء في مركز خشبة المسرح الذي أراد مدير المسرح أن يبرزه.[1]

وأود أن أضيف للمكونات الخمسة التي وضعها "هوڤر" عنصرًا سادسًا مهمًا.

٦- الفلسفة الحياتية لا تكتمل في حد ذاتها إلا عندما تتمكن من تفنيد الفلسفات المضادة، ضمنًا أو صراحة. وهذا العنصر غالبًا ما يُنسى عندما يتوصل المرء إلى موقف فلسفي واضح. فإن كان لابد من تطبيق قانون عدم التناقض (لا يمكن أن تكون الجملة وعكسها صحيحين) على مكونات الفلسفة الواحدة، فلابد أيضًا من تطبيقه على الفلسفات المختلفة في علاقتها بعضها ببعض. ولذلك، فإن القول بأن كل ما نعرفه من أديان خاطئ أكثر منطقية من القول بأن كلها صحيح. فأي منظومة تفتح ذراعيها حتى تحتضن كل شيء سينتهي بها الأمر إلى خنق نفسها عندما تُغلق ذراعيها.

إلا أن معظم الفلاسفة الشرقيين يحتقرون قانون عدم التناقض، ولكنهم لا يقدرون أن يزعزوا حقيقته التي تتجلى في الحياة كلها. فكلما حاولوا الهجوم عليه، هاجمهم. ولهذا السبب عينه، قال أحد الصوفيين الشرقيين، انطلاقًا من إدراكه لاستحالة إنكار هذا القانون: "الأفضل التزام الصمت، لأنه عندما ينفتح الفم، يظهر أن الجميع حمقى". ولكن المشكلة أن فمه انفتح ليخبرنا بذلك. ولذا، مَن ينكر قانون عدم التناقض كمن يتحدث عن عصا ذات طرف واحد.

الفلسفة الحياتية لا تكتمل في حد ذاتها إلا عندما تتمكن من تفنيد الفلسفات المضادة، ضمنًا أو صراحة.

وبما أن هدفنا أن نصل إلى فلسفة حياتية تجتاز الاختبارات السابقة، فسأقترح المنهج الذي يفي بهذا الغرض.

لا خلاف على أن البشر كائنات متعددة القدرات أو متعددة الجوانب وأن معرفتنا بالواقع تأتينا من عدة مصادر متنوعة. ومن ثم، فإنه من المنطقي أن نقول إنه لا يمكن لاختبار واحد أن يغطي الحقيقة كلها. ولكنَّ الطريقة النموذجية تتمثل في استخدام مزيج من الاختبارات التي تبين صحة الشيء، بحيث إن هذا المزيج يعزز ما يميز تلك الاختبارات من نقاط قوة ويقضي على ما يشوبها من ضعف. وغالبًا ما يطلق على هذه الطريقة الجامعة combinationalism أوالكل المتسق النظامي systematic consistency لأنها تجمع عدة طرق للوصول إلى الاتساق المنطقي

logical consistency، والمصداقية التجريبية empirical adequacy، والتلامس مع الخبرة experiential relevance.

وقد اعتبر "نورمان جايسلر" في كتابه "الدفاعيات المسيحية" Christian Apologetics أن هذه الاختبارات الثلاثة مجتمعة غير كافية ما لم يسبقها اختباران آخران، أطلق على الأول "استحالة إثبات الزائف" "unaffirmability as a test for falsity"، والثاني "استحالة نفي الحق" "undeniability as a test for truth". وإن أردت متابعة الموضوع بالتفصيل، أقترح أن تقرأه كاملاً في الكتاب حتى تُحصَل أقصى استفادة. ومنطقُ "جايسلر" هنا يتلخص في أن الكل المتسق النظامي لا يصلح إلا للحكم على مكونات الفلسفة الحياتية الواحدة، أي أنه لا ينفي احتمالية أن بعض الفلسفات الأخرى قد تكون صحيحة. وأظن أن هذه النظرة تمثل الضبط الدقيق للعملية لأن الاختبار الثلاثي من الاتساق المنطقي، والمصداقية التجريبية، والتلامس مع الخبرة يجب أن يدمج معه اختبار استحالة الإثبات واستحالة النفي. فمثلاً أي منظومة تنفي قانون عدم التناقض تفشل في اختبار الاتساق المنطقي لأنها في نفيها للقانون تثبته في الوقت نفسه. وكذلك، عندما يحاول المرء أن ينفي وجوده يفشل في اختبار التلامس مع الخبرة لأنه يستخدم وجوده لينفي به وجوده. فاختبارا استحالة النفي واستحالة الإثبات أساسيان لاختبار الحق ولمنع أي محاولة لإنكار الواقع، سواء اعتبرناهما منفصلين عن الطريقة الجامعة أو جزءًا منها.

المنهج النهائي:

لقد اخترت الطريقة الجامعة لأن الدفاع عن أي موقف يجد نفسه عاجلاً أو آجلاً على هذا الطريق سواء أكان راضيًا أم مرغمًا. فقد قال "وينستون تشرشل" ذات مرة في حديثه عن استراتيجيات الحرب السرية إن الحق كنز ثمين جدًا لدرجة أنه محاط بحُراس من الأكاذيب. وهو ما ينطبق على كل جوانب الحياة، حتى وإن كان يحدث دون قصد أحيانًا. فغالبًا ما نتجنب الحق، أو نفشل في الإمساك به بسبب غيمة الأكاذيب التي تضللنا.

وسأسوق تشبيهًا آخر. تخيل دائرة مركزها الحق ومحيطها مقاومة عنيفة تمنع

الوصول إليه. وبالرغم من تعدد المحاولات للوصول إلى المركز من طرق مختلفة، لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق معين. وكلما اقترب المرء من المركز، ازدادت أهمية الاتساق النظامي وأصبح عنصرًا يستحيل الاستغناء عنه. فحتى "شانكارا" Shankara الفيلسوف الهندوسي المبجل رغم شدة ميله لمنطق يُقال إنه شرقي ومحاولاته المتكررة للهروب من قانون عدم التناقض، يبذل قصارى جهده ليقدم استنتاجات "متسقة". إن قوة جذب المركز تجعل الاتساق أمرًا لا مفر منه.

وباختصار، أقول إني أحدد منهجي في إطار من ثلاثة وأربعة وخمسة. الاختبارات الثلاثة (الاتساق المنطقي، والمصداقية التجريبية، والتلامس مع الخبرة) لابد أن تتمكن من تقديم إجابات متسقة حقيقية لأربعة أسئلة عن أصل الإنسان، ووضعه الأخلاقي، وخلاصه، ومصيره. وهذه الجوانب الأربعة بدورها لابد أن تتعامل مع خمسة موضوعات: الله، والحقيقة، والمعرفة، والأخلاق، والجنس البشري، أو يمكن التعبير عن هذه الخمسة بمصطلحات: اللاهوت، وما وراء الطبيعة، والإبستيمولوجي [نظرية المعرفة]، وفلسفة الأخلاق، والأنثروبولوجي [علم دراسة الإنسان].

ويمكن أن نعكس هذا الترتيب ونقول إنه على أساس دراسة هذه الموضوعات الخمسة، فإن إجابة الأسئلة الأربعة تكمن في اختبار الاتساق النظامي الثلاثي الذي يبين الحق من الزيف. وعندئذٍ يتكون عندنا إطار مفاهيمي أو نظارة نرى بها هذا العالم تمثل أساسًا قويًا في فهم الحقيقة وتتمكن من التعامل مع الحق والخطأ.[٢]

ملاحظات

الفصل الأول: حانوتية المطلق

١- المصدر الأصلي الذي أخذ عنه "قاموس الاقتباسات" *Dictionary of Quotations* هو جريدة *Seattle Daily Times* عدد ٧ أيار / مايو ١٩٦٢، ص ٢ Gherman Titov: "Some say God is Living here [in space]. I was looking around very attentively. But I did not see anyone there. I did not detect angels or gods. ... I don't believe in God. I believe in man, his strength, his possibilities, and his reason."

٢- Mortimer Adler, *The Synopticon: An Index to the Great Ideas,* vol. 1 (Chicago: Britannica, 1952), 543.

٣- Stephen Hawking, *A Brief History of Time* (New York: Bantam Books, 1988).

٤- في ٣١ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٢ أعلن البابا يوحنا بولس الثاني رسميًا أن جاليليو "ليس مدانًا" بتهمة الهرطقة التي نسبتها إليه الكنيسة الكاثوليكية.

٥- Stanley Jaki, *The Road of Science and the Ways to God* (Edinburgh: Scottish Academic Press, 1986), 447.

٦- Friedrich Nietzsche, in Faru Förster Nietzsche, *The Life of Nietzsche,* vol. 2 (New York: Sturgis and Walton, 1921), 656.

٧- السوبرمان هو مَن نجح في تنظيم فوضى رغباته المحمومة، وأعطى شخصيته شكلاً محددًا، وأصبح مبدعًا. ورغم وعيه بما في الحياة من أشكال الرعب، فهو نصير لها دون أن يضمر داخله أي مشاعر ضغينة تجاهها. وهو الذي يقف ضد

الله بوصفه النقيض المادي له. وقد رأت أخت "نيتشه" في شيخوختها أن هتلر هو من جسَّد ذلك النموذج النيتشاوي.

٨- Friedrich Nietzsche, "The Gay Science," in *The Portable Nietzsche*, ed. and trans. Walter Kaufmann (New York: Viking, 1954), 125.

٩- Bryan Magee, *The Great Philosophers* (London: BBC Books, 1987), 247.

١٠- Quotation from table of contents for story by Dick Lehr and Mitchell Zuckoff, "The Thrill Killers," *Reader's Digest* (August 2003), 3.

١١- المرجع السابق، ص١٨٣

١٢- Malcolm Muggeridge, A Third Testament (New York: Ballantine Books, 1983).

الفصل الثاني: ألبس من مسبب؟

١- C. Bibby, *Scientist Extraordinary: Life and Scientific Work of Thomas Henry Huxley* (New York: Pergamom, 1972), 41.

٢- T. H. Huxley, *Westminster Review* 17 (1860), 541–70

٣- Jaki, *Road of Science*, 282

٤- راجع على سبيل المثال أعمال "ويليام ديمسكي" William Dembski وكذلك "مايكل بيهي" وغيرهما. والعديد من العلماء الآخرين الذين يشككون في المزاعم الداروينية وقَّعوا بالإجماع على "وثيقة اللجنة المخصصة لأصل الحياة" Ad Hoc Origins Committee Document التي يصرحون فيها بالقول: "نعتقد أن إخضاع الدراوينية لعملية إعادة تقييم نقدي أمر ضروري وممكن". ويمكن الاطلاع على الوثيقة والموقعين عليها على Apologetics.org, http://www.apologetics.org/news/adhoc.html.

٥- Mary Hesse, "Criteria of Truth in Science and Theology," *Religious Studies 11* (1976): 385–400.

٦- Charles Sherrington, *Man on His Nature* (London: Pelican Books, 1955), 187.

٧- كان "جريجور مندل" (١٨٢٢- ١٨٨٤) أول من تتبع الصفات الوراثية في الأجيال المتعاقبة للكائنات الحية، ووصفها.

٨- R. J. Berry, *God and Evolution* (London: Hodder & Stoughton, 1988), 93.

٩- المناظرة بين "التوازن المتقطع" "punctuated equilibrium" والتدرج التطوري التقليدي أو نظرية الاصطناع الحديث للتطور synthetic theory أثارت ملاحظات شديدة الصلة بالموضوع. فقد قال "ستيڤن چاي جولد":

"إن جميع علماء الحفريات يعلمون أن سجل الحفريات لا يحتوي إلا على عدد لا يُذكر من الأدلة التي تبين وجود أشكال وسيطة، أي أن الانتقال من مجموعة كبرى إلى مجموعة أخرى عادةً ما يحدث فجأة". ("عودة الوحش المتفائل"، مجلة "التاريخ الطبيعي" ٨٦ العدد السادس [١٩٧٧]: ص ٢٢- ٣٠ "Return of the Hopeful Monster," *Natural History 86*, no. 6 [1977]: 22–30). وفي موضع آخر يقول في أحد أعمدته الدورية في مجلة "التاريخ الطبيعي": "إن الندرة الشديدة للأشكال الانتقالية في سجل الحفريات يظل هو سر المهنة في علم الحفريات. والأشجار التطورية التي تزين كتبنا الدراسية لا تملك بيانات إلا على أطراف فروعها وعقدها، أما باقي الموضوع فهو لا يزيد عن مجرد استنتاجات، وبالرغم من منطقيتها، فهي لا تمثل أدلة حفرية". (مجلة "التاريخ الطبيعي" ٨٥ العدد الخامس [١٩٧٧]: ١٤ :Natural History 85, no. 5 [1977]: 14).

١٠- Berry, *God and Evolution*, 99.

١١- Jaki, *Road to Science*, 287, 442.

١٢- Lesslie Newbigin, *Foolishness to the Greeks* (London: SPCK, 1986), 74.

١٣- George Beadle, "Address at the Chicago Sunday Evening Club," quoted in the *Chicago Daily News* (March 18, 1962).

١٤- Francis H. C. Crick, *Of Molecules and Men* (Seattle: University of Washington Press, 1966), 10.

١٥- Jacques Monod, *Chance and Necessity* (London: E. T. Collins, 1973), 10.

١٦- المرجع السابق، ص ١٦٧

١٧- John Polkinghorne, *One World* (London: SPCK, 1986), 79–80.

الفصل الثالث: معاناة الفضيلة

١- Stephen Crane, "A Man Said to the Universe," http://eir.library.utoronto.ca/rpo/display/poem582.html.

٢- Nietzsche, *The Portable Nietzsche*, 515.

٣- الأحادية monism هي الاسم الذي يطلق على مجموعة من الأفكار التي تؤكد الواحدية أو وحدة الحقيقة. وبينما يؤمن البعض بالأحادية إيمانًا جزئيًا، إلا أن "شانكارا" كان يؤمن بالأحادية إيمانًا كاملاً. ومن ثم، آمن أن "المطلق" يتجاوز نطاق المسلمات. والحقيقة المطلقة Ultimate Reality هي "براهمان" Brahman، وكل ما عداه هو لا كينونة non-being.

٤- Peter Kreeft, *Three Philosophies of Life* (San Francisco: Ignatius Press, 1989), 17–18.

٥- Alasdair MacIntyre, *After Virtue* (London: Duckworth, 1987), 2.

٦- انظر مثلاً كتاب "داڤيد ليمبو" David Limbaugh "الاضطهاد: حرب الليبراليين على المسيحية" *Persecution: How Liberals Are Waging War Against Christianity* (Washington, D.C.: Regnery, 2003) حيث يتناول بكل دقة ما تقوم به النخبة العلمانية من محاولات بغيضة لمحو تأثير المسيحية من مدارس الدولة.

٧- Bertrand Russell, *Why I Am Not a Christian* (London: Unwin Books, 1967), 146.

٨- Frederick W. H. Myers, *Criticisms and Interpretations*, Bartleby.com, http://www.bartleby.com/309/1001.html.

٩- Paul Johnson, *Intellectuals* (New York: Harper & Row, 1988), 246.

١٠- William Shirer, *The Rise and Fall of the Third Reich: A History of Nazi Germany* (New York: Simon & Schuster, 1960), 100.



١١- Adolf Hitler, in Norman Geisler, "Wretched Refuse," *Kindred Spirit*, August 1988.

١٢- Charles Darwin, "Letter to N. Gray, June 5, 1861," *in Life and Letters of Charles Darwin, ed. Francis Darwin* (1888, repr; New York: Basic Books, 1959), 2:374.

١٣- Darwin, "Letter to W. Graham, June 3, 1881," *in Life and Letters*, 1:316.

١٤- G. K. Chesterton, *As I Was Saying*, ed. Robert Knille (Grand Rapids: Eerdmans, 1984), 267.

١٥- Robert E. Fitch, "The Obsolescence of Ethics," *Christianity and Crisis: A Journal of Opinion* 19, no. 19 (November 16, 1959), 163–65.

١٦- Johnson, *Intellectuals*, 251. قدم الدكتور "نورمان جايسلر" أدلة جيدة على أن "چان پول سارتر" آمن بوجود الله في أواخر أيامه، ويمكن الاطلاع على ذلك في كتابه "هل الإنسان هو المقياس؟ تقييم للفلسفة الإنسانية المعاصرة" *Is Man the Measure? An Evaluation of Contemporary Humanism* (Grand Rapids: Baker Books, 1983), 46.

١٧- Johnson, *Intellectuals*, 342.

١٨- William Shakespeare, *The History of Troilus and Cressida*, quoted in Richard Weaver, *Ideas Have Consequences* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), 39.

١٩- J. P. Stern, quoted in Magee, *The Great Philosophers*, 242.



الفصل الرابع: سيزيف والمستحيل

١- T. S. Eliot, "Choruses from 'The Rock,' " *The Complete Poems and Plays of T. S. Eliot* (London: Faber & Faber, 1989), 147.

٢- Voltaire, *Candide* (New York: Bantam, 1967), 97.

٣- Paul Waitman Hoon, *Integrity of Worship* (Nashville: Abingdon, 1971), 30. يدمج "هون" أفكاره عن هذا الصراع بين الحرية والعبودية مع أفكار "لاندون جيلكي" Langdon Gilkey.

٤- "قاموس أكسفورد الإنجليزي" *Oxford English Dictionary* يذكر أن كلمة "ملل" *boredom* ظهرت مكتوبة لأول مرة سنة ١٨٥٢

٥- Chesterton, *As I Was Saying*, 265.

٦- Samuel Taylor Coleridge, in Rupert Christiansen, *Romantic Affinities* (London: Sphere Books, 1988), 66.

٧- James Simpson, in Peter Masters, *Men of Destiny* (London: The Evangelical Times, 1968), 36.



الفصل الخامس: شكوك خطيرة

١- William James, "The Sick Soul," in *The Varieties of Religious Experience*, ed. Martin E. Marty (New York: Penguin Books, 1982), 163.

٢- Bertrand Russell, "A Free Man's Worship," *Mysticism and Logic and Other Essays* (London: Allen & Unwin, 1963), 41.

٣- Malcolm Muggeridge, *Conversion* (Glasgow: William Collins Sons & Co. Ltd., 1988), 62.

٤- Alfred Lord Tennyson, "In Memoriam A.H.H.," in *The Norton Anthology of English Literature*, 3rd ed., ed. M. H. Abrams (1975; repr. New York: W. W. Norton & Co., 2004), 55:2, 56:1–7.

٥- William Wordsworth, "We Are Seven," ibid., 1367–69.

٦- Winston Churchill, "The Grand Alliance," *Who Said What When* (London: Bloomsbury, 1988), 249.

٧- المصدر والكاتب غير معلومين.



الفصل السادس: التسلق في الضباب

١- C. S. Lewis, *Surprised by Joy* (New York: Harcourt, 1956), 228–29.

٢- Colin Gunton, *Enlightenment and Alienation* (London: Marshall, Morgan & Scott, 1985), 11.

٣- لمن يرغب في الاطلاع على تعريفات محددة وأوصاف مفصلة لهذه المدارس الفكرية، أوصي بكتاب "نورمان جايسلر" "الدفاعيات المسيحية" *Christian Apologetics* (Grand Rapids: Baker Books, 1976).

٤- See chapter 3, "The Anatomy of Faith" in Arlie J. Hoover, *Dear Agnos: Letters to an Agnostic in Defense of Christianity* (Joplin, MO: College Press Publishing Company, 1992), http://members.core.com/~tony233/Dear_Agnos.htm.

٥- "ديكارت" نفسه استخدم منهجًا شيقًا للتعامل مع الحواس. فقد انطلق من نقطة اليقين العقلاني ليبني حجة تدلل على وجود الله. وبعد أن أسس تلك الحجة شعر أن الله يستحيل أن يكون خادعًا وقدم حجة تبرهن على وجود عالم أبدي بناءً على الإيمان بوجود الله.

٦- Albert Einstein, *Ideas and Opinions* (London: Souvenir Press, 1973), quoted in Lesslie Newbigin, *The Gospel in a Pluralistic Society* (London: SPCK, 1989), 29.

٧- إن رغب القارئ في الاطلاع على حجة قوية تؤيد الإيمان بوجود الله، أنصح بقراءة كتاب "الدفاعيات المسيحية" أو "فلسفة الدين" *Philosophy of Religion* للكاتب "نورمان جايسلر". وكتاب "تعرية المدينة العلمانية" *Scaling the Secular City* للكاتب "ج. ب. مورلاند" J. P. Moreland يعرض الحجة والحجة المضادة ببراعة علمية مدهشة. انظر أيضًا "الإيمان المنطقي: الحق

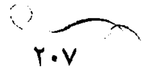


المسيحي والدفاعيات" Reasonable Faith: Christian Truth and Apologetics للكاتب "ويليام لين كريج" الذي شارك (Wheaton, IL: Crossway, 1994) أيضًا في مناظرتين رائعتين: مناظرة "ما الأدلة المؤيدة والمضادة لوجود الله؟" "What Is the Evidence For/Against the Existence of God?" (مع الملحد الجريء "پيتر أتكينز" Peter Atkins) ومناظرة "هل الله موجود؟" "Does God Exist" (مع الفيلسوف الملحد الشهير "أنتوني فلو" Anthony Flew). ويمكن الحصول على تسجيل فيديو للمناظرتين من Ravi Zacharias International Ministries in Atlanta; www.rzim.org. ولكني طبقًا لأغراض هذا الكتاب، لن أدخل في ذلك المجال لأن مناقشة هذه الحجة تتطلب كتابًا دراسيًا وليس موضوعًا يتناول الصراع الوجودي من أجل العثور على المعنى، وإن كان المنهجان يكملان بعضهما بعضًا. ولذلك، أوصي بهذه المصادر للحصول على رؤية كاملة للحجج التي تؤيد الإيمان.

٨- See Ronald N. Nash, *Faith and Reason* (Grand Rapids: Zondervan, 1988), 33.

٩- George MacDonald, *The Curate's Awakening* (Minneapolis: Bethany House, 1985), 161.

١٠- Richard Weaver, *Ideas Have Consequences* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), 19.



الفصل السابع: عيون أكبر

١- يقترح "سي. إس. لويس" فكرة وجيهة إذ يقول بأن الكون نفسه معجزة. "إن كان "الطبيعي" يعني كل ما يمكن تصنيفه، وكل ما يخضع لقاعدة، وكل ما يوجد له أشباه، وكل ما يمكن تفسيره بأحداث أخرى، إذن "الطبيعة" نفسها ككل ليست طبيعية. وإن كانت المعجزة تعني كل ما يجب أن نقبله ببساطة، أي الواقع الفعلي الذي لا يمكن تفسيره، ولا يقدم شرحًا لنفسه، ولكنه كائن بالفعل، إذن فالكون معجزة عظيمة" (*God in the Dock* [Grand Rapids: Eerdmans, 1970], 36, .(Lewis's emphasis

٢- Colin Gunton, *Enlightenment and Alienation* (London: Marshall, Morgan .& Scott, 1985), 48

٣- Robert Jastrow, *God and the Astronomers* (New York: Warner Books, .1978), 105

٤- .Chesterton, *As I Was Saying*, 267

٥- J. Morley, *Life of Gladstone*, vol. 3, 535, quoted in *Making Moral .Decisions*, ed. D. M. MacKinnon (London: SPCK, 1969), 48

٦- Joseph Fletcher, *Situation Ethics* (Philadelphia: Westminster Press, .1966), 77

٧- .Iris Murdoch, *The Sovereignty of Good* (London: ARK Pub., 1989), 80

٨- Alexander Pope, "An Essay on Criticism," *Who Said What When* .(London: Bloomsbury, 1988), 125

٩- .Alexis de Tocqueville, *Voyage en Angleterre et en Irlande*, May 18, 1835

١٠- .Paul Johnson, *Modern Times* (New York: Harper & Row, 1983), 428



١١- Bernard Shaw, preface to "Imprisonment," *English Local Government,* quoted in Making Moral Decisions, ed. D. M. MacKinnon (London: SPCK, .1969), 67

١٢- Reinhold Niebuhr, *Moral Man and Immoral Society* (London: SCM .Press, 1963), 265–66

١٣- From a debate between Dennis Prager and Jonathan Glover, "Can We Be Good without God?" Oxford University, March 3, 1993, included in *Ultimate Issues*, vol. 9, no. 1. This debate is available at http://www. .dennisprager.com

١٤- .Alfred Lord Tennyson, "In Memoriam A.H.H.," 119, 124:11–15

١٥- .Lee Iacocca, *Talking Straight* (New York: Bantam, 1988), 35

١٦- .Rudolph Bultmann, in Gunton, *Enlightenment and Alienation*, 92

١٧- للمزيد من الاطلاع على المقارنة بين "فرويد" والمسيحية (بعدسة "سي. إس. لويس")، راجع كتاب "مسألة الله: سي. إس. لويس وسيجموند فرويد يتناظران حول الله، والمحبة، والجنس، ومعنى الحياة" *The Question of God: C. S. Lewis and Sigmund Freud Debate God, Love, Sex, and the Meaning of Life* (New York: The Free Press, 2002). وهو مرجع ممتاز للدكتور "أرماند م. نيكولي" Armand M. Nicholi

١٨- Francis Thompson, "The Hound of Heaven," http://eir.library. .utoronto.ca/rpo/display/poem2204.html

١٩- ".G. Wade Robinson, "I Am His and He Is Mine

٢٠- T. S. Eliot, "Little Gidding," in *T. S. Eliot, The Complete Poems and .Plays* (London: Faber & Faber, 1989), 197

٢١- Malcolm Muggeridge, *Jesus Rediscovered* (Garden City, NY: .Doubleday, 1969), 77

٢٢- Thomas Merton, *Seeds of Contemplation* (New York: New Directions, 1949).

٢٣- Will Durant, *Caesar and Christ* (New York: Simon & Schuster), 602.

٢٤- للمزيد من الاطلاع على الأدلة التراكمية والمقنعة على قيامة يسوع المسيح، يمكن الرجوع للكثير من الكتب الممتازة. وهي تتناول كلاً من الأدلة الكتابية وغير الكتابية. وأكتفي هنا بذكر القليل منها، ورغم أنها كُتبَت منذ سنوات، فهي تصنَّف ضمن الكلاسيكيات وتستحق القراءة:
R. T. France, *The Evidence for Jesus* (Downers Grove, IL: Inter-Varsity, 1986); John Warwick Montgomery, *History and Christianity* (Downers Grove, IL: InterVarsity, 1965); Frank Morison, *Who Moved the Stone*? (Grand Rapids: Zondervan, 1958); Terry L. Miethe, ed., *Did Jesus Rise from the Dead? The Resurrection Debate* (San Francisco: Harper & Row, 1989). In the Miethe source the two debaters are Gary Habermas and Anthony Flew.

٢٥- C. S. Lewis, *The Lion, the Witch and the Wardrobe* (London: William Collins Sons & Co., 1950), chap. 15.

٢٦- Chesterton, "The Convert," in *As I Was Saying*, 25.

٢٧- Paul W. Hoon, *Integrity of Worship* (Nashville: Abingdon, 1971), 141.

٢٨- Don Wyrtzen and L. E. Singer, "Finally Home."

٢٩- Blaise Pascal, "Section III: Of the Necessity of the Wager" in *Pensées*, trans. W. F. Trotter (1660; trans. 1907; Christian Classics Ethereal Library, 1997), http://www.ccel.org/p/pascal/pensees/pensees04.htm.

٣٠- Pascal, *Pensées*, chap. XII, 434.



الملحق الأول:

١- C. S. Lewis, "Learning in War-Time," in *The Weight of Glory* (San Francisco: HarperSanFransico, 1980), 59.

٢- Ambrose Bierce, *The Devil's Dictionary*, chap. 13, excerpt 54 (New York: Oxford University Press, 1999), 134.

٣- Somerset Maugham, *The Summing Up* (New York: Viking Press, 1938).

٤- Peter Kreeft, *Three Philosophies of Life* (San Francisco: Ignatius, 1989), 54.

٥- Words and music to "Dear Mr. Jesus" by Richard Klender. Song performed by Sharon Batts. See http://www.richardklender.com/ and http://DayOf TheChild.org.

٦- Colin Gunton, *Enlightenment and Alienation* (London: Marshall, Morgan & Scott, 1985), 33.

٧- Stephen Leacock, *Literary Lapses* (London: J. Lane; New York: John Lane Company, 1911), BrainyQuote, http://www.brainyquote.com/quotes/quotes/s/stephenbl105033.html.

الملحق الثاني:

١- Arlie J. Hoover, *The Case for Christian Theism* (Grand Rapids: Baker Books, 1976), 52.

٢- Ronald Nash in *Faith and Reason* rightly considered these as needful for a worldview study.

نبذة عن المؤلف

"رافي زكراياس" Ravi Zacharias هو مؤسس ورئيس هيئة (Ravi Zacharias International Ministries (RZIM التي احتفلت سنة ٢٠١٤ بمرور ثلاثين عامًا على تأسيسها. وقد تحدث الدكتور "زكراياس" على مدى حوالي ٤٢ سنة في العديد من جامعات العالم، أهمها هارڤارد، دارتماوث، چونز هوبكينز، أكسفورد. وتحدث كذلك أمام اللجنة التي صاغت اتفاق السلام في دولة جنوب أفريقيا، وأمام مستشاري رئيس بيرو وبرلمانها، وضباط "أكاديمية لينين العسكرية"، وتحدث أيضًا في مركز الاستراتيجيات السياسية الجغرافية في موسكو. وقد لبى دعوة رئيس نيجيريا ليتحدث في إفطار الصلاة السنوي الأول للقادة الأفارقة First Annual Prayer Breakfast for African Leaders الذي انعقد في موزمبيق.

والدكتور "زكراياس" على اتصال مباشر بعدد من أهم القادة، وأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي والكونجرس، والحكام الذين يطلبون مشورته باستمرار. وقد تحدث أمام الهيئة التشريعية لولاية فلوريدا، وتحدث أيضًا في إفطار صلاة الحاكم في ولاية تكساس، وتحدث مرتين في إفطار الصلاة السنوي التابع للأمم المتحدة في نيويورك الذي يفتتح فاعليات الجمعية العامة للأمم المتحدة سنويًا. وبصفته الرئيس الشرفي ليوم الصلاة الوطني National Day of Prayer لسنة ٢٠٠٨، فقد تحدث في كل من البيت الأبيض والبنتاجون وفي مبنى Cannon House أقدم مباني الكونجرس الأمريكي. وكان له شرف الحديث في اجتماعات إفطار الصلاة القومية في بعض من أهم العواصم، مثل أوتاوا عاصمة كندا، ولندن عاصمة إنجلترا، وتحدث كذلك في مقر المخابرات الأمريكية في واشنطن.

وُلد الدكتور "زكراياس" في الهند سنة ١٩٤٦ وهاجر مع أسرته إلى كندا وهو في العشرين من عمره. وقد عمل في إدارة الأعمال قبل أن يدخل مجال الكتابة والحديث في المحافل العامة. وعمل أستاذًا زائرًا في جامعة كامبريدچ حيث درَس فلسفة الأخلاق وأدب الحقبة الرومانسية، وتم تكريمه بمنحه ست درجات دكتوراه فخرية، منها دكتوراه في القانون، وأخرى في اللاهوت. وهو حاليًا يشغل منصب



باحث زميل متقدم في "ويكليف هول" Wycliffe Hall بجامعة أكسفورد في انجلترا.

وقد قام "زكراياس" بتأليف وتحرير أكثر من عشرين كتابًا، فاز أحدها بجائزة Gold Medallion المسيحية وهو كتاب "هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدون الله" (*Can Man Live Without God Word, 1994*) ، ومن أهم مؤلفاته أيضًا كتاب "الرحلة من الشرق إلى الغرب" (*Walking from East to West Zondervan,* 2006)، وكتاب "النساج الأعظم" (*The Grand Weaver Zondervan,* 2007)، وكتاب "هل خذلتك المسيحية؟" (*Has Christianity Failed You?* Zondervan, 2010)، وكتاب "لماذا يسوع" (*Why Jesus FaithWords,* 2012)، وكتاب "أبعد من الآراء" (*Beyond Opinion Thomas Nelson,* 2007) الذي يضم إسهامات عدد من أعضاء فريق RZIM من أماكن مختلفة حول العالم. وأحدث مؤلفاته كتاب بعنوان "الحمل والزعيم هتلر" (*The Lamb and the Fuhrer Kingstone Media*) وهو عبارة عن رواية مصورة صدرت في يونيو ٢٠١٤. وصدر له أيضًا عن دار نشر FaithWords في أكتوبر ٢٠١٤ كتاب بعنوان "لماذا الألم؟" *Why Suffering*? اشترك في تأليفه مع "ڤينس ڤيتالي" Vince Vitale. وتُرجم عدد من كتبه إلى الروسية والصينية والكورية والتايلاندية والأسبانية وغيرها من اللغات.

وقد صنفت "مؤسسة ستالي" Staley Foundation الدكتور "زكراياس" ضمن المحاضرين المتميزين. وظهر الدكتور "زكراياس" على شاشة CNN، وشاشة FOX وغيرهما من القنوات العالمية. وبرنامجه الإذاعي الأسبوعي "فَكِّر يا شعبي" "Let My People Think" يذاع على ٢٠٨٧ محطة حول العالم، وبرنامجه "مجرد تفكير" "Just Thinking" الذي يذاع يوميًا ماعدا يومي السبت والأحد يُبث على ٧٠٦ محطة، ويذاع برنامج "مجرد فكرة" "Just a Thought" على ٤١٤ محطة ومدته دقيقة واحدة. وتترجَم البرامج في العديد من المحطات إلى اللغة الرومانية واللغة التركية. وبرنامج "فَكِّر يا شعبي" يُبث بالأسبانية تحت عنوان "Pensemos" على ما يزيد عن ٢٥٠ محطة في سبعة عشر دولة. وبرنامجه التليفزيوني "فَكِّر يا شعبي" يذاع في عدد من بلدان العالم، منها إندونيسيا. ويقع المقر الرئيسي لهيئة RZIM في مدينة أتلانتا بولاية چورچيا الأمريكية ويتبعه أحد عشر مكتبًا إقليميًا حول العالم.

الإلحاد عالم يخلو من الله. وهو في جوهره يأس، سواءً تَنكرَّ في ثياب التصوف الشرقي أو التشاؤم الأمريكي. يكشف "رافي زكرياس" في هذا الكتاب الثاقب المثير ما ينطوي عليه الإلحاد من يأس كامل. ويشرح كيف أن اعتناق فلسفة حياتية مبنية على الإيمان بالله هو مفتاح الإشباع وتحقيق الذات. وكتاب "الوجه الحقيقي للإلحاد" يقدم فحصًا منظمًا لموقف الإلحاد من الطبيعة البشرية، ومعنى الحياة، والأخلاق، و"العلة الأولى"، والموت، وغير ذلك.

إن كنت تبحث عن إجابة أهم سؤال في عصرنا هذا، فإليك هذا الكتاب الذي يتناوله بكل جرأة. إن "رافي" يتمتع بالأمانة الفكرية والإدراك الروحي. وما يقدمه من شرح وتصوير يساعد في تبسيط أعمق المفاهيم ويلمس كلاً من القلب والعقل. "بيلي جراهام"

"رافي زكرياس" يتميز بفهم عميق للصراعات الفكرية التي يجتازها المرء في تعامله مع الله. وإني أعتبر الدكتور "زكرياس" واحداً من عظماء المدافعين المسيحين في عصرنا. "چوش ماكدويل"

"رافي زكرياس" يتمتع بموهبة فريدة في تناول هذه الموضوعات. "آر. سي. سپرول"

"رافي زكرياس" هو رجل يتميز بقوة الفكر وعمق اللاهوت. وقد ساهمت خلفيته وتنشئته في إحاطته بثقافات مختلفة ومعرفته بأديان أخرى. "چاي كسلر"

"رافي زكرياس" ذو عقل متوقد، وقلب دافئ، وروح حارة، وأسلوب جذاب. فهو باختصار مدافع عظيم. "دي. ستيوارت بريسكو"

"رافي زكرياس" هو رئيس هيئة **RZIM** ويقدم برنامجاً إذاعياً بعنوان *Let My People Think* الذي يوصل صوته للعالم أجمع. وقد أتاح له منصبه السابق بوصفه أستاذاً زائراً في كامبريدج أن يقدم محاضراته في أرقى جامعات العالم وفي أكثر من خمسين دولة. وقد ألـّف العديد من الكتب، منها كتاب "يسوع بين آلهة أخرى" *Jesus Among Other Gods*
وكتاب "هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدون الله" *Can Man Live Without God*